وزارة التّعليـم العالـي والبحـث العلـمـــي
جامعـــة قـــاصـــدي مربـــاح ـــ ورقلـــة ـــ
كلية الآداب واللّغات
قسم اللّغة والأدب العربي

السياق وأثره في توجيه الخطاب القرآني
في كتاب "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن "للشنقيطي

مذكرة مقدَّمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي
تخصّص الفكر النَّحويّ واللّسانيات

إعـداد الطّالب: إسماعيل يوسفي
إشراف
الدكتور: أحمد بلخضر

السّنـــــــــــة الجـــــــــــامعيـــــة

1433-1434هـ/2012-2013م

المقدمـــــــة

المقدمة :

إنّ من أعظم الخير أن يسعد المسلم بخدمة كتاب الله تعالى فينعم بتلاوته ،وتأمّله وتذوّق أسلوبه،وهذا خير ما يبذل فيه المسلم وقته وجهده،ومن أعظم ما يعين علىتدبّره,واستخراجأسرارهوكنوزه،واستنباط المعاني وإنتاج الدلالة ،اللجوء إلى قرينة السياق . حيث أن من أعظم ما يفصل فيه السياق الترجيح بين الأقوال المختلفة والآراء المتباينة ، وهو من أعظم القرائن الترجيحيّة في التفسير ، يقول ابن جزي:"من أوجه الترجيح: أن يشهد بصحة القول سياق الكلام ، ويدل عليه ما قبله وما بعده " [1]وهذا كاف في بيان أهميّة تناول دلالة السياق وأثره البالغ في توجيه الخطاب القرآني،غير أن ممّا يجدر ذكره هنا في بيان أهميّة هذه الدراسة أنّها جاءت تطبيقية على كتاب عظيم حفل فيه مؤلفه بالسياق كثيرا ، بل إنه مبني على السياق من أوّله إلى آخره، واعتمده تصحيحا وتضعيفا ،قبولا وردا ،فكان هذا فضلا من الله علي في اختيار موضوع "السياق وأثره في توجيه الخطاب القرآني في أضواء البيان للشنقيطي" .

أسباب اختيار الموضوع :

حين كنت أبحث عن موضوع لرسالتي في الماجستير كنت أبتغي بحث قضية من خلال كتب التفاسير المشهورة ؛ لأستفيد من مطالعة تفسير كامل لكتاب الله ولأثري ملكتي من خلال ما أردت الإقدام عليه ، وكان تفسير " أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" يعد بحق موسوعة تفسيرية لم تعط حقها من الدراسة اللغوية الحديثة ،وهو تفسير بكر لاز الت الدراسات فيه جديدة ، لكن بعد أن تم قبول طلبي ، عثرت على رسالة تناولته بالدراسة ، فحاولت جاهدا ألا أكرّر ما قاله الباحث وأن تكون دراسة الموضوع مغايرة أتطرق فيها إلى السياق بنوعيه ؛ السياق اللغوي وغير اللغوي ومن أجل الإلمام بالموضوع، اتبعت خطة تبدو لي مناسبة بحيث قسّمت

[1] ابن جزي الغرناطي ، التسهيل لعلوم التنزيل ، ج1 ، ص 13

البحث إلى مقدمة وباب تمهيدي يتعلق بترجمة محمد الأمين الشنقيطي ومنهجه في كتابه , ثم تلاه **الفصل الأول**: السياق والخطاب القرآني.

المبحث الأول: السياق بين الدراسات اللغوية القديمة والدراسات اللغوية الحديثة ..

المبحث الثاني : مفهوم الخطاب القرآني .

والفصل الثاني : السياق اللغوي وأثره في توجيه الخطاب القرآني،

المبحث الأول : سياق النص القرآني وأثره في توجيه الخطاب القرآني **.**

المبحث الثاني :السياق وأثره في توجيه الإفراد والتثنية والجمع .

المبحث الثالث : السياق وأثره في التذكير والتأنيث .

المبحث الرابع : سياق النص وأثره في توجيه مرجع الضمير .

المبحث الخامس : السياق النحوي وأثره في توجيه الخطاب القرآني .

المبحث السادس : السياق الصوتي وأثره في توجيه الخطاب القرآني .

المبحث السابع : السياق الصرفي وأثره في توجيه الصيغ الصرفية .

المبحث الثامن : السياق البلاغي وأثره في توجيه الحطاب القرآني .

والفصل الثالث : السياق غير اللغوي وأثره في توجيه الخطاب القرآني ،.

المبحث الثاني : سياق الموقف وأثره في توجيه الخطاب القرآني .

أ ـ سياق سبب النزول وأثره في توجيه الخطاب القرآني .

المبحث الثالث:السياق الثقافي وأثره في توجيه الخطاب القرآني .

المبحث الرابع : سياق لسان العرب وأثره في توجيه الخطاب القرآني .

المبحث الخامس: سياق الثقافة الأصولية وأثره في توجيه الخطاب القرآني . **المبحث السادس** : السياق العاطفي وأثره في توجيه الخطاب القرآني .

وانتهى البحث بـ**خاتمة** رصدت فيها أهمّ النتائج التي توصلت إليها .أما الفكرة التي انطلق منها البحث فهي التساؤلات التي ما فتئت تتزاحم في الذهن هي:هل يمكن القول بوجود العناصر النظريّة السياقيّة في فكر العلماء السابقين،وأنّ أنواع السياق كما قسّمها اللسانيّون كانت مطبّقة في الدراسات التفسيريّة القديمة ، وهل يمكن لمناهج تحليل الخطاب أن تحلّ بديلا للتفسير التقليدي التحليلي . وهل يُمكن أن تُسهمَ

المناهج اللّسانيّة الحديثة في فهم نصوص القرآن الكريم فهما متكاملاً يؤدّي إلى وضع النّصّ القرآني في إطاره العامّ الذي نتج به أوّل مرّة.

الدراسات السابقة :

1) أثر السياق القرآني في التفسير ، دراسة نظريّة تطبيقيّة على سورتي الفاتحة والبقرة،للباحث : محمد بن عبد الله الربيعة ، وهي رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.
2) السياق القرآني وأثره في التفسير ، دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن كثير،للباحث عبد الرحمن عبد الله سرور المطيري ، وهي رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى .
3) السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة ، دراسة نظرية تطبيقية،للباحث : سعيد بن محمد الشهراني ، وهي رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة أم القرى .

4) دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير ، دراسة نظريّة تطبيقيّة من خلال تفسير ابن جرير ، للباحث عبد الحكيم بن عبد الله القاسم ، وهي رسالة ماجستير مقدمة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .
5) دلالة السياق القرآني في تفسير أضواء البيان للعلامة الشنقيطي، دراسة موضوعية تحليلية ، للباحث : أحمد لافي فلاح المطيري ، وهي رسالة ماجستير مقدمة للجامعة الأردنية .
6) دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام ، للباحث : فهد بن شتوي الشتوي ، وهي رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى .
7) نظرية السياق القرآني ، دراسة تأصيليّة دلالية نقديّة ،للباحث : مثنى عبد الفتاح محمود , وهي رسالة دكتوراه مقدّمة لجامعة اليرموك بالأردن .

منهج البحث :

وقد قامت هذه الدراسة على المنهج الوصفي لاستخراج مادة الدراسة . وتبعًا لطبيعة الموضوع فإن البحث وصفي تحليلي .وأخيرا أشكر أساتذتي الفضلاءعلى تأطيري وتنقيح هذه الرسالة وتصويب أخطائها . وأخص منهم مشرف الرسالة .

وبعد فهذا جهدأقدمه للمكتبة العربية،وكلي أمل أن يحظى بالقبول،فإن وفقت فيه فبتوفيقه سبحانه وتعالى ومنته،وإن قصرت فسمة البشر النقص ،وإن امرؤ سعى للكمالفماهوببالغه،ولذاأسألاللهالتوفيقوالسداد،فهو ولي ذلكومولاه.

التمـــهيـــد

تمهيد : ترجمة الشيخ الشنقيطي.

المبحث الأول : نسبه ، ولادته، نشأته.

اسمه ونسبته:هومحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن نوح بن محمد بن سيدي أحمد بن المختار، من أولاد أولاد الطالب أوبك، وهذا من أولاد أولاد كرير بن الموافي بن يعقوب بن جاكن الأبر، جدّ القبيلة الكبيرة المشهورة المعروفة بالجكنيين، ويعرفون بتجكانت ويرجع نسب هذه القبيلة إلى حمير وكل من اسمهواسم أبيه علم مركب من اسمين، وذكر محمد فيه للتبرك.

ولادته:ولد رحمه الله عام خمس وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة الموافق لـ 1904،عند ماء يسمى (تنبه) من أعمال مديرية كيفا، من القطر المسمى (شنقيط)وهو دولة موريتانيا الإسلامية (الآن) علما بأن كلمة شنقيط كانت ولا تزال اسما لقرية من أعمال مديرية " أطار" في أقصى موريتانيا في الشمال الغربي .

نشأته:ونشأ رحمه الله يتيما قال(رحمه الله) : توفي والدي وأنا صغير أقرأ في جزء (عمّ) وترك لي ثروة من الحيوان والمال، وكانت سكناي في بيت أخوالي، وأمي ابنة عم أبي، وحفظت القرآن على خالي عبد الله بن محمد المختار بن إبراهيم بن أحمد نوح جد الأب المتقدم.[2]

طلبه للعلم ومشائخه فيه.

قال الشيخ عطيّة:حفظ القرآن في بيت أخواله على خاله عبد الله كما تقدم وعمره عشر سنوات .قال رحمه الله : ثم تعلّمت رسم المصحف العثماني (المصحف الأم) عن ابن خالي سيدي محمد بن أحمد بن محمد المختار، وقرأت عليه التجويد في مقرأ نافع برواية ورش من طريق أبي يعقوب الأزرق ، وقالون من رواية أبي نشيط، وأخذت عنه سندا بذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم وذلك وعمري ست عشرة سنة[3] وقد حفظ أثناء تلك الدراسة بعض المختصرات في الفقه على مذهب الإمام مالك؛ كرجز ابن عاشر، كما درس الأدب مع شيء من التوسع على زوجة خاله،وأخذ عنها إضافة إلى الأدب مبادئ النحو كالآجرومية، وبعض التمرينات كما أخذ عنها بتوسع أنساب العرب، وأيامهم، والسيرة النبوية ، ونظم الغزوات لأحمد البدوي الشنقيطي، وهو يربو على خمسمائة بيت مع شرحه لابن أخت المؤلف نفسه

2د. عبدالرحمنبن عبدالعزيز السديس ،رسالة ماجستير ، منهجالشيخالشنقيطيفيتفسير آيات الاحكاممن أضواء البيان، 1410 هـ، ص 13

3المرجع نفسه ، ص 14

وهو نظم طويل يعد بالآلاف إلى شرحه لابن أخت المؤلف (القدر المتعلق بالعدنانيين)[4]

ويحدّثنا الشيخ عن بداية طلبه للعلم فيقول : "لما حفظت القرآن وأخذت الرسم العثماني وتفوقت فيه على الأقران، عنيت بي والدتي وأخوالي أشد عناية، وعزموا على توجيهي للدراسة في بقية الفنون فجهزتني والدتي بجملين ؛ أحدهما عليه مركبي وكتبي والآخر عليه نفقتي وزادي، وصحبني خادم ومعه عدّة بقرات. وقد هيّأت لي مركبي ،وهكذا سلكت سبيل الطلب والتحصيل [5].ثم انطلق رحمه الله في النهل من علماء بلده؛ فأخذ الفقه المالكي على يد الشيخ محمد بن صالح(قسم العبادات)، ودرس عليه قسما من ألفية بن مالك، وأخذ علوما أخرى على يد مشايخ منهم :

الشيخ أحمد الفرم بن محمد المختار .
الشيخ أحمد بن عمر .
الفقيه الكبير محمد النعمة بن زيدان .
والفقيه الكبير أحمد بن مود.
العلامة المتبحر في الفنون أحمد فال بن أده.
وغيرهم من المشايخ الجكنيين .

وعن جملة العلوم التي حصّلها الشنقيطي على هؤلاء المشايخ يسوق تلميذه الشيخ عطيّة على لسانه مانصه قال رحمه الله: وقد أخذنا عن هؤلاء المشايخ كل الفنون كالفقه المالكي، وهو المذهب السائد في البلاد والنحو والصرف والأصول والبلاغة وبعض التفسير والحديث،وأمّا المعقول من العلوم كالمنطق وآداب البحث والمناظرة ،فقد صرّح بأنّه حصّله عن طريق النظر الخاص ،والمطالعة الذاتية ، وإلى هذا يشير بقوله : " وأمّا المنطق وآداب البحث والمناظرة فقد حصلناه بالمطالعة" [6]

كما يُرجَّح أن يكون الشنقيطي قد سلك ذات السبيل في تحصيل علم التفسير، وهو ما يذهب إليه تلميذه الدكتور محمد ولد سيدي ولد حبيب الشنقيطي معللا ذلك بقوله :"والذي يظهر لي والله اعلم أن علم التفسير الذي فاق فيه الأولين والآخرين، إنما قرأه على نفسه؛وذلك لأمرين: الأول أنّ البلاد هناك ما كانت خصبة لقراءة التفسير،ولا كانت المشايخ على استعداد لإقرائه للناس ،على تقدير معرفتهم به والثاني أني سمعته يقول:" عكفت على كتاب الله في البلاد أتتبعه آية آية، كل آية بانفرادها" فهذا دليل عندي على أنه درس التفسير على نفسه" .[7]

و أخيراً يعقّب الشيخ عطيّة على جملة تلك العلوم التي حصّلها شيخه الشنقيطي سواء على مشايخه السالف ذكرهم، أو بمطالعته الذاتية، فيقول ما نصه :

---

4 أحمد المطيري ،دلالة السياق القرآني في تفسير الشنقيطي ص (33)
5 أحمد سيد حسانين إسماعيل الشيمي ،رسالة ماجستير : الشنقيطي ومنهجه في التفسير ، الناشر : جامعة القاهرة – كلية دار العلوم – قسم الشريعة السنة : 1422 هـ / 2001 م، ص (172)
6عطية سالم ،من مقدمة أضواء البيان ،ج1، ص 25
7محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي: شرح مراقي السعود ، ط. المجمع:; المحقق: علي بنمحمد العمران، ج1 ،ص19

علما بأن الفن الذي درسه على المشايخ أومطالعة من الكتب، فانه لم يقتصر في تحصيله على دراسته بل كان يديم فيه النظر، ويواصل التحصيل، حتى غدا في كل فن منه كأنه متخصص فيه، بل وله في كل منه اجتهادات، ومباحث مبتكرة [8]

مؤلفاته.

إنّ مؤلفات الشيخ الشنقيطي دليل على سعة علمه، وتبحره فيه، وهي خير شاهد على تفننه في علوم متعددة ؛في التفسير والفقه والنوازل والحديث وعلله فمن مؤلفات الشيخ :

1 - نظم في أنساب العرب سمّاه (خالص الجمان في ذكر أنساب بني عدنان) وقد ألّفه قبل البلوغ، ثم دفنه بعد ذلك معللا هذا الصنيع بأنّه كتبه على نيّة التفوق على الأقران وقد قال فيه:

سمّيتــه بخالــص الجمـان في ذكــر أنســاب بني عدنــان

2- رجز في فروع مذهب مالك رحمه الله ، يختص بالعقود من البيوع والرهون .
3- ألفية في المنطق .
4- نظم في الفرائض .
5- شرح على سلم الأخضري في المنطق .
6- الرحلة إلى بيت الله الحرام وقد ضمّنها مباحث أصولية وملح .
7 - منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز.
8- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وقد كتبه الشيخ في خمس عشرة ليلة
9- مذكرة في أصول الفقه على روضة الناظر، وقد جمع في شرحها أصول الحنابلة والمالكية والشافعية ،وقد أملاها على طلابه في كلية الشريعة في الرياض.
10 - آداب البحث والمناظرة .
11- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن .
12 - بيان الناسخ والمنسوخ في آي الذكر الحكيم (مطبوع في آخر الأضواء) وهي رسالة صغيرة شرح فيها الشيخ الأبيات التي ذكرها السيوطي في الإتقان في الآيات المنسوخة .
13- شرح على مراقي السعود .وقد أملاه الشيخ على أحد طلابه وهو الشيخ أحمد بن محمد الأمين الشنقيطي، وقد طبع بعنوا ن(نثر الورود على مراقي السعود) وللشيخ محاضرات وفتاوى نفع الله بها[9]

سمته وأخلاقه.

كان للشنقيطي من الأخلاق الرفيعة،والسجايا الكريمة، مالا يخفى على كل من لازمه وخالطه بصفة خاصة فضلا عمن أخدعنه، وتلقى عليه بصفة عامة، كما أن هذه الأخلاق كانت من الكثرة والشمول،بحيث لا يسعف في ذكرها سوى الإيجاز والإجمال،مراعاة هنا لما يقتضيه المقام وتستلزمه الحال.

8عطية سالم ، من مقدمة أضواء البيان ،ج1،ص 25
9 أحمد المطيري ،رسالة ماجستير ،دلالة السياق القرآني في تفسير الشنقيطي ،ص 36

وهذا ما يشير إليه تلميذه الشيخ عطيّة بقوله :" أما الناحية الشخصية من حيث تقويمه الشخصي لسلوكه وأخلاقه وآدابه وما إلى ذلك فهذا ما يستحق أن يفرد بحديث ،وهذا لا يعلم إلا لمن خالطه ، يعرف ذلك منه بل من دَاخله ولازمه، وإني لا أستطيع الآن تصويره ولا يسعني في هذا الوقت تفصيله ، ولكن قد تكفي الإشارة إذا لم تسعف العبارة" .[10]

ومن أبرز ملامح شخصيته ـ رحمه الله ـ ذلك الوقار والتؤدة، وحسن السمت والاقتصاد في أقواله وأفعاله، وتجافيه الشديد عن الوقوع في أعراض الناس ، وعدم السماح بذلك في مجلسه مهما كان المتكلم، والنهي الشديد عن اللغو واللغط في مجالسه ـ رحمه الله" ـ[11]

وفاته ومراثيه.

بعد عمر حافل بالعطاء، وحياة زاخرة بالإيثار، يلقي الشنقيطي عصا التسيار؛فيسلم روحه، ويقضي نحبه، عن عمر يناهز ثمانية وستين عاما قضى منها ما يقرب من اثنين وأربعين عاما في بلاد شنقيط ،ثم أتمها بستة وعشرين عاما في بلاد الحجاز حيث وفاته بها"[12]

وكان الشيخ عطيّة سالم من أخص تلاميذه ممن نعاه ورثاه، بادئا ذلك بخطاب شيخه قائلا:إلى رحمة الله وحسن جواره، فقيد العلم يا علم الرجال، نعاك العلم في حلق السؤال،نعم فقيد الدرس يا علم الرجال ، نعاك الدرس في فصل المقال ،انتقل إلى رحمة الله وحسن جواره صاحب الفضيلة وعلم الأعلام، الشيخ الجليل الهمام الإمام ، زكي النفس رفيع المقام،كريم السجايا ذو الخلق الرزين، عف المقال، حميد الخصال، التقي الأمين، شيخنا محمد الأمين الشنقيطي. وإني كأحد أبنائه ومن جملة تلاميذه، أقف اليوم معزيا متعزيا ومترجما مترحما، وقد عظم المصاب وعز فيه العزاء ،فأقول ما قد قلته على البديهة عندما سألني سائل قائلا من هذا الذي نعزيه في الشيخ ؟ فأجبته بهذه الأبيات :

أقـــول للسائل لمـــا ســـأل مـــــن ذا نعـــزي فيما نزل
كـــــل من لاقيت فعـــزّه وابـــــدأ بنفســـك في الأول
مـوت العالـــم رزء العالـم في مـــــــــوته يأتي الخـلل
لـــــــو نـزل المرء بقمّـة فـــوق الجـبال لهـــدّ الجبـــل
خير الـــــتعازي في أنّنـــا نردّ إلـــى الله عـــزوجـل"[13]

10احمد سيد حسانين ،الشنقيطي ومنهجه في التفسير، ص 110
11عبد الرحمن السديس، منهج الشنقيطي في تفسير آيات الأحكام ،ص 92
12أحمد سيد حسانين ،الشنقيطي ومنهجه في التفسير ،ص 143
13أحمد سيد حسانين ،الشنقيطي ومنهجه في التفسير،ص 148

المبحث الثاني : في التعريف بأضواء البيان وطريقة مؤلفه فيه.

(أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)،هو أدل أعمال الشنقيطي الموسوعية، بل يعد أضخمها وأكملها ، وأعمّها وأشملها، وفيما يلي نعرف بهذا التفسير بشيء من التفصيل ،الذي يناسب موقعه من هذا البحث، وذلك من خلال تناولنا لكل من :

السبب الباعث على تأليف أضواء البيان .

جاء تفسير (أضواء البيان)إثر سؤال وجّهه الشيخ عطيّة إلى شيخه الشنقيطي أثناء قراءته عليه تفسير سورة البقرة، الذي أتمّه على مدار عامين كاملين، في حلقة الدرس الخاصة التي كانت تعقد يوميا مابين المغرب والعشاءببيت الشيخ في الرياض.وفي هذا يحدثنا الشيخ عطية قائلا : كانت تلك الدراسة على الشيخ رحمه الله هي رأس مالي في جل تحصيلي،وعليها أساس دراستي الحقيقية سواء في المقررات أو غيرها؛ لأن في سورة البقرة جميع أبواب الفقه وعلى مباحثها تنطبق جلّ قواعد الأصول ولا يبعد من يقول: إن ما بعدها من السور يعتبر تفسيرا لها، وأن من أتقن تفسيرها سهل عليه تفسير مابعدها، وقد كانت دراستها سببا في تأليف كتابي:(دفع إيهام الاضطراب) و(أضواء البيان) وكلّ منهما إثر سؤال وجواب. ومع أنّ الشيخ عطيّة قد ذكر نصّ سؤاله الذي ألّف شيخه على إثره كتابه الأول، إلا أنه لم يذكر نص سؤاله الثاني الذي كان سببا في تأليف شيخه للتفسير"[14]

طريقة عمله في كتابه.

فسّر الشنقيطي ثماني وخمسين سورة بدأت بـ(الفاتحة) وانتهت بـ(المجادلة) حوتها سبعة أجزاء من (أضواء البيان) واستغرقت أربعة آلاف وتسعمائة وخمسا وأربعين صفحة (4945 ص) وذلك باستثناء الجزء العاشر الأخير الذي يعنى بعلوم القرآن ويشتمل على كتابي:(منع جوازالمجاز) و(دفع إيهام الاضطراب)، حيث إنهما ليسا من صلب التفسير،وإن كانا يتعلقان بموضوعه"[15]

وقد استغرق هذا الجهد العظيم حوالي عشرين سنة، وصدر كل ذلك في سبع مجلدات .

صدر المجلد الأول سنة 1386هـ

صدر المجلد الثاني سنة 1386هـ

صدر المجلد الثالث سنة1383هـ

صدر المجلد الرابع سنة1384هـ

صدر المجلد الخامس سنة1390هـ

صدر المجلد السادس سنة 1392هـ

صدر المجلد السابع سنة 1396هـ بعد وفاة المؤلف رحمه الله[16]

أتمّ الشيخ عطية محمد سالم تفسير (أضواء البيان) بعد رحيل شيخه الشنقيطي وذلك استجابة لتكليف الشيخ عبد العزيز بن باز _رحمه الله_ والذي حثّه على وجوب إتمام

14المرجع السابق ،ص 263

15المرجع نفسه ، ص 267

16د ،عدنان آل شلش ، العلامة الشنقيطي مفسرا، ص 75

هذا التفسير من حيث انتهى شيخه ،وبناء على هذا التكليف، قام الشيخ عطية بتفسير ست وخمسين سورة، بدأت بالحشر وانتهت بالناس، في الجزأين الثامن والتاسع من الأضواء،أوالأولوالثاني م ن التتمة، والذين استغرقاألفا وأربعمائةواثن تين وتسعين صفحة(1492ص)، صدر المجلد الثامن وهو الأول من التتمة سنة 1397هـ وصدر المجلد التاسع وهو الثاني من التتمة بعد ذلك، وفي بعض الطبعات ضمّ مع المجلد التاسع بعض مؤلفاتالشيخ_ رحمه الله_ وهي رسالة منع (جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز)،ورسالة(دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب) وقد طبع بعد ذلك التفسير كاملا في طبعات عديدة منها :

1 نسخة مطبوعة عام 1403هـ في المطابع الأهلية للأوفست بالرياض.

2 - نسخة مطبوعة في مطبعة عالم الكتب - لبنان – بيروت .

3-نسخة عام 1407هـ في مكتبة ابن تيمية القاهرة – مصر.

4 - نسخة مطبوعة في مطبعة دار الأصفهان – جدة"[17]

المنهج العام للمفسر.

لقد ذكر الشنقيطي في مقدمة تفسيره، الخطوات والمنهج الذي سلكه في هذا التفسير،فبيّن أنّه يلتزم بهذه القواعد الأساسية في تفسيره :

1- تفسير القرآن بالقرآن .

2- الاعتماد على السنّة في فصل الخلاف والنزاع .

3- الاعتماد على القراءات السبعة دون الشاذة .

4 - بيان الأحكام الفقهية المتعلقة بالآيات المفسرة .

5- التعريج على بعض الفوائد الأصولية واللغوية" [18]

خصائص تفسير الأضواء ومزاياه.

إنّ معرفة خصائص هذا التفسير ومزاياه، تبيّن لنا حقيقته وقيمته، ومكانته بين التفاسير.ومن هذا المنطلق سأحاول هنا إبراز أهم خصائص تفسير الأضواء ومزاياه، "حيث يعتبر هذا المؤلف الفخم أدلّ أعماله الكتابية على موسوعيته العلمية، لايكاد يدع شاردة من الأحكام إلا جمع لها الأدلة من مظان الوحي، في تنسيق وتنظيم.

يعطي أدق صورة عن أثر المنطق في منهجه العلمي، وقد أجمع أهل العلم على تقدير الكتاب والإقرار بعظم فائدته"[19]

1- غلبه طابع التفسير بالمأثور، مع اشتماله على التفسير بالرأي،وعلى مسالك مبتكرة لخدمة التفسير ،مثل دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب، وآداب البحث والمناظرة والمنطق،وأصول الفقه، وكل ذلك في صورة بديعة مترابطة .

2- انفراده بهذا اللون من التفسير(تفسير القرآن بالقرآن) كمّا وكيفا .

3- خلو التفسير تماما من الإسرائيليات .

4 - موضوعيّة المفسّر - رحمه الله - وجدّيته في إعادة الأمة إلى كتاب ربها - سجانه وتعالى - لذا كان اهتمامه على النافع المفيد، متجنبا كل تعقيد .

17المرجع نفسه ، ص ، 76

18د عدنان بن محمد آل شليش ، العلامة الشنقيطي مفسرا ، ص 76 _ 77

19 محمد المجذوب ،علماء ومفكرون عرفتهم، الناشر: دار الشواف; الطبعة: 4، ج1 ، ص 187

5- إبداعية المفسّر تدل على أنه لم يكن فقط جامعا ناقلا، أو أنه أضاف نفسه إلى قائمة المفسرين لا أكثر ؛ بل قد نفع وأجاد وجاء بالجديد المفيد .
6- التزامه بالمنهج العام الذي قصد إليه من خلال ما ذكر في المقدمة.
هذه أهم خصائص هذا التفسير، ومزاياه تبيّن بوضوح قيمة هذا التفسير، ومكانته العلمية،ومرتبته بين كتب التفسير سواء المعاصرة منها أو المتقدمة، كما أنّها تحفز طالب العلم على الاطلاع عليه والإفادة منه."[20]

20العلامة الشنقيطي مفسرا ، 393 _ 396 بتصرف

الفصـــــل الأوّل

السياق و الخطاب القرآني.

المبحـــث الأوّل: **السياق بين الدراسات العربية القديمة والدراسات اللغوية الحديثة.**

المبحث الثَّانـــي: **مفهوم الخطاب القرآني.**

المبـــحث الأوّل

السياق بين الدراسات اللغوية القديمة و الدراسات اللغوية الحديثة.

المبحث الأول: السياق بين الدراسات ال لغوية القديمة والدراسات اللغوية الحديثة.

تمهيد :

تأخذ المفاهيم جانبا مهما في حياة الأمّة الفكريّة والعلميّة على حدّ سواء، فبتحديد المفاهيم يتضّح المنهج العلمي الذي تسير عليه أيّ جماعة أرادت العلم طريقا لها، ولا توجد أمّة في الوجود وعت هذا الأمر وعيا يؤهلها لقيادة البشريّة قيادة علميّة كما كان للأمّة الإسلامية، فهي الأمّة الرائدة في تبصير الناس لمعاني المفاهيم ، وما تقلّه الألفاظ من معان ومضامين، وهذا نابع من الاستقلاليّة التي اتصفت بها أمّة الإسلام ، وذلك من خلال الإيمان بأنّ المرء محاسب على كل صغيرة وكبيرة ، وأنّ كل لفظة ينطق بها فلا بدّ أن يعي أبعادها وأن يدرك مضامينها"[21]

ولذا كان من المهمّ قبل البدء بأيّ عمل علمي ؛ تناول المفاهيم التي ستطرح وطرحها على طاولة البحث ولمّا كانت هذه الدراسة تبحث في السياق وأثره في توجيه الخطاب القرآني لزم بحث معنى السياق من الجانب اللغويّ ومن ثَمّ إتباعه بالجانب الاصطلاحي ويلزم على هذا أن يكون المبحث في مطالب هي :

المطلب الأول : مفهوم السياق لغة .

المطلب الثاني : مفهوم السياق اصطلاحا .

المطلب الثالث :السياق في الدراسات العربيّة القديمة.

المطلب الرابع :السياق في الدراسات اللغويّة الحديثة .

المطلب الأول: السياق لغة .

جاء في لسان العرب في مادة سَوَق " يقول السوق معروف . ساق الإبل وغيرها يسوقها سَوْقا وسِياقا وهو سائق وسَوّاق ...وقد انساقت وتَساوَقت الإبل تساوُقا تتابعت، وساق إليها الصداق والمهر سِياقا وأساقه، وإن كان دراهم أودنانير؛ لأنّ أصل الصداق عند العرب الإبلوهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما،وساق فلان من امرأته أي أعطاها مهرها والسياق المهر، قيل للمهر سوق؛ لأنّ العرب كانوا إذا تزوّجوا ساقوا الإبل والغنم مَهرا؛ لأنّها كانت الغالب على أموالها وضع السَوْق موضع المهر وإن لم يكن إبلا وغنما، وأساقه إبلا:أعطاه إياها يسوقها، وساق بنفسه سِياقا نُزع بها عند الموت تقول رأيت فلان يسوق سووقا أي ينزع نزعا عند الموت .

21المثني عبد الفتاح محمود محمود ، الرسالة: السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي ، جامعة اليرموك ،2005 ، ص 10

يقال فلان في السِياق أي في النَزع، وللسياق نَزع الروح وأصله سِواق فقلبت الواو ياء بكسرة السين وهما مصدران من سَاقَ يسوق، وفي الحديث : دخل سعيد على عثمان وهو في السَوْق كأنّ روحه تساق لتخرج من بدنه ويقال له السِّياق أيضا "[22].
هكذا يتبيّن من خلال المادة اللغويّة التي قدمّها لنا ابن منظور، أنّ السياق يشير إلى ثلاث دلالات هي :
1 ـ الحدث وهو سوق الإبل ،وهو المعنى الحسي الأصلي للكلمة، ثم انتقل عن طريق المجاز إلى الدلالة على المسوق ؛وهو المهر إبلا أو غيرها .
2 ـ الدلالة على نزع الروح، لحدوث ذلك حال الموت.
3ـ الدلالة على الظرف أو الحال التي يحدث فيها الحدث لعلاقة زمانية ، فقد أطلق على حال الموت (سياق الموت)"[23]

المطلب الثاني : السياق اصطلاحا.

السِياق من الركائز التي عوّل عليها العلماء العرب القدامى _رحمهم الله_ في تفسير الظواهر اللغويّة ،لأنّهم وجدوا أنّ ظاهر اللفظ وما يحمله من معان بعيد عن السياق، والمقام لايعين على الكشف عن معناه، وهذا يدلّ على معرفتهم لأثر السياق في الكشف عن المعنى. وقد تضافرت جهودهم على إظهار مصطلح السياق، والأمثلة كثيرة على أصالة هذا المبدأ الفني في التراث العربي (التفسير وعلوم القرآن، والأصول، وعلوم الحديث، والبلاغة والنحو، واللغة ،وغيرها).فقد تحدّث علماء القرآن على أسباب النزول وأفردوه بالتأليف،وتحدث علماء الحديث على أسباب الورود، وتحدث الأدباء والنقاد على أسباب وظروف الإنشاد .. وهكذا .
وتجدر الإشارة إلى أنّ بعضهم صرّح بالسياق أحيانا ، ومنهم من مارسوه من دون تصريح، إذ كانت ملامح فكرة السياق عندهم ممّا فُطِن إليها في وقت مبكّر، فمصطلح السياق لم يكن جديدا بل وجد عند علمائنا من مفسّرين وأصوليين ولغويين وبلاغيّين وغيرهم".[24]
يقول د، عبد الرحمن بودرع :" السِّياق إطار عام تنتظم فيه عناصر النّص ووحداته اللغوية،ومقياس تتصل بوساطته الجمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغويّة وتداولية ترعى مجموع العناصر المعرفيّة التي يقدمّها النّص للقارئ".[25]
ويضبط السِّياق حركات الإحالة بين عناصر النّص، فلا يفهم معنى كلمة أوجملة إلا بوصلها بالتي قبلها أو بالتي بعدها داخل إطار السِّياق ،وكثيرا ما يرد الشّبه بين الجمل والعبارات مع بعض الفوارق التي تميّز بينها، ولا نستطيع تفسير تلك الفوارق

22ابن منظور ، لسان العرب ، ط 1 بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، 1408 هـ 1988 ،ج 10 ، ص 166 - 167
23فريد عوض حيدر، ،سياق الحال في الدرس الدلالي "تحليل وتطبيق" ، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة 1998، ص 08
24حيدر جبار عيدان ،السياق القرآني وأثره في الكشف على المعنى، ص 7.
25عبد الرحمن بودرع ، منهج السياق في فهم النص ، ص 17

إلا بالرجوع إلى السياق اللغويّ ، وملاحظة الفوارق الدقيقة التي طرأت بين الجمل. فكلّ مساق للألفاظ يجرّ ضربا من المعنى بجزئياته وتفاصيله.
وتشير المعاجم المتخصّصة في علوم اللغة واللسانيّات،إلى مفهوم محدّد للسِّياق كما نجد ذلك في قاموس السيمائيات (لغر يماس وكور تيس) إذ عرّفاه:"بأنّه مجموع النّصوص التي تسبق أو تواكب وحدة تركيبيّة معيّنة،وتتعلّق بها الدلالة،حيث يمكن أن يكون السِّياق صريحا أو لسانيا، ويمكن أن يكون ضمنيّا، وفي هذه الحالة يتميّز بأنّه سياق خارجيّ لسانيّ أومقامي"
أمّا قاموس اللسانيّات (لجون دي بوا) فيحدّد معنى السِّياق :" بأنّه المحيط أي الوحدات التي تَسبق أو تلحق وحدة محدّدة، ويسمى بالسِّياق الشفوي،
أوهومجموعالشروط الاجتماعيّة، التي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات القائمة بين السلوك الاجتماعي والسلو ك اللساني. وغالبا ما تُحدّد هذه العلاقات بالسياق الاجتماعي لاستعمال اللغة، ونحدّده أيضا بقولنا: (المقام) وهو مجموع المعطيات المشتركة بين المتكلّم والمستمع في مقام ثقافي ونفسي لتجارب كل منهما"[26].
وعرّفه محمود السّعران بقوله:"أنّ سياق الحال أو الماجرى،هو جملة العناصر المكوّنة للموقف الكلامي، أو للحال الكلاميّة. "أما عبده الرّاجحي فيقول: "أنه مجموع الظروف التي تحيط بالكلام"[27]

المطلب الثالث:السياق في الدراسات اللغوية القديمة.

إذا كانت نظريّة السياق قد نشأت في الغرب حديثا وتطورت في ظل الدراسات اللغويّة الحديثة، فإنّ علماء العربيّة المسلمين سبقوا ذلك بمئات السنين في بيان أهميّة السياق بعناصره المقاليّة والحاليّة، فقد اهتدوا في وقت مبكّر من تاريخ العلوم اللغويّة والبلاغيّة إلى ما يحُف بظاهرة الكلام من الملابسات كالسامع، والمقام، وظروف المقال، وكلّ ما يقوم بين هذه العناصر من روابط وسنوجز الحديث عن أهمّ الدراسات العربيّة القديمة التي اهتمّت بالسِّياق ونقسّمها كالآتي:

السِّياق عند النحويّين.

النّحو في الدرس اللغويّ الحديث أعطى مفهوما أوسع من المفهوم الضيّق ،الذي كان يعرفه من قبل ؛الذي كان يقتصر على أنّه العلم الذي يُبحث فيه عن معرفة أحوال أواخر الكلمات، من حيث الضبط العربي إلى مفهوم أوسع "قانون تأليف الكلام وليست دراسة أحواله " وبهذا نجد أنّ الدراسات النحويّة هي دراسات سياقيّة في جميع جوانبها، فإذا كان السِّياق اللغويّ نظم الكلمة في الجملة ، وموقعها من ذلك النظم ، وعند الدكتور (حلمي خليل) " السياق اللغوي يتمثّل في الأصوات والكلمات والجمل كما تتابع في حدث كلامي معيّن ،أو نصّ لغوي " وعلى ذلك فقد ارتبط النحو

26د، أسامة عبد العزيز جاب الله ،السياق في الدراسات البلاغية والأصولية دراسة تحليلية في ضوء نظرية السياق، ص 6 -7 .
27د . عبد المنعم خليل :نظرية السياق بين القدماء والمحدثين ، مصر ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر و التوزيع, 2007، ص 82.

بمفهومه العام بالسِّياق اللغوي، وظهر أثر السِّياق جليّا في الدراسات النحويّة القديمة عن طريق :

ـدراسة النحويّين للجملة ووضعهم القواعد والأصول التي تحكم الترتيب بين أجزائها،فحينما قسّم النحويون الجملة إلى اسميّة وفعليّة وظرفيّة، إنّما كان ذلك من منطلق النظر إلى التركيب السِّياقي، لا إلى المفردات التي هي وحدات سياقيّة ، وليست سياقا لغويّا متكاملا ، إذ لا تكون كذلك إلا إذا ركّبت معا بحسب ما تقضي به القوانين النحويّة والأصول اللغويّة ، ومن ثَمّ فإنّ العلاقة بين السِّياق بمعناه اللغويّ، والدراسة النحويّة من هذا الجانب؛ إنّما هي علاقة الجزء بالكلّ ، إنّ السِّياق ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب ، بل والقطعة كلّها والكتاب أكمله، كما ينبغي أن يشمل بوجه من الوجوه كلّ ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات.

ـأمّا فيما يختصّ بالترتيببين الوحداتالسِّياقيّة،التي هي الكلمات على مستوى العبارة،أوالجملة،فإنّهم قد وضعوا القواعد والأصول التي تحكم العلاقة بين هذه الوحدات،ومن بين هذه الأصول أنّ الفاعل لا يتقدّم على الفعل،والصلة لا تتقدّم على الموصول، والصّفة لا تتقدّم على الموصوف، والمضاف إليه لا يتقدّم على المضاف، والمجرور لا يتقدّم على حرف الجر."[28]

وأمّا عن ظاهرة الإعراب التي أولوها عناية خاصّة ، وما تقتضيه من تقدير وحذف،فقد كانوا يوجّهون الإعراب بحسب ما يفرضه السِّياق اللغويّ، فالسِّياق اللغويّ لأسلوب الشرط مثلا يقتضي ثلاثة عناصر:هي أداة الشرط ، فعل الشرط وجواب الشرط،وقد وضعوا أحكاما خاصّة بهذا الأسلوب من بينها العلاقة بين الشّرط والجواب هي علاقة اللازم بالملزوم أو السبب بالمُسَبب، ومن الإضمار المناسب للسِّياق ما جاء به سيبويه تحت عنوان " هذا باب ما يُضمَر فيه الفعل المستعمل إظهاره بعد حرف" :" حيث قدّر المحذوف بحسب السِّياق اللغوي ، وذلك قولك :النّاس مجزيّون بأعمالهم إن خيرا فخير،وإن شرّا فشرّ، والمرء مقتول بما قَتَل به إن خنجرا فخنجر، وإن شئت أظهرت الفعل فتقول إن كان خنجرا فخنجر، وقد أورد الزجّاج في كتابه(إعراب القرآن) المنسوب إليه بابا بعنوان هذا "باب ما ورد في التنزيل من إضمار الجمل "[29]

يتضّح ممّا سبق أنّ السِّياقاللغويّ كان أساس الدراسة النحويّة ، في مسألة التقدير والحذف، لـقوله تعالى :﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ﴾ [البقرة: 31]أي فضرب فانفجرت ، كلّ هذه الدراسات أساسها السِّياق اللغويّ، حيث اتخّذوا السِّياق وسيلة للوصول إلى المحذوف وتقدير ه، فلا يخرج المقَدَّر عندهم عن المفهوم من السِّياق، بل كثيرا ما قدّروا المحذوف من نفس

28د . عبد المنعم خليل ، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين ، مصر ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر والتوزيع, 2007 ، ص 111 - 113 .

29د . عبد المنعم خليل ، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين ، مصر ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر والتوزيع, 2007 ، ص 114 - 115.

مادّة المذكور في السّياق، ومن ذلك قوله تعالى ﴿أيّاماً مَعْدُوداتٍ ﴾[البقرة : 183]وتقديره :صوموا أيّاما معدودات ، لأنّ قوله تعالى يدلّ عليه ،ولا يُنصَب الصيام لأنّ الصيام مصدر، فلا يُفصَل بين أيّام بالكاف المنصوبة بـ(كتب)، ولم يقتصروا (النحويّون) على دراسة السّياق اللغوي بصدد هذه الظاهرة على مستوى الجملة، أو العبارة، وإنّما تَعَدَّوا ذلك بكثير، حين اعتبروا القرآن الكريم سياقا كله،فاستدلوا على تقدير كلمة محذوفة بآية أو كلمة أخرى، قد تكون في آية أو سورة أخرى،بعيدا عن الأولى تماما، وهذا ما نادى به بعض المحدثين حيث يقول :"إنّ السياق على هذا التفسير ينبغي أن يشمَل لا الكلمات والجمل .... بل والقطعة كلّها والكتاب كلّه"[30].

السياق عند البلاغيين.

أمّا عن ملامح فكرة السّياق عند البلاغيّين، فقدّموا لدراسة المعنى الدلالي فكرتين تُعدَّان اليوم من أفضل ما وصل إليه علم اللغة الحديث، في بحثه عن المعنى الاجتماعي الدلالي، وأوّل هاتين الفكرتين فكرة (المقال) ،والثانية فكرة (المقام) ،وكان علماء البلاغة قد ربطوا بين هاتين الفكرتين بعبارتين شهيرتين، أصبحتا شعارا يهتف به كل ناظر في المعنى،وهي عبارة (لكلّ مقام مقال) و (لكلّ كلمة مع صاحبتها مقام).

إنّ فكرة المقام عند البلاغيين ،تختلف في كثير من جوانبها عمّا قصده أصحاب النظريّة السياقيّة في اصطلاحهم.إنّ المقام عند هؤلاء هو كلّ ما يُعين على فهم الحدث اللغوي،ويساعد على إبراز المعنى سواء أكان متصّلا بالسامع، أو المتكلّم، أو علاقة كلّ منهما بالآخر، أو الأشخاص الآخرين المشتركين في الكلام، أوحتّى غير المشتركين ممّن لهم علاقة من قريب أوبعيد بالحدث اللغويّ، أو الزمان، أو المكان الذي يتصلّ بالحدث اللغويّ، وغير ذلك ممّا يتمثل في الظروف الاجتماعيّة، والبيئة النفسيّة والثقافيّة للمتكلمين، أو المشتركين في الكلام،والمقام عند أصحاب هذه النظريّة ليس مجرّد مكان يُلقى فيه الكلام،وإنّما هو إطار اجتماعيّ ذو عناصر متكاملة، أخذ بعضها بحُجَز بعض، فهناك كذلك ما في الموقف من الأشياء والموضوعات المختلفة التي قد تفيد في فهم الكلام ، والوقوف على خواصّه، وهناك كذلك الكلام نفسه، وهذا الكلام في حقيقة الأمر ليس إلا عنصرا واحدا من عناصر المسرح اللغويّ بأكمله، ولا يتم فهمه إلّا في هذا الإطار العام بما فيه من شُخوص، وديكور، وعدد وآلات .....الخ يصحبه من حركات الجسم وإشاراته وإيماءاته، وعزل الكلام عن هذا الموقف يُحيله إلى شيء مُشوّه أوشيء جامد"[31].

وعليه فقد أخذ البلاغيّون حركات الشخوص وإيماءاتهم وإشارتهم، باعتبارها عنصرا من عناصر المقام كما فعل السّياقيّون، غير أنّ هؤلاء كانت هذه عندهم عنصرا من العناصر التي تساعد على وضوح الدلالة التامّة وإبرازها، بينما عند البلاغيّين كانت

30عبد المنعم خليل ، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين ، مصر ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر و التوزيع, 2007، ص 117 - 118.

31 المرجع السابق، ص 165

عنصرا من العناصر التي تساعد على توصيل الدلالة إلى السامع والإفصاح عنها"[32].

وقد انتبه (الجاحظ) ت 225 هـ إلى أهميّة السِّياق وعناصره ومقوّماته التي أوصلها إلى خمسة عناصر:"هي اللّفظ والإشارة والحركة التي تدل على العدد والخط والنَّصبة (الحال والصوت) وفي ذلك يقول:" وجميع أصناف الدّلالات على المعاني من لفظ وغيره خمسة أشياء لاتنقص ولاتزيد : أوّلها اللفظ، ثمّ الإشارة، ثمّ العقد، ثمّ الخطّ، ثمّ الحال، التي تسمى نصبة".

ويقول الجاحظ في موضع آخر، موضّحا أنّ الصّوت من عناصر السِّياق فيقول:" والصّوت آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا، إلاّ بظهور الصوت "، وبذلك يحيط الجاحظ علما بالسِّياق، ويسبق المحدَثِين في جعل السِّياق معتمِدا على اللّفظ والإشارة والصّوت والحال،وهو ما عُرف بالسِّياق اللغويّ والسياق غير اللغويّ"[33].

السِّياق عند المفسِّرين.

لقد عرف المفسِّرون منذ بداية التأليف في القرآن الكريم الفَرق بين ظاهر الألفاظ ومعانيها، فكان فهمهم لهذا الفرق تفريقا منهم بين المعنى المقالي؛ وهو مكوَّن من المعنى الوظيفي. يضاف إلى المعنى المعجميّ؛ وهو يشمل القرائن المقالية كلّما وجدت، والمعنى المقامي وهو مكوَّن من ظروف أداء المقال؛ وهي التي تشتمل على القرائن الحاليّة"[34].

اعتمد علماء علوم القرآن والمفسّرون في دراسة النّص القرآني وفهم دلالته على جانبي السِّياق:اللغويّ الكلّي أو ما يُسمّى " بسياق النّص " و " سياق الموقف". إذ نظروا إلى الآية القرآنيّة أو مجموعة الآيات على أنّها جزء من نصّ متكامل هو القرآن، ومعنى ذلك أنّهم لا يعتمدون على السِّياق اللغويّ الجزئي المتمثّل في الآية الواحدة أو مجموعة الآيات المعزولة عن سياقها الكليّ. واهتمّوا بعنصر آخر مكمِّل للسياق اللغويّ في النّص القرآني وهو القراءات القرآنيّة، كما أفردوا المؤلّفات لعلم الوقف والابتداء وكيفية الوصل والفصل وما يترتّب على ذلك من دلالات، وهى من عناصر السِّياق اللغوي. ويتمثّل سياق الموقف عندهم فيما عُرِفَ " بأسباب النُّزول "، فقد اعتنوا بمعرفة أسباب النُّزول لآيات النّص القرآني؛ لأنّها تعينهم على فهم معانيه"[35]

ونجد عند المفسِّرين التفاتة هامة إلى مراعاة " السّياق الأكبر " للنّص اللغوي، وذلك باشتراطهم في المفسِّر استحضار النّص القرآني كلّه عند تفسير بعضه، فمن أراد (تفسير الكتاب العزيز طلبه أولاً من القرآن، فما أُجمِل منه في مكان، فقد فُسِّر في

32المرجع نفسه ، ص 166

33المرجع نفسه ،ص 205

34تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ، دار الثقافة، 1981م، ص 337

35د. محمد سالم صالح ،النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية ، ص 9 -10

موضع آخر، وما اختُصِر منه في مكان فقد بُسِط في موضع آخر منه)" 36. ثم نراهم يُضِيفون إلى استحضار النّص القرآني جميعه الاستعانة بالسنّة الشريفة، وهي التفاته هامة، كون السنّة الصحيحة مكمّلة للقرآن وتُكوِّنان وحدة واحدة، تفسِّر ثانيتهما الأولى. "37

المطلب الرابع : السِّياق في الدراسات اللغويّة الحديثة.

حظي السِّياق في الدّراسات اللغويّة الحديثة بعناية واسعة، وارتبط بجهود كثير من العلماء العرب والغربيّين، ويُعدّ العالم الانجليزي (فيرث) في مقدّمتهم واضعا المنهج السِّياقي الذي ينبغي الالتزام به في دراسة اللغة، واستوى جهده في نظريّة عرفت بالنظريّة السِّياقيّة للمعنى " 38 وقد سبقت نظريته بمحاولة الانتربولوجي (مالينوفسكي)، وكلاهما قد حدّد المعنى بموجب السِّياق الذي يُستعمَل فيه .و قد استعمل (مالينوفسكي) مصطلح سِياق الحال ويعني هذا المصطلح في المقام الأوّل: الموقف الفعليّ الذي حدث فيه الكلام ولكنّه يقود إلى نظرة أوسع للسِّياق تَضُمّ الخلفيّة الثقافيّة التي وضع الحدث الكلامي بإزائها. أي أنّ معنى الجملة يتحدّد في السياق المعيّن الذي ترِد فيه،والسِّياق الذي قصده (مالينوفسكي) هو البيئة الطبيعيّة أو الواقع الثقافي للمجتمع ، ثم تطوّر باستعمال (فيرث) له في دراسته اللغويّة وقد نظر فيرث إلى المعنى على أنّه نتيجة علاقات متشابكة متداخلة ، فهو ليس وليد لحظة معيّنة بما يصاحبها من صوت وصورة ، ولكنّه أيضا حصيلة المواقف الحيّة التي يمارسها الأشخاص في المجتمع ، فالجمل تكتسب دلالتها في النّهاية من خلال ملابسات الأحداث أي من خلال (سِياق الحا ل)ورأى وجوب اعتماد كلّ تحليل لغويّ على ما يسمّيه بالمقام . واقترح أن تُدرَس اللغة كجزء من المنظومة الاجتماعيّة . ولذلك فإنّ فكرة سِياق الحال أصبحت تعني عند فيرث دراسة اللغة كأداة في المجتمع يستعملها الأفراد، بقصد تحقيق أهداف وأغراض معيّنة . وقد صرّح (فيرث) بأنّ المعنى لاينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغويّة؛ أي وضعها في سياقات مختلفة" 39

وقد أكّد فيرث على التوازي بين السياقات الداخليّة والشكليّة ..وبين السياقات الخارجيّة للموقف وعلى هذا تقتضي دراسة معاني الكلمات تحليلا للسِّياقات والمواقف التي ترِد فيها سواء أكانت لغويّة أم غير لغويّة" [40]ويرى (جون لاينز) أنّ السياق مرتبط بالنّص وكلّ منهما مكمِّل للآخر "إذ تعتبر النّصوص مكوِّنات للسِّياقات التي تظهر فيها، أمّا السِّياقات فيَتِمّ تكوينها وتحويله ا وتعديلها بشكل دائم بواسطة النّصوص التي يستخدمها المتحدّثون والكُتّاب في مواقف معيّنة" 41

36السيوطي ، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، دار الكتب بيروت، ط1 ،1988م،ج2، ص 175

37المرجع نفسه : ج2 ، ص 176

38د، أحمد مختار عمر، علم الدلالة، مكتبة **دار** العروبة للنشر والتوزيع، الكويت 1982م ، ص 69

39 حيدر جبار عيدان ،السياق القرآني وأثره في الكشف عن المعنى في كتب معاني القرآن، ص 18

40أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، ص 69

41 جون لاينز ،اللغة والمعنى والسياق ، المترجـــم: د. عباس صادق الوهاب مراجعـــة: د. يوئيل عزيز،دار النشـــر: **دار** الشؤون الثقافيةالنشر بغداد ،1987 ،ص 211

فالسِّياق يحدِّد معنى الوحدة الكلاميّة في الخطاب، ونوعها وكيفيّة التعبير عنها، فالنّص يمكن أن يؤدي عدّة معان بحسب السِّياق الذي ينطق فيه، فقد يُقارَن بالصمت، أو هزّ الرأس، أو الابتسامة، أو النّظرة العَبوسة، إلى غيرها من الأوضاع.

وناقش (ستيفن أولمان) السِّياق، وحدّد مفهومه تحديدا واضحا وشاملا، إذ أشار إلى" أنّ السِّياق ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية فحسب ،بل والقطعة كلها والكتاب كلّه، كما ينبغي أن يشمل بوجه من الوجوه كلّ مايتصل بالكلمة من ظروف وملابسات ، والعناصر غير اللغوية المتعلّقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة، لها هي الأخرى أهمّيتها البالغة في هذا الشأن." فهذه العوامل لها تأثيرها المباشر على المعنى الواضح للكلمات، ولو طبق مبدأ السِّياق بدقة، لابتعدنا عن الأخطاء المتعلقةبالاقتباسات،والتفسيرات و الترجمات يقول(أولمان) وهو يناقش موضوع السِّياق:" نظريّة السِّياق إذا طُبّقت بحكمة، تُمثّل حجر الأساس في علم المعنى ، وقد قادت بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في هذا الشأن، إنّها مثلا قد أحدثت ثورة في طرق التحليل الأدبي ومكّنت الدراسة التاريخيّة للمعنى من الاستناد إلى أسس حديثة أكثر ثباتا.... وفوق هذا كلّه قد وضعت لنا نظريّة السِّياق مقاييس لشرح الكلماتوتوضيحها،عن طريق التماسك بما سمّاه (فيرث) ترتيب الحقائق في سلسلة من السِّياقات: أي سياقات كلّ واحد منها ينضوي تحت سياق الآخر، ولكل واحد منها وظيفة بنفسه، وهو عضو في سياق أكبر وفي كل السِّياقات الأخرى وله مكانه الخاصّ فيما يمكن أن نسمّيه (سياق الثقافة) والحقّ أنّ هذا المنهج طموح، إلى درجة لا نستطيع معها في كثير من الأحايين إلا تحقيق جانب واحد منه فقط ولكنّه مع ذلك يُمدّنا بمعايير تُمكّننا من الحكم على النتائج الحقيقية حكما صحيحا.فالسِّياق وحده هو الذي يساعدنا على إدراك المتبادل بين المعاني الموضوعية والمعاني العاطفية والانفعالية"[42].

وأشار (دي سوسير) إلى أنّ "السِّياق .. يتركّب دائما من وحدتين متتاليتين فأكثر ...والكلمة إذا وقعت في سِّياق ما، لا تكتسب قيمتها إلا بفضل مقابلتِها لما هو سابق ولما هو لاحق بها،أو لكليهما معا" [43] فالمعنى السِّياقي عند دي سوسير، علاقة بين الدالّ والمدلول، تسمّى تلك العلاقة بالعلاقات السياقيّة .

ومن اللغويّين الغربيّين من أنكر على السِّياق أثره في الكشف على المعنى، العالم اللغوي (بالمر) وينطلق إنكاره من اعتقاده بصعوبات عمليّة، ونظريّة، تحيط بالسِّياق منها:أنّه يمكن معرفة معنى جملة ما بمفردها وبمعزل عن السِّياق وبهذا يكون المعنى مستقلًا عن السِّياق، ويستطيعناطقو اللغة دراسة المعنى من دون إشارة للسِّياق. ويضع (بالمر) بديلا عن السِّياق بقوله"عندما نهيّئ جملة أخرى بمعنى مشابه

42حيدر جبار عيدان،السياق القرآني وأثره في الكشف عن المعنى ،ص 19

43دي سوسير ،دروس في الألسنية العامة ،، تعريب صالح القرمادي، محمد الشاوش،محمد عجينة، الدار العربية للكتاب، سنة 1985،ص 186

أو تفسيرا لها، وهذا لا يعني أنّنا حدّدنا جملتين وقلنا أنّ لهما معنى واحداً فإنّنا سَنكُون قد حدّدنا كيانا مجرّداً اسمه المعنى"[44]

وقد كان للغويّين العرب المحدَثين أثر في دراسة السِّياق، نذكر منهم الدكتور تمّام حسّان في محاولاته القيّمة التي ذكر فيها السِّياق من خلال ربطه بين الشّكل والوظيفة ،في حديثه عن المجاورَة في السِّياق أي دراسة الكلمة عن طريق المجاورَة في السِّياق بوصفها نواة الدلالة، أو لأنّها ذات معنى معجمي، وفرّق بين المعنى المعجمي والمعنى الوظيفي"[45]

وأشار إلى أنّ السِّياق هو المكان الطبيعي لبيان المعاني للكلمات الوظيفيّة" [46]

وعزّز رأيه بالأمثلة التي توضّح منهجه السِّياقي، ووضع وسائل الربط في السِّياق، وقسَّمها على ثلاثة أقسام :

1 - وسائل التماسك السِّياقي.

2 - وسائل التوافق السِّياقي.

3 - وسائل التأثير السياقي."[47]

ويرى الدكتور(تمّام حسّان) أنّ المعنى الدلالي يرتكز على المعنى المقالي، يضاف إلى المعنى المقامي، ويَقصد بالمعنى المقامي؛ المقام أو المعنى الاجتماعي وهو شرط لاكتمال المعنى الدلالي وضروريٌّ لفهمه"[48].

ومنهم الدكتور (محمّد حماسة)، الذي عالج السِّياق في حديثه عن المعنى و أثره في تحديد الدلالة التركيبيّة للنّص، أو الجملة، يقول:" ولا يُنكَر أنّ دلالة السِّياق تجعل الجملة ذات الهيئة التركيبيّة الواحدة بمفرداتها نفسها، إذا قيلت بنصّها في مواقف مختلفة، تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيهمهما كانت بساطة هذه الجملة وسذاجتها"[49]

وقد تناول الدكتور (كمال بشر) هذه النظريّة من جانبها النظري، شأن الدكتور السّعران ولم يَعرض الجانب العملي التطبيقي، حيث دعا الدكتور(بشر) إلى تطبيق هذه النظريّة في الدرس اللغويّ العربي، وخصوصا في تناولنا للتّراث في حين أنّ تناوله لهذه النظريّة بالتطبيق كان محدودا للغاية من منطلق الاستشهاد أو الشّرح، أو التفسير، ركّز الدكتور (بشر) حديثه على عنصر واحد من عناصر النظريّة السِّياقية ذلك هو سياق الحال، الذي دعاه إلى ذلك أنه لم يتناول هذه النظرية في بحث مستقل، وإنما جاء حديثه عنها من منطلق نظرة نقديّة موضوعيّة للتراث العربي من جانب،

---

44 بالمر، علم الدلالة ،ترجمة مجيد الماشطة. الجهة الناشرة: الجامعة المستنصرية (العراق- بغداد). المطبعة: مطبعة العمال المركزية،1985 ،ص 57

45د تمام حسان ، مناهج البحث في اللغة ، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية; سنة النشر: 1990 ،ص 163

46د تمام حسان ، البيان في روائع القرآن ،دار النشر: عالم الكتب . سنة الطبع: الطبعة الأولى (1413هـ - 1993م)، ص 163

47د تمامحسان ،مناهج البحث في اللغة ،ص 233

48 تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها ،ص339

49محمد حماسة ،النحو والدلالة ،مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي ... بين النظرية والتطبيق ، دار قباءللنشر القاهرة، 2000 ، ص113

والدعوة إلى الأخذ بها وتطبيقها من خلال رؤية جديدة يتطلّع أن يكون عليها الدرس اللغويّ الحديث في مصر والعالم العربي من جانب آخر، أمّا من جاء بعدهم من اللغويّين فلم يزد عما قاله هؤلاء بصدد هذه النظرية، حيث عرضوا لتوضيح المقصود بمصطلح المقام أو سياق الحال في أبسط صوره، وقليل منهم الذي تناول السِّياق اللغوي بالتعريف اللّهم إلا ما كان من الدكتور حلمي خليل في كتابه " العربيّة وعلم اللغة البنوي " 1988م، فقد تحدّث عن هذه النظرة في غير موضع في أثناء حديثه عن مدرسة فيرث،أمّا الدكتور أحمد مختار عمر فقد عقد فصلا في كتابه " علم الدلالة "بعنوان" نظريّة السِّياق" غير أنّه لم يزد عن التمثيل لبعض من أنواع السِّياق اللغويّ والعاطفيّ وسياق الحال والسِّياق الثقافي، غير أنّ أيًّا من هؤلاء لم يشيروا إلى ما طرأ على هذه النظريّة من تطور في الدرس اللغوي"[50].

النظرية السياقية.

إنّ نظام اللغة نظام متشابك العلاقات بين وحداته، ومفتوح دوما على التجديد والتغيير في بنياته المعجميّة والتركيبيّة، حتى غدا تحديد دلالة الكلمة يحتاج إلى تحديد مجموع السِّياقات التي ترد فيها،وهذا ما نادت به النظريّة السِّياقيّة التي نفت عن الصيغة اللغويّة دلالتها المعجميّة، يقول (مارتيني): "خارج السِّياق لا تتوفَّر الكلمة على المعنى"إنّ منهج النظريّة السِّياقيّة يُعدّ من المناهج الأكثر موضوعية ومقاربة للدلالة، ذلك أنه يقدم نموذجا فعليا لتحديد دلالة الصيغ اللغوية، وقد تبّنى كثير من علماء اللغة هذا المنهج منهم العالم (وتغنشتين) الذي صرّح قائلا: "لا تفتش عن معنى الكلمة، وإنما عن الطريقة التي تستعمل فيها "إن هذه الطريقة التي تستعمل فيها الكلمة، هي التي تصنف دلالة هذه الكلمة ضمن الدلالة الرئيسية أو القيم الحافة التي تتحدد معها الصور الأسلوبية، لأن السياق يحمل حقائق إضافية تشارك الدلالة المعجمية للكلمة في تحديد الدلالة العامة، التي قصدها الباث يقول ستيفن أولمن: "السياق وحده هو الذي يوضّح لنا ما إذا كانت الكلمة ينبغي أن تؤخذ على أنها تعبير موضوعي صرف، أو أنّها بها أساسا التعبير عن العواطف والانفعالات ."لقد حصل تطور هام في مفهوم السياق، إذ لم يعد يقتصر على الجانب اللغوي في إيضاح دلالة الصيغ اللغوية، وإنّما وجدت جوانب أخرى، قد تنحسم معها الدلالة المقصودة للكلمة كالوضع والمقام الذي يحدث فيه التواصل، أو الملامح الفيزيولوجية النفسية للمتكلم التي تصاحبه يقول الدكتور عبد القاهر الفهري الفاسي في ذلك:" اختيار مفهوم ملائم من بين لائحة المفاهيم التي يعبر عنها اللفظ المشترك يتطلب مجهودا معرفيا خاصا ،ويتسبب أحيانا في أخطاء، ويقع رفع الالتباس عن طريق السياق اللغوي المباشر، أو السياق الخطابي، أو الوضع الذي يحدث فيه التواصل؛ أي كل مصادر المعلومات المتوفرة لرفع اللبس" إنّ تعدد المفاهيم التي يدل عليها اللفظ؛ تعني أن هذا اللفظ له معنى مركزي هو "النواة"، ومعان هامشية ثانوية، اكتسبها من خلال دورانه المتجدد في أنساق كلامية مختلفة، حيث أضحى المعنى المركزي يدور في فلك المعاني

50عبد المنعم خليل ، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين ، ص 331 _ 332

الثانوية التي لاتفاضل بينها وأصبح طريق الناس رفع اللبس في الدلالة يمر عبر السياق اللغوي، أو الخطابي، أو معاينة المقام الذي يتمثل في المعطيات الخارجية والنفسية"[51].

إنّ منهج النظرية السياقية يعد من المناهج الموضوعية المقاربة للدلالة،فالسياق هو الذي يحدد معنى الكلمات أو الجمل أو العبارات .. وقد شقّق فيرث المعنى إلى خمسة وظائف مهمة مكوِّنة للمعنى" [52] هي:1- الوظيفة الأصواتية للصوت لأنه مقابل إبدالي،فالأصوات لها مواضعها في السياق وفي نظام العلاقات الذي يدعوه بالبنية الأصواتية للغة .

2 ـ الوظيفة المعجمية للمبنى أو الكلمة.

3 ـ الوظيفة التصريفية .

4 ـ الوظيفة التركيبية، كما إذا نطقت الجملة السابقة بتنغيم استفهامي: عفوت عن القاتل ؟ أو تعجبي: عفوت عن القاتل !

5 ـ الوظيفة الدلالية ولا تتأتى هذه الوظيفة إلا بالتحقق السياقي للـــكلام في موقف فعلي معين ويسمى(سياق الموقف) .

وللنظرية السياقية منهج يقوم على ثلاثة ركائز متصلة هي :

أوّلا: إنّ كل تحليل لغوي يجب أن يستند على مايسمى بسياق المقام (سياق الحال)، وهي العلاقات الزمانية، والمكانية" [53] التي يجري فيها الكلام، فهو يشمل كل مايقوله المشاركون في إنتاج السلسلة الكلامية،كما يشمل الخلفية الثقافية بما تتضمنه من سياقات وخبرات المشاركين، ومن العناصر المكونة للموقف الكلامي"[54]:

1 ـ الكلام الفعلي نفسه .

2 ـ شخصيّة المتكلم والسامع ، وتكوينهما الثقافي وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلم والسامع ـ إن وجدوا. وبيان مالذلك من علاقة بالسلوك اللغوي ودورهم، أيقتصر على الشهود أم يشاركون من آن لآخر بالكلام، والنصوص الكلامية التي تصدر عنهم .

3 ـ العوامل والظواهر الاجتماعية، ذات العلاقة باللغة والسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي، كحالة الجوّ إن كان لها دخل، وكالوضع السياسي ...، وكلّ مايطرأ في أثناء الكلام ممن يشهد الموقف الكلامي من انفعال أو أي ضرب من ضروب الاستجابة،وكلّ ما يتعلق بالموقف الكلامي أيّا كانت درجة تعلقه.

4 ـ أثر النص الكلامي في المشتركين،كالإقناع،أو الألم،أو الإغراء،أو الضحك.

وهكذا يتضح أنّ من أهم خصائص (سياق الحال) إبراز الدور الاجتماعي الذي يقوم به المتكلم، وسائر المشتركين في الموقف الكلامي .

51منقور عبدالجليل ، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي،دراسة ـ من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق - 2001 ص88 - 89

52، محمد محمد يونس علي ،وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية ، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا 1993. ، ص 101 - 102

53منقور عبد الجليل، علم الدلالة، ص90

54السعران، علم اللغة،الناشر: دار الفكر العربي الطبعة: طبعة 2 - القاهرة 1997 ،ص 339

ثانيا: وجوب تحديد بيئة الكلام المدروس وصيغته ،فتحديد البيئة يضمن لنا عدم الخلط بين لغة وأخرى وهذا الخلط من شأنه أن يؤدي إلى نتائج مضطربة ،ومن ثم يجب تحديد البيئة الاجتماعية، أو الثقافية التي تحتضن اللغة المراد دراستها، وتحديد مستوى هذا الكلام ونوعه، فالدراسة الوصفية يجب أن تكون مقصورة على نوع واحد، ومستوى كلامي واحد كلغة المثقفين .

ثالثا: وجوب النظر إلى الكلام اللغوي على مراحل، لأنّه مكوّن من أحداث لغوية مركّبة ومعقدة ،وتحليله على هذا المنهج أيسر و أسلم .

لقد وجدت النظريّة السياقيّة استجابة وتقبّلاً، من لدن علماء في فروع الثقافة المهمة، والتي تعد المعنى جزءاً من موضوعها. وذكر (leech) أن (فيرث) تأثر في نظريته السياقية بالأنثروبولوجي البولندي المولد (Malinowski)، الذي عُرف عنه – في دراسته للدور الذي تلعبه اللغة في المجتمعات البدائية – أنه يعالج اللغة كصيغة من الحركة، وليس كأداة للانعكاس. اللغة في حركتها، والمعنى كما يستعمل، يمكن أن ينظر إليهما على أنهما شعار مزدوج لمدرسته الفكرية "[55].

ولم تكن (الأنثروبولوجيا) وحدها التي أيّدت الاتجاه السياقي، فقد جاءها التأييد كذلك من جانب الفلسفة. فقد أيدWittgenstetin الفـيلسوف، كون معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة "[56]. ويقول (برتراند رسل) الكلمة تحمل معنى غامضاً لدرجة ما. ولكن المعنى يكتشف فقط عن طريق ملاحظة الاستعمال"[57] .

وكذلك جاءها التأييد من علم النفس إذ أيّد أكثر العلماء النظرية السياقية"[58].

إنّ هذا التقبل الواسع من لدن العلماء، لم يعق عن توجيه عدة اعتراضات على هذه النظرية"[59] منها:

أولاً – أن فيرث لم يقدم نظرية شاملة للتركيب اللغوي، واكتفى فقط بتقديم نظرية في الدلالة.

ثانياً – أنه لم يكن محدداً في استخدامه لمصطلح السياق مع أهميته، فضلاً عن أن حديثه عن الموقف غامض غير واضح، وكان مبالغاً في إعطاء ثقل زائد لفكرة السياق يقول بالمر:(فصياغة نظرية كاملة للسياق يعني أن على مثل هذه النظرية أن تمثل كل المعلومات المتوفرة عن العالم)"[60].

ثالثاً – أن هذا المنهج لا يفيد من تصادفه كلمة عجز (السياق) عن تقديم معناها، فلن يفيده شيئاً أن يقال له: أن هذه الكلمة ترد في السياقات الآتية، ولكنه يفيد الباحث الذي يريد أن يتتبع استعمالات الكلمة، واستخداماتها العملية في التعبيرات المختلفة.

55السعران، علم اللغة، الناشر: دار الفكر العربي الطبعة: طبعة 2 - القاهرة 1997 ،ص 339

56أحمد عمر ،علم الدلالة ،ص 71_ 72

57المرجع نفسه ،ص 72.

58المرجع نفسه ،ص73

59بالمر ،علم الدلالة ،ص 64_65

60المرجع نفسه ،ص 59

أنواع السياق

لقد توصّل العلماء إلى تمييز بين أربعة أنواع من السياق :

1 . السياق اللغوي .
2 . السياق العاطفي الانفعالي.
3 - سياق الموقف أو المقام.
4. السياق الثقافي أو الاجتماعي.

1 - السياق اللغوي :

أما السياق اللغوي(أو الكلامي)فهو النّص/الخطاب ذاته بمستوياته اللغوية ، المعهودة : النحوية والمعجمية والدلالية، وهو سياق داخلي "منبثق"، لا يخرج عن حدود العبارة اللغوية بكينونتها النصية، وهذا النوع يتضمن من القرائن النصية(اللفظية والمعنوية)ما يرشد إلى مراد المتكلم من الخطاب، ولا يكون في سلّمه الإجرائي أيُّ مكوّن خارجي للمعنى والتأويل"[61]

فالسياق اللغوي يشرف على تغيير دلالة الكلمة تبعا لتغيير يمس التركيب اللغوي. كالتقديم والتأخير في عناصر الجملة فقولنا:" زيد أتم قراءة الكتاب "، تختلف دلالتها اللغوية عن جملة : "قراءة الكتاب أتمها زيد"

2.السياق العاطفي الانفعالي

أما السياق العاطفي الانفعالي فهو يحدد دلالة الصيغة أو التركيب من معيار قوة أو ضعف الانفعال، فالبر غم من اشتراك وحدتين لغويتين في أصل المعنى، إلا أن دلالتها تختلف، مثل ذلك الفرق بين دلالة الكلمتين: (اغتال) و(قتل) بالإضافة إلى القيم الاجتماعية التي تحددها الكلمتان، فهناك إشارة إلى درجة العاطفة والانفعال الذي تصاحب الفعل ،فإذا كان الأوّل يدلّ على أنّ المغتال ذو مكانة اجتماعية عالية، وأنّ الاغتيال كان لدوافع سياسية، فإنّ الفعل الثاني يحمل دلالات مختلفة عن الأول، وهي دلالات تشير إلى أن القتل قد يكون بوحشية، وأن آلة القتل قد تختلف عن آلة الاغتيال، فضلا على أن المقتول لا يتمتع بمكانة اجتماعية عالية"[62].

أمثلة على السياق العاطفي:

أولاً: من ناحية طبيعة استعمال الكلمة في دلالتها الموضوعية العامة، ودلالتها العاطفية الخاصة:كلمتا جهاد ونضال، كلمتان مترادفتان، إلّا أنهما تختلفان عند حدود استعمالهما، لأن كلَّ مستعمل له انتماء فكري ينحاز له فكرياً وعاطفياً؛ فلكلِّ جمهور نزعة عاطفية تجاه كلمة من الكلمات، مع أنها تشترك أو ترادف كلمة أخرى في

61مسعود صحراوي، المنحى الوظيفي في التراث اللغوي العربي، (مقالة)، نشرت في: مجلة الدراسات اللغوية، إصدار: مركز الملك فيصل للبحوث مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات والإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، المجلد الخامس/ العدد الأول، ص 42

62علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي -منقور عبد الجليل دراسة - من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق2001 – ص 65

عموم الموضوع، إلا أن لكلّ كلمة خصوصيتها وجمهورها الذي يحتوي على تجاه فكري معين، فكلمة ((جهاد)) يستخدمها الإسلامي بينما كلمة ((نضال)) يستخدمها العلماني.

وهكذا نرى أنّ في استخدام لفظتي استغلال واستثمار تبايناً، فالأولى تحمل قيماً أسلوبية سلبية، في حين الثانية إيجابية. بالرغم من أنهما مترادفان؛ فالأولى تشير إلى أخذ غلة والثانية أخذ ثمرةً.

وهكذا أيضاً لفظة ((كلب)) وما تحمله من قيم عاطفية متباينة. فعند الطفل هو لعبة، وعند المرأة التي تصلي هو نجس، وعند الفتاة هو الذي يشكل الخوف من نباحه، وعند الصياد هو الفرح الأكبر بحفلة الصيد. وهكذا فمستخدم هذه اللفظة يسبغ عليها من عاطفته، عندما ترد على لسانه، محمّلة بما تفيض به نفسه من انفعالات"[63].

ثانياً: من ناحية درجة القوة والضعف في الانفعال:

السياق العاطفي هو الذي يحدد درجة الانفعال قوةً وضعفاً، فالكلمات ذات الشحنة التعبيرية القوية، ترد حين يكون الحديث عن أمر فيه غضب وشدة انفعال. فالمتكلم في هكذا حالة من الشعور الجامح، يغالي في استخدام كلمات ذات شحنة عاطفية كبيرة، ومعانٍ مغالية لا يقصد معناها الحقيقي. فالذين يتعاركون((يتذابحون)) أو ((يقتلون)) بعضهم بعضاً. فمستخدم هذه الكلمات لا يقصد معانيها الحقيقية، وتكون محمّلة بما يعتمل في داخله من غضب وانفعال أو انشراح وسرور.

ثالثاً: من ناحية طريقة الأداء الصوتي:

طريقة الأداء الصوتي، لها دور فعال في شحن المفردات بالكثير من المعاني الانفعالية والعاطفية، كأن تُنْطَق الكلمة، وك ـأنها تمثّل معناها تمثيلاً حقيقياً. ولا يخفى مـــا للإشارات

المصاحبة للكلام في هذا الصدد من أهمية في إبراز المعاني الانفعالية"[64].

3 ـ سياق الموقف أو المقام.

وهو يعني الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة، فتتغير دلالتها تبعا لتغير الموقف، أو المقام، وقد أطلق اللغويون على هذه الدلالة مصطلح "الدلالة المقامية ".ويطلق عليه أيضا سياق الحال، وهو نوع من التجريد ،من البيئة أو الوسط الذي يقع فيه الكلام،وسياق الحال يشمل أنواع النشاط اللغوي جميعا كلاما وكتابة .

غير أنّبلومفيد السلوكي حدّ سياق الحال،بظواهر يمكن تقريرها في إطار من الأحداث العملية وهو عنده مادي ، ولهذا نجده يتجاهل حقائق لها شأن بالكلام"[65].

وسياق الموقف يتكون من ثلاثة عناصر هي :

1 .شخصية المتكلم ،والسامع، ومن يشهد الكلام، ودور المشاهد في المراقبة أو المشاركة .

63د. نسيم عون، الألسنية محاضرات في علم الدلالة، دار الفارابي – بيروت، ط الأولى 2005م ، ص160،.

64د. أحمد محمد قدور ، مبادئ اللسانيات،، دار الفكر - دمشق، ط الثانية 1419هـ ،. ص 297

65 محمود السعران ،علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص310 -311

2 العوامل والأوضاع الاجتماعية، والاقتصادية المختلفة بالحدث اللغوي.
3 . أثر الحدث اللغوي في المشتركين؛ كالإقناع أو الفرح، أو الألم أو الإغراء" [66]

4 .السياق الثقافي:

وهي القيم الثقافية والاجتماعية التي تحيط بالكلمة، إذ تأخذ ضمنه دلالة معيّنة، وقد أشار علماء اللغة إلى ضرورة وجود هذه المرجعية الثقافية عند أهل اللغة الواحدة ، لكي يتم التواصلوالإبلاغ ، وتخضع القيم الثقافية للطابع الخصوصي، الذي يُلوّن كل نظام لغوي بسمة ثقافية معينة، وهو ما يُكوّن أحد العوائق الموضوعية في تعلم اللغات"[67].

أمثلة على السياق الثقافي:

أولاً: ظهور السياق الثقافي من ناحية استعمال كلمات معينة في مستوى لغوي محدّد:
فالمثقف العربي المعاصر عندما يريد أن يعبّر بكلمة تدل على امرأته ، يقول ((زوجة))
أو ((مدام)) ، بينما نجد الرجل العادي البسيط يستخدم كلمة : ((مَرَه))، على حين يستخدم الرجل المتديّن كلمة: ((حرمة)) و ((حريم)) . فالسياق الثقافي له دور كبير في تحديد الدلالة المقصودة من الكلمة، أو المفردة التي تستخدم استخداماً عاماً.
ثانياً: يحدّد السياق الثقافي الدلالة المقصودة من الكلمة التي تستخدم استخداماً عاماً:
فاستعمال كلمة ((الصَّرف)) لدى دارسي العربية ؛يعني مباشرة أنّ المقصود هو علم الصرف الذي تعرف به أحوال الكلمة العربية من اشتقاق وتغيير وزيادة ونحو ذلك. على حين أنَّ دارسي الهندسة وطلابها يحدِّدون دلالة ((الصَّرف)) عندهم بأنّها مصطلح آخر هو ((الرِّي)). وهكذا يتحدّث هؤلاء عن ((الرِّي والصَّرف)) دون أن يشعروا بأيّ التباس أمام استخدام دارسي العربية الذين يتحدّثون عن ((النَّحو والصَّرف)). أمَّا إذا استعملت كلمة الصَّرف)) في قطاع المال والتجارة، فإنّ لها دلالة أخرى تشير إلى تحويل العملة النقدية من الجمود والكمو ن - في الحساب المصرفي مثلاً - إلى التداول الفعلي، أو تحويل العملة من فئة إلى فئة، أو من نقد إلى آخر.
ثالثاً: ارتباط الكلمة بثقافة معيّنة لتكون علامة لانتماء عرقي أو ديني أو سياسي:
استخدام كلمة ((فتح)) للدلالة على حرب وكسب الأرض،لا يساوق بحال من الأحوال،استخدام كلمة ((احتلال)) أو((غزو مسلح))،لأنَّ كلمة ((فتح)) لها دلالة ثقافيةٍ تاريخية إيجابية. كما أنَّ استخدام كلمة ((المجاهد)) لا يتطابق دائماً مع كلمة ((المناضل)) أو((المقاتل)) أو((الفدائي)) أو ((الإرهابي)) أو ((الانتحاري))، لأنَّ لكلِّ كلمة من هذه الكلمات ظلال ثقافية ذات ارتباط بالتاريخ أو الدين أو السياسة.
رابعاً: ارتباط السياق الثقافي بالترجمة:

---

66 سامي عياد حنا، كريم زكي حسام الدين، نجيب جريس، معجم اللسانيات الحديثة ، معجم اللسانيات الحديثة، انجليزي-عربي- مكتبة لبنان للنشر ، ص28
67د ،أحمد مختارعمر، علم الدلالة ، ص 69

للسياق الثقافي أهمية بارزة في الترجمة، إذ تتطلّب مقتضيات الفهم الصحيح والدِّقة العلمية أن يلّم المترجم بالسياق الثقافي للنّص المترجم، لكي ينقل مضمونه إلى اللغة الأخرى بكلمات موازية من حيث الارتباط بالسياق. ولا يمكن حين التَّصدِّي لترجمة الكلمات التي تعبِّر عن عقائد أو مذاهب سياسيّة الاقتصار على الدلالة المعجمية التي ربّما تكون مضلّلة للمترجم الذي لم يتوسَّع في احتساب المعاني الهامشية المستمدة من السياق الثقافي"[68].

وباعتبارنا نستعمل آليّة السياق في تحليل النص القرآني نجد من بين أنواعه ما يلي :

1 ـ السياق المكاني : سياق الآية داخل السورة وموقعها بين السابق من الآيات واللاحق ،أي مراعاة سياق الآية في موقعها من السورة وسياق الجملة في موقعها من الآية، فيجب أن تربط الآية بالسياق الذي وردت فيه ولا تنقطع عما قبلها وما بعدها .

2 ـ السياق الزمني للآيات أو سياق التنزيل : كما تعد أسباب النزول عنصرا يعتمد عليه في معرفة المراد من الآيةومن ذلك قوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}[سورة البقرة: 143] فقد نص المفسرون على أن المقصود بـــــ (الإيمان) في الآية هو (الصلاة) بالرغم من الفرق المعجمي بين الإيمان والصلاة، والذي دعاهم إلى ذلك معرفة سبب نزول الآية، فيرون أن ابن عباس رضي الله عنهما لما وُجّه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قالوا : كيف بمن مات قبل التحويل من إخواننا ؟ فنزلت وبذلك يكون سؤال الناس عن شأن الذين ماتوا قبل تحويل القبلة للبيت الحرام ،سياقا يستوجب أن يكون المراد من الإيمان هو الصلاة اتفاقا مع إرادة المستفهم .

3 ـ السياق الموضوعي: ومعناه دراسة الآيات التي يجمعها موضوع واحد، سواء تعلقت بقصة نبي من الأنبياء، أو تشريعا من التشريعات ،وذلك في القرآن كله.

4 ـ السياق المقاصدي : ومعناه النظر إلى الآية ،ودراستها من خلال مقاصد القرآن ،والرؤية القرآنية العامة للموضوع المعالج .

5 ـ السياق التاريخي :وهو سياق الأحداث التاريخية القديمة التي حكاها القرآن الكريم،والمعاصرة لزمن التنزيل الخاص؛ وهو أسباب النزول .

6ـ السياق اللغوي:وهو دراسة النص القرآني من خلال علاقات ألفاظه بعضها ببعض،والأدوات المستعملة للربط بين هذه الألفاظ، وما يترتب على تلك العلائق من دلالات جزئية وكلية .وكنتيجة لابدّ من تسجيل كامل بين هاته الأنواع في دراسة النص القرآني، منها مايتعلق بالعوامل المحيطة بالنص (أسباب النزول، الحوادث التاريخية...)ومنها ما يجعل النص بنية لغوية، هي مجال الدراسة والتحليل تقتصر على ما تفيده الألفاظ فيها من معان ودلالات" .[69]

وقد التفت القدماء إلى السياق اللغوي وغير اللغوي، وذلك لأهميتهما في الوصول إلى المعنى المراد من التركيب، ولا يتوقف ذلك على العناصر اللغوية فقط بل يعتمد أيضا

68المرجع السابق، ص 73

69 نفس المرجع ، ص84

على المقام المحيط بالجملة وحال المتكلم والمخاطب ، طبيعة الموضوع ...الخ .
والمراد بالسياق عندهم هو المعنى الذي يفهم من الكلمة بين الكلمات السابقة واللاحقة لها في العبارة، أو في الجملة"[70].

معايير السياق اللغوي:

أ / اختيار اللفظ المناسب :

واللفظ المناسب هو اللفظ الأوفق في مكانه ،وقد مثّل له (ابن جني) في تفسيره بقوله تعالى:{فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ} . [سورة القمر: 42] فـ(مقتدر) هنا أوفق من (قادر) من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ.

ب/ ترتيب الألفاظ وتتابعها :

ويقصد بالترتيب هنا أمران :
الأول : ترتيب الألفاظ طبقا لترتيب الفكرة التي يؤديها السياق في التركيب .
الثاني : ترتيب الألفاظ طبقا للوظيفة النحويّة، التي يقوم بها كل لفظ في سياق باقي اللفظ .
و قد أحاط (عبد القاهر) بهذا المعيار علما وفهما، فأشار إلى أن الكلم يترتب في النطق بسب ترتيب معانيها في النفس، ولمّا كانت المعاني لا تتبيّن إلا بالألفاظ، وكان لا لسبيل لها إلا بترتيب الألفاظ ،فاكتفوا عن ترتيب المعاني بترتيب الألفاظ، وقالوا : "هذا لفظ متمكّن وهذا لفظ نابٍ "

ج / نظم الألفاظ :

ويقوم السياق اللغوي على أمرين :
1 - مراعاة ارتباط الكلمة في النص بما قبلها وما بعدها.
2 - مراعاة النظام النحوي في نظم الألفاظ وصياغة التراكيب .
وقد أوضح ذلك (عبد القاهر) فيما يعرف بنظريّة النظم ،إذ يقول :" إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك ،لم تحتج أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس ،علم بمواقع الألفاظ في النطق".

د /اختيار الصيغ الصرفية :

مفهوم الصيغة الصرفيّة لا يقتصر على كونها مشتقة من مادة أخرى، ولكنها تحمل معان متنوعة منها: الطلب، المبالغة ، التعظيم ...الخ . فالصيغة الصرفية تكسب الكلمة معنى زائدا عن معناها المعجمي ويضاف إليها السوابق واللواحق التي تضيف دلالات جديدة، ومن ذلك (يستفتونك)، فـ (الياء) دالة على المضارعة

70عبد الرحمن بودرع ، منهج السياق في فهم النص ، سلسلة كتاب الأمة، العدد (111)، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر، السنة السادسة والعشرون، المحرم 1427هـ ،ص 30 _ 31

و(السين) أفادت الطلب، و (الواو) دالة على الجمع،و(النون) دالة على الرفع ،و(الكاف) دالة على الخطاب.

هـ /تفاعل اللفظ مع غيره من الألفاظ :

وهذا يعني أنّ النص اللغوي يعد نسيجا متداخل الخيوط، لايدري من أين يبتدئ، ولا إلى أين ينتهي،وهو متلاحم الأنسجة، ولا يكون ذلك إلا بائتلاف الألفاظ مع معانيها، فيكون اللفظ دالا على حقّ معناه ومن ذلك قول بشار :

كأنّ مُثارَ النّقع فوق رؤوسِنا وأسيافنا ليل تَهَاوى كواكبُه

فالبيت يمثّل وحدة لغوية مترابطة الكلمات، متآلفة الأركان ومن ثم لايجوز الفصل بين هذه الألفاظ ومعانيها وترتيبها، لإفادة الصورة الجمالية المرادة[71].

السياق غير اللغوي :

أما السياق غيراللغوي فيراد به ظروف الخطاب وملابساته الخارجية والتي تشتمل على الطبقات المقامية المختلفة المتباينة التي ينجز ضمنها الخطاب، والتي سمّاها علماؤنا: سياق الحال،أوالمقام، وقالوا: [لكل مقام مقال]،ويشمل ذلك الزمان والمكان وحال الأشخاص :المتكلمين والمخاطبين... وهذا النوع يشتمل على القرائن الحاليّة التي تسهم في الكشف عنالمراد، ومنها ما سمّاه المفسّرون: أسباب النزول، ويندرج ضمنها بالطبع "مراعاة حالا لمخاطب" و"غرض المتكلم" [72].

التفت القدماء إلى السياق غير اللغوي وأثره في دلالة النص، ومنهم (سيبويه) إذ أكثر من ذكر مواضع مختلفة في كتابه، تعتمد على غيرها من العناصر أو حذفها ،وألمح إلى دور المخاطب، والسياق الخارجي الذي يجري فيه هذا الكلام ، وعناصر هذا السياق متعددة سنعرضها بشيء من الإيجاز فيما يلي :

أ/ مايتصل بالمتكلم :

نحو الإشارة و الإيماءة ،فقد تحلّ محلّ النطق اللفظي كما في قوله ـ صلّى الله عليه وسلم ـ:"التقوى هاهنا و أشار إلى قلبه" فكأنه قال التقوى محلها القلب.

ب/ ما يتصل بالسامع والحاضرين :

فقد اهتم الأصوليّون بالسامع والحاضرين أيضا ،مع اهتمامهم بالمتكلم بوصفهم عنصرا من عناصر المسرح اللغوي، ويتضح هذا الأمر من سلوكهم في عملية الترجيح بين الروايات المتعددة، فكون المستمع قد سمع مباشرة من الرسول

71د . نادية النجار ، اللغة العربية وأنظمتها بين القدماء والمحدثين ،الناشر دار الوفاء ،الاسكندرية،ط2004 ، ص 211 -212

72مسعود صحراوي، المنحى الوظيفي في التراث اللغوي العربي، (مقالة)، نشرت في: مجلة الدراسات اللغوية، إصدار: مركز الملك فيصل للبحوث مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات والإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، المجلد الخامس/ العدد الأول، 2003،ص 42

صلى الله عليه وسلم، أو له صلة بالحادثة المتصلة بالرواية، أو شخص أعلم من سواه، كان ذلك من العوامل المرجّحة للرواية، ومؤكّدة لمعنى من المعاني، أو حكم من الأحكام ومثال ذلك أن الرواة قد رجّحوا رواية السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ـ صلىّ الله عليه وسلم ـ من أنّه كان يصبح جنبا وهو صائم على ما رواه (أبو هريرة) من قوله ـ صلى الله عليه وسلم: {من أصبح جنبا فلا صوم له } لكونها أعرف بحاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ج/طبيعة النص :

فنوع النص يؤثر في دلالته،فإذا كان اللفظ واردا في نص شرعي، انصرف المعنى إلى الدلالة الشرعية وهكذا .

د /الظروف والملابسات المحيطة بالنص الشرعي :

ومن ذلك أسباب النزول؛ فهي مفسرة للنصوص الشرعية ،ومفيدة في فهم السنة النبوية ومن ثم عمد الأوائل إلى الإحاطة بها، لما لها من أثر في فهم المراد.

هـ/ البيئة : ومن ذلك فقه أهل المدينة يختلف عن غيرهم، بحكم أنهم أعلم بالتنزيل وأقرب بأحوال النبي ـ صلى الله عليه وسلم.

و/ عادات العرب :

لابد من الإحاطة بعادات العرب وأعراف العرب التي اتسموا بها في أقوالهم وأفعالهم، قبل الإقدام على فهم أي نص شرعي"[73].

عناصر السياق :

ذهب بعض الباحثين المحدثين إلى أنّ السياق يقتضي ثلاثة عناصر :

1 ـ عنصر ذاتي: ويشمل معتقدات المتكلم، ومقاصده واهتماماته وأهدافه ورغباته .

2 ـ عنصر موضوعي: الظروف الزمانية والمكانية، وهي تلك الوقائع الخارجية التي يلقى فيها القول.

3 ـ عنصر ذواتي: وهو المتفق بين الباث والمتلقي، باعتبار المعرفة الاجتماعية والثقافية والتراثية وغيرها، قد تكتسب آنيا أثناء التخاطب وقبله (الخلفية والمرجعية) وعليه فإن السياق عبارة عن علاقة متشابكة تتصل بدءا بالمُخَاطِب، إلى المخاطَب ،المحيط الخارجي للخطاب"[74].

أهمية السياق .

يعد السياق اللغوي بشقيه من أهم القرائن بحق، ولاسيما في فهم دلالة النصوص الشرعية،فهو يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة ، وهذا من أعظم

73نادية النجار ، اللغة العربية وأنظمتها بين القدماء والمحدثين ،الناشر دار الوفاء ،الاسكندرية،ط2004 ، ص 213- 214

74عبد الواحد حسن الشيخ ، التنافر الصوتي والظواهر السياقية، مصر- مكتبة الإشعاع -1999م - ط1، ص 30 - 31

القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وفي مناظراته،فانظر إلى قوله تعالى: (ذق إنك أنت العزيز الكريم) [الدخان :49] كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير .

ونستنتج مما سبق أن السياق عند القدماء يشمل ترتيب الألفاظ وتنسيقها بحيث تترتب الكلمة اللاحقة على ما قبلها من كلمات، وترتبط كل كلمة في التركيب بكل كلمة سابقة عليها كما يشمل الإشارة، (الإشارة بالعين أو الحاجب أو بالعصا أو بالسيف) وكذلك دلالة الحال والمقام، وإن للسياق أيضا التأثير الجمالي للكلمة في داخل التركيب، كما يشمل طريقة إخراج الصوت من تفخيم اللفظ والتنغيم والنبر، وكذلك التوافق الدلالي بين دلالة الألفاظ، وما في التركيب من ألفاظ أخرى ذات معان معينة ، يضاف إلى ذلك الارتباط النفسي، بين حال المتكلم وانفعالاته عند إلقاء حديثه"[75].

75، نادية النجار :اللغة العربية وأنظمتها بين القدماء والمحدثين ،الناشر دار الوفاء ،الاسكندرية،ط2004 ، ص216

المبـــحث الثّاني

مفهوم الخطاب القرآني.

المطلب الأول : مفهوم الخطاب.

أ - الخطاب عند العرب.

تتردد كلمة خطاب بشكل مكثّف في الحياة الاجتماعية المعاصرة؛ سواء في الحياة اليومية أو السياسيّة أو الثقافية أو الإيديولوجية بصفة عامة، فما هو الخطاب لغة واصطلاحا ؟

وردت مادة "خ.ط.ب" في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة موزعة على اثنتي عشرة سورة بصيغ متعددة منها صيغة الفعل:"وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما" [لفرقان:6]ومنها المصدر في قوله " ربّ السموات والأرض لا يملكون منه خطابا [النبأ:37]ومنه أيضا قوله سبحانه وتعالى "وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب" [ص :20]كما ورد في اللسان لابن منظور في مادة [خ.ط.ب] أن الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام ، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا،وهما يتخاطبان،وأن المخاطبة صيغة مبالغة تفيد الاشتراك والمشاركة في فعل ذي شأن ،ويعرّفه الزمخشري بأنه " القصد الذي ليس فيه اختصار مخل،ولا إشباع ممل. كما تجدر الإشارة هنا أن لفظ الخطاب ورد عند النحاة بصيغ مختلفة،منها صيغة اسم المفعول" المخاطَب" للإشارة إلى القطب الثاني في المخاطبة كما ورد ذلك بشكل كبير عند علماء الأصول بصفة خاصة، فقد أوردوا أسماء الفاعل (مخاطِب) واسم المفعول (مخاطَب).كما نجد الآمدي قد عرّف الخطاب تعريفا بينا فهو" اللفظ المتواضع عليه ،المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه "، غير أنه تم اعتماد هذا المصطلح من طرف الفكر النقدي العربي الحديث ليحمل دلالة المصطلح اللغوي والنقدي الغربي .

ب - الخطاب عند الغربيين .

يرجع بعض الباحثين أنّ أول محاولة جادة لتعريف الخطاب في حدود المفهوم الفلسفي ، تعود إلى أفلاطون حينما اعتمد في هذا التحديد على قواعد عقلية ، ممّا يجعله تعريفا ذا ملمح فلسفي. أما في مطلع عصر النهضة فظهر هذا المفهوم عند ديكارت في كتابه "خطاب في المنهج " .للدلالة على الخطاب الفلسفي في العصور الوسطى. ومع مرور الزمن أصبح هذا المفهوم يشكل موضوعا أساسا في البحوث الفلسفية واللسانية الحديثة ، خاصة بعد ظهور محاضرات رائد علم اللسان الحديث "دوسوسير"وتمييزه بين اللغة والكلام، ومنذ ذلك الحين أخذ هذا المفهوم في الاتساع والانتشار في الدوائر اللغوية والأدبية ، إذ اختلفت التعريفات والتحديدات ، وأبرز كل واحد منها خصيصة من خصائص الخطاب فقد عرّفه "هاريس تعريفا لسانيا ، وهو أول لساني حاول توسيع حدود موضوع البحث اللساني بجعله يتعدى الجملة إلى الخطاب انطلاقا من تعريف "بلومفيلد" للجملة عبر تأكيده على وجود الخطاب رهينا بنظام متتالية من الجمل تقدم بنية للملفوظ. أما تعريف "بنفنيست" للخطاب فكان له أبلغ الأثر في الدراسات الأدبية التي تقوم على دعائم لسانية ، إذ يرى أن الجملة تخضع لمجموعة من الحدود ، فهي أصغر وحدة في الخطاب، ويأتي هذا عكس ما جاء به "هاريس" والتوزيعيين الذين وقفوا عند حد الملفوظ . كما وضع إلى جانب باحثين آخرين مفهوم التلفظ الذي يعني الفعل الذاتي في استعمال اللغة، والذي يعتبر فعلا حيويا في إنتاج أي نص، كمقابل للملفوظ، وباعتباره الموضوع اللغوي المنجز

والمنغلق والمستقل عن الذات التي أنجزته.وهكذا يتيح التلفظ دراسة الكلام ضمن مركز نظرية التواصل ووظائف اللغة،ويرى في ذلك أن التلفظ هو موضوع الدراسة وليس الملفوظ، ومنه يعرف الخطاب باعتباره الملفوظ منظورا إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في العملية التواصلية وبذلك يعرف الخطاب بمعناه الأكثر اتساعا فهو "كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما" والواقع أن التعريفات العديدة للخطاب تعكس خلفيات معرفية لمناهج متعددة، فالاتجاه الشكلي يعرفه بأنه أكبر من الجملة، فمهمة الباحث هي البحث في علاقاته الداخلية وعناصر انسجامه وتركيبه وعلاقة وحداته فيما بينها، فهو الوحدة الكبرى للجملة.ونجد هذا متمثلا بشكل خاص في لسانيات الخطاب وتحليل الخطاب بصفة عامة. أما التعريف الآخر فهو الذي يخص الاتجاه الوظيفي، الذي يتجاوز الوصف الشكلي،إلى الاعتناء بالسياق وعناصره المختلفة، ومدى توظيفها أو مساهمتها في إنتاج الخطاب أو في تأويله ، مثل العلاقة بين المتخاطبين والمسافة والمستوى الاجتماعي والطرق المختلفة في إنتاج الخطابات ، فالتلفظ المتعدد لخطاب واحد ، مثلا يجسد (الأنا) المتلفظة في تباينها الواقعي والاجتماعي مع المرسل إليه.
أما التعريف الذي يرى في الخطاب ملفوظا، فهو يمثل نقطة التقاطع بين المنهجين السابقين،الاتجاه البنيوي والوظيفي، إذ لا يعتد هنا بالجملة معزولة عن سياقها باعتبارها بنية صغرى داخل بنية كبرى التي هي النص أو الخطاب، وإنما بالملفوظ مقابلا لهذا المفهوم ، وبذلك فالخطاب هو متتالية من الملفوظات، أي وحدات ذات سياقات تلفظية خاصة .

ومن ذلك نستخلص أن دلالات الخطاب تتعدد بتعدد اتجاهات ومجالات تحليله،وعلى هذه الخلفية نجد تداخلا لهذه التعريفات أو تقاطعا أحيانا، وأحيانا أخرى تكاملا فيما بينها.وحتى يمكن فهم الخطاب وتحليله بشكل مقبول، يجب تحديد الاتجاه الذي ينتمي إليه والمجال الذي يتم الاشتغال فيه وفق أسئلة إبستيمولوجية محددة.
فيمكن للباحث أن يجيب عن أسئلة من نمط :لماذا هذا التعريف ؟ ما هي الأدوات والإجراءات المناسبة ؟ إلى ماذا نريد الوصول ؟وكيف ؟ غير أننا نجد بعض التداخل بين الخطاب والنص ، فهل النص هو الخطاب ؟ أم أن هناك فرقا بينهما ؟

المطلب الثاني : بين الخطاب والنص.

النص هو مجموعة القوالب الشكلية :النحوية والصرفية والصوتية ، بعيدا عما يكتنفه من ظروف أو ما يتضمنه من مقاصد ، ولا يحيل على ما هو خارج بنيته من عناصر سياقية وظروف الإنتاج ولا يتغير بتغير الظروف والملابسات، وبذلك يمثل شكلا نهائيا منتهيا.
بينما يحيل الخطاب على عناصر السياق الخارجية في إنتاجه وملابساته وتأويله، خاصة في الخطابات الشفوية وتلك الخطابات التي تعتمد على غير اللغة الطبيعية.أما في الخطاب اللغوي "فإن حده أنه منطوق به موجه إلى مرسل إليه مع نية إفهامه بطريقة ما، ولا يقتصر توجيهه إلى مرسل حاضر عيانا فقط ، بل يتعدى ذلك إلى مرسل إليه حاضر في الذهن أو ما يمكن أن يسمى بالمتلقي الافتراضي.

توجهت جهود كثير من العلماء المعاصرين إلى تحليل الخطاب القرآني، وآثر البعض "الخطاب "على "النص"معللين ذلك بأنّ لفظ "الخطاب" ينمّ عن التوجيه والقصد وينبض بالحياة ،على حين أنّ كلمة "النص" قد توحي بمعنى تراثي جامد ولعل هذا هو الفرق بين الخطاب والنص عندهم لمن يقول بوجود الفرق بينهما"[76].

المطلب الثالث : عناصر الخطاب.

هناك عدد من العناصر التي تشترك في بلورة عملية التواصل في الخطاب .ويمكن معرفتها من خلال النظر إلى الخطاب ذاته، بوصفه الميدان الذي تتبلور فيه كل هذه العناصر مما يحيلها إلى عناصر سياقية:

1- المرسل .

2- المرسل إليه.

3- العناصر المشتركة، مثل العلاقة بين طرفي الخطاب، والمعرفة المشتركة والظروف الاجتماعية العامة، وكذلك الافتراضات المسبقة والقيود التي تؤطر هذه العملية".

ويبدو أن العنصر الأخير هو الأكثر أهمية ،لتأثيره في العناصر الأخرى وفي عملية إنتاج الخطاب،كما يظهر أن هذه العناصر متحولة مما يجعلها غير ثابتة ، فقد يتم التلفظ بنفس البنية اللغوية ولكنه لا يتم بنفس الملفوظ نظرا لعدم ثبات هذه العناصر وتغيرها حسب الظروف والملابسات الإحالة إلى هذه العناصر هي التي تجعلمن الخطاب يتمتع بهذه الصبغة التداولية المتمثلة في تنوع السياقات وعناصرها"[77].

المطلب الرابع :اللسانيات وتحليل الخطاب القرآني.

لقد تعددت مناهج النظر في التعامل مع النص القرآني ، من المنهج التشريعي (علم أصول الفقه) لاستنباط الأحكام الفقهية ،إلى المنهج البياني بكل متطلباته واستحقاقاته البلاغية،إلى المنهج التربوي بكل أدواته ومقاصده ومعطياته ، إلى المنهج التاريخي في رحلة البحث والكشف عن قوانين الحركة الاجتماعية ،وعوامل النهوض والسقوط إلى المنهج السنني ،إلى المنهج النفسي ،والمنهج التوحيدي،والمنهج الإشاري ، وحتى المنهج الجغرافي ومنهج التصوير الفني ، وعلى رأس ذلك كله منهج السياق الإعجازي ، وطريقة رصف الكلمات في الجملة والجمل في صياغة الأسلوب المؤثر ذي الجرس الموسيقي الإيقاعي، وارتباط الألفاظ بالمعاني،وبناءالكلمات من الحروف المناسبة للجرس وللإيقاع و المقصد بكل مخارج مخارج أصواتها وأنواعها....إن هذه المناهج لم تتناكر على تنوعها واختلافها"[78]

إن اللسانيات ومناهج تحليل الخطاب الحديثة أسعفتنا كثيرا في فهم أبعاد هذا القيد،فلكي نفهم نصا لا يمكننا أن نفهمه بناء على بنائه اللغوي السطحي، دون أن نستحضر عاملين أساسيين من عوامل استخراج المعنى، وهما السياق اللغوي أي السياق الداخلي المتمثل في ما قبل الآية موضوع التفسير وما بعدها باعتبار القرآن

76الباحث خليل بو لفعة ،الأدوات النظرية في تحليل الخطاب ، مجلة أقلام الثقافية

77الأدوات النظرية في تحليل الخطاب ، مجلة أقلام الثقافية

78 عبد الرحمن بودرع ،منهج السياق في فهم النص ، ص 10

الكريم نسقا متكاملا لا يمكن فهم إحدى جزئياته إلا في إطاره الشمولي، ومن ثم نفهم فهما جيدا لماذا اشترط أهل السنة في أصولهم التفسيرية تفسير القرآن بالقرآن، ودلالة السياق، والناسخ والمنسوخ،والمحكم والمتشابه، والعلاقات الدلالية القائمة بين ألفاظ القرآن الكريم: العام والخاص، المطلق والمقيد، علاقة الجزء بالكل، علاقة التضمن وغيرها من العلاقات الدلالية التي في غيابها لا يمكننا فهم الخطاب القرآني.

المطلب الخامس :السياق وأثره في تحليل الخطاب القرآني

لا يكتمل نظر المفسر والمحلّل بغير وضع الخطاب في سياقه ، وللسياق مكانته في علوم القرآن ، ينهض به علمان قائمان برأسيهما :" علم معرفة أسباب النزول " و" علم معرفة المكي والمدني " بالأول يتمكن المتلقي من معرفة العلاقة بين جزء محدد من النص (آية أو أكثر) والواقع الخارجي الذي هو سبب نزول النص، وبالتالي يتمكن المتلقي من استيعاب السياق التاريخي والاجتماعي الذي به اختلف الخطاب المكي عن المدني وهذا يعني أن السياق في هذا النظر يستوعب العناصر ذاتها التي انتهت إليها نظريات تحليل الخطاب المعاصرة،وربما أضاف إليها أيضا ، فـ " براون " و" جورج يول " يؤكدان على ضرورة أن يأخذ محلل الخطاب السياق بعين الاعتبار ، لأنه يؤدي دورا فعالا في تحليل الخطاب ، فكثيرا ما يؤدي ظهور قول واحد في سياقين مختلفين إلى تأويلين مختلفين ، والسياق لديهما يضم الأطراف التالية : المتكلم ، والمتلقي والزمان والمكان"[79].

فعلاقة السياق بالخطاب في كلام "براون" و"يول " علاقة ساكنة ؛ السياق مجرد مرجع أو إطار يدور فيه الكلام ، صحيح أن في كلامهما ما يكشف عن دور فاعل للسياق ، ولكنه دور تأويلي، يقتصر على العلاقة بين الخطاب والمتلقي ، أما علاقة الخطاب بالسياق فهي علاقة ساكنة، يبدو السياق فيها مجرد إطار لا فاعلية له ، وهذا أيضا ما يقدمه " هاليداي " الذي يعرف السياق بأنه " النص الآخر أو النص المصاحب للنص الظاهر، والنص الآخر لا يشترط أن يكون قوليا ، إذ هو يمثل البيئة الخارجية للبيئة اللغوية بأسرها ، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية "[80].

لقد كان سعي علماء النص ومحللي الخطاب إلى تجاوز الجملة الجزئية نقلة واسعة باتفاق المحدثين على اختلافهم ، فقد عرفوا الخطاب - من وجهة لسانية بأنه " نص محكوم بوحدة كلية واضحة ، بحيث يتألف من صيغ وجمل متراصة منسجمة ومتوالية ، تصدر عن المخاطب الذي يود تبليغ الخطابوإيصاله إلى المخاطب ."[81]

---

79 محمد خطابي : لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، ط(2) المركز الثقافي الغربي ، المغرب ، 2006 ، ص 52

80د . يوسف نور عوض : علم النص ونظريّة الترجمة ، ط (1) دار الثقة للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة ،1410 هـ ص 33 - 34

81فاتح زيوان ، مصطلح الخطاب والنص ، الدلالة في الثقافة العربية ، مجلة كتابات معاصرة ، ع 70 م 18 بيروت 2008 م ص 97

وإذا كان الخطاب متتالية من الجمل – وهو التعريف الذي أراده : هاريس فمن الضروري أن يكون التقاء هذه الجمل التقاء قصديا وليس اعتباطيا على امتداد الخطاب ، فالعلاقات الماثلة بين هذه الجمل هي التي تشكل في النهاية بنية الخطاب "[82] فالخطاب – على هذا الأساس – وحدة لغوية أشمل من الجملة ، نظام من الملفوظات ، يتحدد مفهومه في اللغة بناء على التلفظ أو العلاقة بين الطرفين : مخاطب والمخاطب ، وإذا كان الخطاب ما يتلفظ به فإن هذا يعني أنه قد يكون جملة أو فقرة أو نصا ،أي أن الاعتبار الكمي لا دخل له في تحديده ، فقد يغدو الخطاب جملة واحدة ، أو ألاف من الجمل ". [83]ولاشك أن تجاوز الجملة عمل مهم ، ولكن اقتصار البحث اللساني على الملفوظ وحده جعله يغفل العلاقات الموجودة بين اللغة والثقافة والمجتمع ، لأن تتجاوز دائرة الاهتمام اللساني ، ولهذا نجد هاريس : غير منشغل بها ". [84]

وهذا الذي يقدمّه علماء الخطاب وتحليل النص يلتقي مع ما يطرحه علماء القرآن ، الذين انطلقوا من وحدة النص الكريم ،مصدرا وموضوعا ، فقد تماسك النص لغة وانسجم مضمونا وفقا لمراد الله، الذي تعهده بالحفظ على هذا النحو الذي ترتبت فيه الآيات والسور الترتيب الذي اقتضى تماسك كل دال مع ما يليه ،أو كما يؤكد : السيوطي متحدثا عن متانة سبك النص الكريم : "فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أيّ لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبيّن المعنى بعد المعنى ؛ ثمّ كذلك من أوّل القرآن إلى آخره ."[85]

المطلب السادس : القراءة الداخلية للخطاب القرآني.

ينطلق علماء القرآن من اعتبار القرآن الكريم خطاباً منسجماً مترابطاً، وهذا يعني أنّه متصل، تنكشف الدلالة بين أجزائه بتحديد العلاقات المختلفة القائمة بينها، فكلّ جزء فيه مرتبط بآخر بشكل أو آخر، وما عليك إلا أن تكشف هذا الرابط حتى تتضح لك الدلالة التي ترجوها.الدائرة الأولى: تفسير النص بنفسه، انطلاقاً من أنَّ وحداته المترامية متكاملة، يفضي فيها الجزء إلى الكل، فالمُجْمَل يعقبه المُفَصَّل، وهذه هي الدائرة الأساسية التي يجب على المتلقي أن ينطلق منها، ولا يَعْدِلَ عنها إلا إذا أعياه تتبعها وعزَّ عليه فهم النص من خلالها.

الدائرة الثانية: وفيها ينفتح النص على غيره من النصوص، وإذا انطلقنا من اعتبار الحديث الشريف نصاً مُفَسّراً من قبل المتلقي الأول، الأعلم بمراد الله ـ كما يؤكد الزركشي- إذا انطلقنا من ذلك أمكننا القول: إنَّ هذه المنهجية تجلُّ القراءات الحافة التي قُدِّمَت للنص، وهي منهجية تعمل – في جانب منها على الأقل- في الاتجاه

82سعيد يقطين ،تحليل الخطاب الروائي ، (الزمن ، السرد ، التبئير) ط (2) المركز الثقافي العربي 1993ص 18

83فاتح زيوان :، مصطلح الخطاب والنص ، مرجع سابق ص 98

84 سعيد يقطين ، تحليل الخطاب الروائي ، مرجع سابق ، ص 17

85السيوطي ، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، تحقيق : علي محمد البيجاوي ط (1) م (1) دار الفكر العربي ، القاهرة 1973 م، ص 28

المضاد للمنهجيات الحديثة التي انطلق بعضها من فكرة (إساءة القراءات للنص)، هنا إجلال للسابق وانعطاف عليه، وليست الأسبقية الزمنية موضع اعتبار في ذاتها، ولكن لأسباب موضوعية محددة، تؤكدها الدائرة الثالثة.

الدائرة الثالثة: وفيها ينفتح المتلقي على القراءات التي أنجزها القارئ التاريخي المعاصر للنص (أقوال الصحابة) وهي أقوال مُوَثَّقَة، وتأتي أهميتها من التصاق الصحابة بالنص، وقدرتهم على تنزيل آياته على الوقائع المختلفة، فالصحابي قد يُفَسِّر النص لغويا، وتفسيره لا يرقى إليه الشك، لأنهم أهل اللسان، وقد يفسره بما شاهد من الأسباب والقرائن فلا شك فيه أيضاً ونُذَكّر في هذا الصدد بقول «ابن مسعود» الذي رواه عنه البخاري: «والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت»

الدائرة الرابعة: وهي الأخيرة، وفيها ينفتح الخطاب على متلقيه، الذي خاض الدوائر السابقة وحصَّلها، ولكنه لم يصل إلى المعنى، ولم يفهم المناسبة، فهنا يجب على المتلقي أن يجتهد، ولكن المتلقي محاط بمجموعة من الضوابط والشرائط، التي قد يُظَنَّ أن السبب فيها هو قداسة النص، ولكنها ما وضعت - في نظرنا - إلا لتفرق بين المعنى أو المعاني الممكنة والمعاني التي تنتجها الأهواء ويضيع في غياهب فوضاها النص."[86]

86محمد عبد الباسط عيد ، النص والخطاب ، قراءة في علوم القرآن ، مكتبة الآداب، ط1 القاهرة 2009، ص77

الفصـــــل الثَّاني

السياق اللغوي وأثره في توجيه الخطاب القرآني .

المبحـــث الأوّل: **سياق النص القرآني وأثره في توجيه الخطاب القرآني.**

المبحث الثّـــاني: **السياق وأثره في توجيه الإفراد والتثنية والجمع.**

المبحث الثَّـــالث: **السياق وأثره في التذكير والتأنيث .**

المبحث الرَّابـــع: **سياق النص وأثره في توجيه مرجع الضمير.**

المبحث الخامس: **السياق النحوي وأثره في توجيه الخطاب القرآني.**

المبحث السَّادس: **السياق الصوتي وأثره في توجيه الخطاب القرآني**

المبحث السَّابع:**السياق الصرفي وأثره في توجيه الصيغ الصرفية**

المبحث الثامن: **: السياق البلاغي وأثره في توجيه الخطاب القرآني.**

المبـــحث الأوّل

سياق النص القرآني وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

السياق اللغوي :

للغة نظام من الإشارات أو الرموز أو القواعد مختزن في أذهان متكلمي اللغة،وهي فاعلية إنسانية تهدف إلى توصيل الأفكار والانفعالات والرغبات بوساطة نسق معرفي من الرموز الصوتية المولّدة إرادياً أو مقصديا،والكلمة بمفردها لاتملك كياناً مستقلاً إذ لايحدد معناها بمعزل عن الأخرى ذات الصلة بها والذي يُعيِّن قيمة الكلمة هو السياق .إذ أنّ الكلمة توجد في كل مرّة تستعمل فيها، في جوّ يحدد معناها تحديداً مؤقتاً نابعاً من السياق الذي يحتويها "والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدل عليها " والسياق هو الذي يخلق للكلمة قيمة حضوريّةمتحاشياًدلالاتها الماضية. والسياق له أنماط عدّة والذي يهمنا هو(السياق اللغوي) ويقصد به"النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم بأوسع معاني هذه العبارة..[87]

إنّ السياق اللغوي هو قراءة النص وفهمه على ضوء علاقات ألفاظه بعضها ببعض،فهو" يشرف على تغيير دلالة الكلمة تبعاً لتغيير يمس التركيب اللغوي، كالتقديم والتأخير في عناصر الجملة فقولنا: 'زيد أتم قراءة الكتاب'، تختلف دلالتها اللغوية عن جملة:'قراءة الكتاب أتمها زيد'[88].وقد استعمله الشنقيطي في تفسيره جاعلا إياه أصلا كبيرا،وعمدة وركيزة قوية يحتكم إليها .

المبحث الأول :سياق النص القرآني وأثره في توجيه الخطاب القرآني

تمهيد:

أنزل الله تعالى القرآن هدى للنّاس ، وبيّنات من الهدى والفرقان ، وكما كان تبيانا لكل شيء، كان أيضا مبيّنا لنفسه، موضحا لمراميه وغاياته وقد اتفّق المفسّرون على "أنّ أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن ،فما أجمل في مكان قد فصّل في موضع آخر، وما اختصر في مكان فإنه بسط في آخر"
وبعبارة مختصرة:"القرآن يفسّر بعضه بعضا " كما يقول الزمخشري [89]وما يقوله القرآن حُمِل عليه ورُجّح القول بذلك على غيره من الأقوال"[90]
إذ إنّ :"أبين البيان بيانه، وأفضل الكلام كلامه ،وإنّ قدر فضل بيانه – جلّ ذكره – على بيان جميع خلقه كفضله على جميع عباده "[91]

87د ، سمير الخليل ، السياق اللغوي والسياق الأسلوبي ، من منشورات جريدة الصباح العراقية
88منقور عبد الجليل ،علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي ، ص 66

89الزمخشري محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. بيروت: دار المعرفة، 1391هـ،ج1 ، ص406
90محمد بن أحمد بن جزي الكلبي أبو القاسم ، التسهيل لعلوم التنزيل، المحقق: محمد سالم هاشم; الناشر: دار الكتب العلمية; سنة **النشر**: 1415 - ،ج1 ص9
91الطبري ،جامع البيان ،ج1 ص18

والقرآن الكريم جاء بلسان العرب وعلى أساليب بلاغتهم ، وما تشتمله العربية من :الإيجاز والإطناب والإجمال والتبيين والإطلاق والتقييد، والعموم والخصوص ،فما أوجز في مكان قد يبسط في آخر،وما أجمل في موضع قد يبيّن في موضع آخر ،وما جاء مطلقا في ناحية قد يلحقه التقييد في ناحية أخرى ،وما كان عامّا في آية قد يدخله التخصيص في آية أخرى،لذا لابد لمن يتعرّض لتفسير كتاب الله أن ينظر في القرآن أوّلا، ويجمع ماتكرّر منه في الموضوع الواحد،ويقابل الآيات بعضها ببعض ليستعين بما جاء مسهبا على ماجاء موجزا، وبما جاءمبيّنا على فهم ماجاء مجملا، وليحمل المطلق على المقيّد والعام على الخاص حتى يكون قد فسّر القرآن بالقرآن ،لأنّ صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه وأعرف بمراميه من غيره[92]

إنّ تفسير القرآن بالقرآن، هو أحسن طرق التفسير" [93]لذا كان لابد لمن يتعرّض لتفسير كتاب الله أن ينظر في القرائن أولا، ويقابل الآيات بعضها ببعض...مما يجعل القرآن المرجع الأول في تفسيره،لذلك كان القرآن كذلك المعيار الأول في ترجيح الآراء ونقد الآثار،فما يقوله القرآن رُجِّح القول بذلك على غيره من الأقوال"[94]

إنّ البحث الدلالي للآيات ومعرفة المراد بها ،يتوقف بشكل كبير على دراسة ظواهر الآيات وسياقها، لذا كانت عناية المفسرين بذلك فائقة ومستندهم في قبول كثير من الآراء أوردّها الرجوع إلى السياق،فالذي يوجّه الآيات إلى معانيها ودلالتها المقصودة بحسب الاستعمال هو معرفة السياق،فهو الذي يعين على المعنى خصوصا عند الإشكال،سواء الإبهام في المعنى وتردده بين الحقيقة والمجاز،لاحتمال اللفظ لأكثر من معنى،أو لعمومه وإجماله وغير ذلك ،لذا أكّد الزركشي دور السياق في هذا المجال، وأنّها "ترشد الى تبيين المجمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد،وتخصيص العام وتقييد المطلق، وتنوّع الدلالة ،وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظيره،وغالط في مناظرته،وانظر إلى قوله تعالى :**{ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ }**[الدخان:49]كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير "[95]

المطلب الأول : سياق النص وأثره في التنوع الدلالي.

المقصود بالتنّوع الدلالي ما يحمله اللفظ من عدة دلالات لا تناقض بين أفرادها، "فإن احتمل اللفظ جميع المعاني وأمكن أن تكون مرادة ،وجب حملها على جميعها ما أمكن، سواء كان احتماله لها مساويا،أوكان في بعضا أرجح من بعض، وإلا فحمله على بعضها دون بعض إلغاء للفظ بالنسبة إلى بعض محتملاته من غير

---

92 محمد حسين الذهبي،التفسير والمفسرون ، الناشر :مكتبة وهبة، الطبعة:ج1 ،ص40

93ج الزركشي، بدر الدين. البرهان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط 21. بيروت: دار المعرفة، 1391هـ ج2 ص175

94محمد بن أحمد بن جزي الكلبي أبو القاسم ، التسهيل لعلوم التنزيل، المحقق: محمد سالم هاشم; الناشر: دار الكتب العلمية ،ج1 ص 406

95الزركشي، بدر الدين. البرهان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط 21. بيروت: دار المعرفة، 1391هـ، ج2 ص201

موجب ، وهو غير جائز، ولأنّه لو جاز أن يكون مرادا،فإعمال اللفظ بالنسبة إليه أحوط من إهماله "[96]

فالتنوّع الدلالي فائدة من فوائد الأخذ بالسياق، وثمرة يانعة، يعطي للمتلقي الطمأنينة التامة في الأخذ بما يؤديه إليه اجتهاده،حيث المرونة السياقية التي تسمح للمفسر بأن يُعمل نظره في السياق ليقرب من مراد الله عزوجل، وهذا مانتعرف عليه من خلال هذه الأمثلة:

قال الله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾[ص :1]فقد نقل الشنقيطي فيها وجه يْنِ من التفسير معروف يْنِ عند العلماء. "أحدهما: أنّ الذكر بمعنى الشرف، والعرب تقول فلان مذكور يعنون لهذكر أي: شرف ، ومنه قوله تعالى : {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ} [الزخرف:44]
أي شرف لكم على أحد القولين. الوجه الثاني: أن الذكر اسم مصدر بمعنى التذكير لأن القرآن العظيم فيه التذكير والمواعظ، وهذا قول الجمهور واختاره ابن جرير."[97]إلا أنّ ابن جرير الطبريّ رجّح الوجه الثاني وجعله أولى القولين في ذلك بالصواب لأنّ الله أتبع ذلك قوله "{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}[ص: 2]" فكان معلوما لذلك أنّه أخبر عن القرآن أنّه أنزله ذكرا لعباده ذكّرهم به وأن الكفار من الإيمان به في عزة وشقاق" فجعل الشنقيطي سياق النّص الأصغر من قوله تعالى" {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}"داعما لقوله الذي ذهب إليه، كي يكون النص القرآني بنية متكاملة متناسقة، كل وحدة تؤدي إلى الأخرى،إلا أن المفسّرقد أورد التفسيرين ولم يرجّح أحدا منهما على الآخر، وتبعه في ذلك ابن سعدي في تفسيره.[98]

إنالسبب في إيراد الشنقيطي للتفسيرين جميعا،هوأن سياق النّص الكلي وسياقهالجزئي يقبلهما ،فوجه التذكير يقبله لأن القرآن تذكرة،كما جاء وصفه في آيات عديدة،ووجه الذكر بمعنى الشرف، جاء في آيات كقوله تعالى:{لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ} [الأنبياء: 10]أي شرفكم ثم إنّ" ذي "في قوله تعالى:ذي الذكر" إنما تضاف إلى الأشياء الرفيعة، فتجري على متصف مقصود التنويه به"[99]فلذلك أقسم الله بالقرآن قسم تنويه به، وقد تقرّر عند المفسرين،أن الله تبارك وتعالى لايقسم إلا بما هو عظيم وشريف.

قوله تعالى:﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾[الإسراء:13] فقد أبقى الشنقيطي دلالة لفظ "طائره" في الآية تدور

96; محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الناشر: الدار التونسية للنشر ،ج 21، ص 232
97محمد الأمين بن محمد بن المختار الجك ربي الشنقيطي،أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.. دار الفكر. سنة النشر: 1415هـ / 1995م ، ج4 ،ص95
98عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي ،المحقق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر : مؤسسة الرسالة .الطبعة : الأولى 1420هـ -2000 م، ص 709
99ابن عاشور، التحرير والتنوير، 23 ، ص108

حول معنيين، ووجهين معروفين عند المفسرين: "الوجه الأول: أن المراد بالطائر: العمل، من قولهم: طار له سهم إذا خرج له. أي ألزمناه ما طار له من عمله. فالآيات الدالة على أن عمل الإنسان لازم له كثيرة جداً. كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: 123] وقوله﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور:16].وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَاالْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً﴾[الانشقاق:6] وقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا...﴾[الشورى:46]الثاني: أن المراد بالطائر ما سبق له في علم الله من شقاوة أو سعادة.والقولان متلازمان. لأنّ ما يطير له من العمل هو سبب ما يؤول إليه من الشقاوة أو السعادة.فالآيات الدالة علي ذلك أيضاً كثيرة، كقوله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾[التغابن : 2],وقوله:﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[هود : 119], أي:للاختلاف إلىشقي وسعيد خلقهم,وقوله: ﴿ فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾[الأعراف:30]وقوله:﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[الشورى:7]"

إنّ توجيه الشنقيطي للآية متفق مع سياق النص القرآني،وتبعه على هذا ابن عطيّة[100] والرازي [101] والثعالبي [102]فرأوا أنّ دلالة لفظ "طائره "في الآية تعبّر عن الحظّ والعمل،إذهما متلازمان، وخالف في ذلك جماعة من المفسّرين، فكل قسم منهم ارتضى دلالة معيّنة، وأيّدها بدلائل وقرائن تقوّي مذهبه ،فقد نحى ابن كثير في تفسيره إلى "أنّ المراد من لفظ طائره هو ما طارعنه من عمله، وجعل حجّته فيما اعتمده آيات تؤيّد هذا المعنى وتقوّيه كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾[الزلزلة: 7-8]وقوله تعالى:﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَاماً كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[الانفطار: 10-11-12]ثم قال أيضا :ولهذا قال تعالى:﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[الإسراء:14] أي إنّك تعلم أنّك لم تُظلم ولم يُكتب عليك غير ما علمت لأنك ذكرت جميع ما كان منك ولا ينسى أحد شيئا مما كان منه وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي "[103]

100ابن عطية، عبد الحق بن غالب. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ط 1.الدوحة ، 1409هـ.، ج2، ص407

101الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، التفسير الكبير. ط 1. دار الكتب العلمية، 1411هـ ، ج4 ، ص 491

102 عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد الثعالبي المكي الجواهر الحسان في تفسير القرآن المحقق: علي معوض- عادل عبد الموجود الناشر: دار إحياء التراث العربي سنة النشر: 1418 - 1997، ج1 ، ص 287

103 ابن كثير ،تفسير القرآن العظيم ، ط.2. المحقق: سامي بن محمد السلامة; الناشر: دار طيبة; سنة النشر: 1420 – 1999،، ج5 ، ص 51

فقد جعل ابن كثير لحاق الآية،قرينة قوية، استند عليها في رأيه، إلا أنه بالمقابل مال إمام المفسرين الطبري إلى الوجه الثاني فقال : وكلّ إنسان منكم يا معشر بني آدم، ألزمناه نحسه وسعده، وشقاءه وسعادته، بما سبق له في علمنا أنه صائر إليه، "[104]فتلك الأشياء المقدورة كأنها تطير إليه وتصير إليه، فبهذا المعنى لا يبعد أن يعبر عن تلك الأحوال المقدرة بلفظ الطائر.

فقوله:﴿ وَكُلَّ إنسان ألزمناه طائره في عُنُقِهِ ﴾ كناية عن أن كل ما قدّره الله تعالى ومضى في علمه حصوله ، فهو لازم له واصل إليه غير منحرف عنه"[105]

قولهتعالى:﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[الأنبياء:105].أشار الإمام القرطبي إلى بيان دلالة "الأرض"، وأن أحسن ما قيل فيها" أنه يراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير؛ لأنّ الأرض في الدنيا قال قد يرثها الصالحون وغيرهم. وهو قول ابن عباس ومجاه د وغيرهما. وقال مجاهد وأبو العالية: ودليل

هذا التأويل قوله تعالى:﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ [الزمر:74]"[106]

أرض الجنة ، وإنّها الأرض التي يختص بها الصالحون .لأنّها لهم خلقت ، وغيرهم إذا حصلوا فيها فعلى وجه التبع،وأن الآية ذكرت عقب ذكر الإعادة وليس بعدها أرض يستقر عليها الصالحون . ويمتن الله بها عليهم سوى أرض الجنة .[107]

أمّا الشنقيطي فساق القولين جميعا تاركا دلالة لفظ "الأرض" في الآية محتملا للدلالتين، لأنّ السياق الكلي لكلام الله جلّ وعلا يقبلهما فقد ذكرأن "الأرض في قوله هنا ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾للعلماء وجهان فيها:الأول ـ أنّها أرض الجنة يورثها الله يوم القيامة عباده الصالحين. وهذا القول يدل له قوله تعالى ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[غافر:74].الثاني ـ أن المراد بالأرض:أرض العدو يورثها الله المؤمنين في الدنيا: ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾[الأحزاب:27]،وقوله:﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾[الأعراف:137]،وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[الأعراف:128]وقولهتعالى﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا

---

104 أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جام ع البيان عن تأويل آي القرآن ، دار الفكر بيروت – لبنان 1995م ، تحقيق صدقي العطار . 17، ص 400

105الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب. ط 1. د.م: دار الكتب العلمية، 1411هـ ج10 ، ص 13

106القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ج11 ، ص 349

107محمد سيد طنطاوي ، تفسير الوسيط ، ج3 ، ص 292

الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾[النور:55]، وقوله تعالى : ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ *وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾[إبراهيم:13] إلى غير ذلك من الآيات"108

وقد استظهر القول الثاني الإمام الشوكاني فقال "والظاهر أن هذا تبشير لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بوراثة أرض الكافرين ، وعليه أكثر المفسرين" .[109]

ويبدو أنه لا مانع من أن يكون المراد بالأرض التي يرثها العباد الصالحون ، ما يشمل أرض الجنة وأرض الدنيا ،لأنه لم يرد نص يخصّص أحد المعنيين.

وإن جئنا إلى دلالة الظن في قوله:﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾[الأنبياء:87]فالعلماء قد اختلفوا في معنى الآية على قولين :الأول: أنّه وقع في ظنّه أن الله تعالى لا يقدر على معاقبته.قال الشوكاني :" وهو قول مردود ،فإن هذا الظن بالله كفر ، ومثل هذا لا يقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام" [110]والثاني : فظنّ أن لن نضيّق عليه كقوله: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾[الرعد:26]أي: يضيّق .وعلى هذا القول جمهور العلماء واختاره ابن جرير[111].

أما الشنقيطي فقد أعرض عن التوجيه الذي وصمه المفسرون بأنه مردود وباطل،لأنه ليس لم مستند من كلام الله تعالى ، إذ السياق القرآني لم يشهد له ، لأجل هذا أشار إلى وجهين من التفسير لا يكذّب أحدهما الآخر كلاهما دل عليه النص القرآني :الأول: أنّ المعنى ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾أي لن نضيّق عليه في بطن الحوت. ومن إطلاق "قدر" بمعنى "ضيّق" في القرآن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾[إبراهيم:26] أي ويضيّق الرزق على من يشاء، وقوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾[الطلاق:7] .فقوله: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾أي ومن ضيّق عليه رزقه.الوجه الثاني: أن معنى{لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ} لن نقضي عليه ذلك. وعليه فهو من القدر والقضاء. "وقدر" بالتخفيف تأتي بمعنى"قدّر" المضعفة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾[القمر:12]أي قدره الله"[112]".وإلى الوجه الثاني مال "الفرّاء" وارتضى أن تكون دلالته:فظن أن لن نقدّر عليه من العقوبة ما قدّرناه"[113]

والمتأمّل في النص القرآني يرى أن كلا الدلالتين يسوّغهما السياق القرآني .بل إن مجيء كل منهما في سياق معيّن أوجب هذا التعدد المعنوي وثراء اللفظ من جهة الدلالة .

108أضواء البيان ،ج4، ص249-250
109 الشوكاني ، فتح القدير ،ج5 ، ص86
110الشوكاني ، فتح القدير ، ج5 ، ص73
111الطبري ،جامع البيان ج 9، ص 222
112أضواء البيان، ج4 ص240
113أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة ، ج3 ، ص 108

ولـــفظ " المقام "كـــذلك مما اختلف في دلالته فـــــفي **قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن:46]**,فقد نقل الشنقيطي في إيضاحها وجهين معروفين عند العلماء، كلاهما يشهد له قرآن:أحدهما:أن المراد بقوله:{مَقَامَ رَبِّهِ} ,أي قيامه بين يدي ربه، فالمقام اسم مصدر بمعنى القيام، وفاعله على هذا الوجه هو العبد الخائف، وإنما أضيف إلى الرب لوقوعه بين يديه، وهذا الوجه يشهد له قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى, فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَالْمَأْوَى ﴾[النازعات:40]،فإن قوله:﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾[النازعات:40],قرينة دالة على أنه خاف عاقبة الذنب حين يقوم بين يدي ربه، فنهى نفسه عن هواها.والوجه الثاني: أن فاعل المصدر الميمي الذي هو المقام، هوالله تعالى أي: خاف هذا العبد قيام الله عليه ومراقبته لأعماله وإحصائها عليه، ويدلّ لهذا الوجه الآيات الدالة على قيام الله على جميع خلقه وإحصائه عليهم أعمالهم كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[البقرة:255]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[الرعد:33]، وقوله تعالى: ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[يونس:61],إلى غير ذلك من الآيات.وممّا جاء في الذكر الحكيم مؤيّدا أنّ المقام يستعمل مصدرا ميميّا قوله تعالى: حاكيا عن نوح عليه السلام قوله ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾[يونس:71]" فمقامي هو مصدر ميمي مرادف للقيام [114] وذهب بعض المفسّرين، إلى أنّ "المقام "مقحمة، كما تقول:أخاف جانب فلان، وفعلت هذا لمكانك، وأنشد:

دَعَرْتُ بِهِ الْقَطَا وَنَفَيْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذِئْبِ كَالرَجُلِ اللَّعِينِ[115]

وقد تبع الزمخشري في توجيهه الذي يفضي أن" مقام " مقحمة على سبيل الكناية،الإمام الألوسي وجعله هو الأظهر " [116]،وممّا يبعد هذا القول ويجعله متروكا مهجورا، أنه جعل لفظ المقام زائدا من غير أن يكون له إضافة معنى، أو مزيد دلالة ،وهذا مما ينزّه عنه كلام الله سبحانه وتعالى ، ومع هذا كله فالسياق القرآني قد تكرر ذكر "المقام"فيه في عدة آيات، مما يجعلها متلاحمة متناسقة ،مؤديّة لدلالات متنوّعة، توصف بالثراء الدلالي.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾[الكهف:46] أشار الشنقيطي إلى أن "قوله:{أَنيَفْقَهُوهُ} ،فيه وفي كل ما يشابهه من الألفاظ وجه ان معروفان لعلماء التفسير: أحدهما: أنّ المعنى جعلنا على قلوبهم

114الطاهر بن عاشور ،التحرير والتنوير، ج11 ، ص 139
115الزمخشري ، الكشاف ، ج6 ، ص 473
116الألوسي ،روح المعاني ج20، ص 161

أكنّة لئلا يفقهوه. وعليه فلا النافية محذوفة دلّ المقام عليها. وعلى هذا القول هنا اقتصر ابن جرير الطبري. والثاني: أنّ المعنى جعلنا على قلوبهم أكنّة كراهة أن يفقهوه، وعلى هذا فالكلام على تقدير مضاف، وأمثال هذه الآية في القرآن كثيرة. وللعلماء في كلّها الوجهان المذكوران كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أن تَضِلُّوا﴾[النساء:176]، أي: لئلا تضلوا، أو كراهة أن تضلوا. وقوله: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ ﴾[الحجرات:6]. أي لئلا تصيبوا،أوكراهة أن تصيبوا، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن العظيم."[117]

وقد نصر القول الثاني أبو البقاء العكبري في ثلاث مواضع من كتابه "إعراب غريب القرآن" [118] ورجّحه ابن جزيّ في تفسيره، [119]والإمام الألوسي [120] والبغوي [121]وأبوحيّان[122]كلهم رجحوا أن الكلام على تقدير مضاف.

إن تعدد الدلالة نتج عنه تعدد في توجيه الآية من الجهة الإعرابيّة فقوله تعالى:﴿ أن يَفْقَهُوهُ ﴾ مفعول له بتقدير مضاف أي: كراهة أن يقفوا على كنهه ويعرفوا أنّه منعند الله تعالىأو مفعول به لفعل مقدّر مفهوم من الجملة[123]

قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾[المؤمنون: 4]اختلف المفسّرون في المراد من"الزكاة "في هذه الآية فذهب جمع منهم إلى أنّها زكاة الأموال،وارتضى هذا القول ابن جرير الطبري،وعزاه ابن كثير للأكثرين فقالوا:"المراد بها هاهنا الحق الواجب في الأموال خاصة لأنّ هذه اللفظة قد اختصّت بهذا المعنى " [124]قالوا: لأن أصل الزكاة فرض بمكة قبل الهجرة ،وما فرض بعد ذلك فى السنة الثانية من الهجرة هو مقاديرها ، ومصارفها ، وتفاصيل أحكامها [125]فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبًا بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعا م، وهي مكية: ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾[الأنعام: 141] .[126]

ومال فريق آخر إلى أنّ المقصود منها زكاة النفس وتطهيرها من الذنوب والآثام لأنّ اللفظ يحتمل أن يريد بالزكاة الفضائل ، كأنه أراد الأزكى من كل فعل.[127]ووجه ذلك أن سورة " المؤمنون " مكية ، ولم تفرض الزكاة إلا في المدينة .

117أضواء البيان ، ج3، ص313
118أبو البقاء العكبري ، التبيان في إعراب غريب القرآن ، ج2 ، ص 853
119ابن جزي ، التسهيل لعلوم التنزيل ، ج 1 ، ص 410
120الألوسي ، روح المعاني ج5 ، ص322
121 البغوي ، معالم التنزيل ، ج5 ، ص 97
122البحر المحيط ، ج5 ، ص 108
123الألوسي ،روح المعاني ، ج 10 ، ص 474
124 عمر بن علي بن عادل الحنبلي ، اللباب في علوم الكتاب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى 1998م ، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض.ج11، ص 469
125الوسيط ، ج1 ، ص 299
126ابن كثير ،تفسير القرآن العظيم، ج5 ، ص 462
127الثعالبي ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج3 ، ص 62

وقد نقل الشنقيطي الوجهين جميعا: واستشهد للوجه الثاني بشواهد من كلام الله تعالى وهي قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾[الأعلى:14]وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدا ﴾[النور:21] وقوله تعالى ﴿خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾[الكهف:81] [128]قال ابن كثير رحمه الله :ويحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا،وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنّه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذى يتعاطى هذا وهذا ".

قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾[الفرقان : 55] نقل الشنقيطي وجه ين في قوله تعالى : "وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا" أحدهما:عونا، مأخوذ من المظاهرة ؛ والمظاهرة"المعاونة، مشتقة من الظهر؛ لأنّ بعضهم يقوّي بعضاً ، فيكون له كالظهر، ومنه قول الشاعر :

تظاهرتُم من كل أوْب وَوِجْهَة على واحد لا زلْتُمْ قِرنَ واحدِ"[129]

فيكون المعنى:" وكان الكافر معينًا للشيطان، وحزبه من الكفرة على عداوة اللّه ورسله، فالكافر من حزب الشيطان يقاتل في سبيله أولياء اللّه، الذين يقاتلون في سبيل اللّه، فالكافر يعين الشيطان وحزبه في سعيهم؛ لأن تكون كلمة اللّه ليست هي العليا،"[130] وإلى هذا مال ابن جرير الطبري"[131]

وتبعه في ذلك جماعة من المفسرين منهم الشنقيطي وأيّد توجيهه بسياق النص القرآني بآيات من كتاب اللّه؛ كقوله تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ}[النساء: 76]،ومعلوم أنّ الذي يقاتل في سبيل الطاغوت، المقاتلين في سبيل اللّه، أنّه على ربّه ظهير.وقوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ*لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ}[يسن: 74] ، على قول من قال: إن الجند المحضرون هم الكفار، يقاتلون عن آلهتهم ويدافعون عنها، ومن قاتل عن الأصنام مدافعًا عن عبادتها، فهو على ربّه ظهير"[132] ،وأما الوجه الثاني : فهو أن قوله "ظهيرا" بمعنى هين وقال أبو عبيدة :المعنى: وكان الكافر على ربه هيناً ذليلاً ، من قول العرب ظهرت به أي : جعلته خلف ظهرك لم تلتفت إليه ، ومنه قوله :{ واتخذتموه وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً }[هود : 92] أي : هيناً ،ومنه أيضاً قول الفرزدق :

تميم بن بدر لا تكوننّ حاجتي بظهر فلا يعيا عليّ جوابها"[133]

وقـد أشار الطبري إلى هذا القول موجّها إيّاه بقوله : وقـد كان بعضهم يوجّه معنى قوله:(وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا)أي وكان الكافر على ربه هيّنا، من قول

128أضواء البيان ، ج5 ، ص 307

129 محمد بن علي الشوكاني ، فتح القدير ، دار ابن كثير – دمشق ، بيروت الطبعة الثانية 1998 م ،ج1 ،ص 134

130أضواء البيان، ج6، ص68

131الطبري ،جامع البيان ، ج 19 ، ص 285

132أضواء البيان ،ج6، ص69

133الشوكاني ، فتح القدير،ج5 ، ص 287

العرب: ظهرت به، فلم ألتفت إليه، إذا جعله خلف ظهره فلم يلتفت إليه، وكأنّ الظهير كان عنده فعيل صرف من مفعول إليه من مظهور به، كأنه قيل: وكان الكافر مظهورا به. " [134]ثم رجع ابن جرير إلى بيان وجاهة القول الأوّل الذي أخذ به فقال:والقول الذي قلناه هو وجه الكلام، والمعنى الصحيح، لأن الله تعالى ذكره، أخبر عن عبادة هؤلاء الكفار من دونه، فأولى الكلام أن يُتبَع ذلك ذمه إياهم، وذمّ فعلهم دون الخبر عن هوانهم على ربهم، ولم يجر لاستكبارهم عليه ذكر، فيُتبَع بالخبر عن هوانهم عليه."[135]

لقد ساق الشنقيطي الوجهين جميعا، ولم يرجّح دلالة أي واحد منهما على الآخر لأن السياق القرآني بنوعيه ؛ الجزئي والكلي يقتضيهما، ويقبلهما بكليّتهما، فلذلك أوردهما.ثم إنه متى كان اللفظ قابلا لحمل معان مؤتلفة مع بعضها فالأولى أن يكون كلام الله تعالى على هذه الصفة لأن كلام الله حق؛ منطوقه ومفهومه.

المطلب الثاني: سياق النّص وأثره في الترجيح الدلالي .

يعدّ الترجيح الدلالي من أهمّ فوائد الأخذ بالسياق القرآني، إذ به يستطيع المفسّر الاستدلال على الوجه الذي يذهب إليه ، وقد كان لدلالة السياق دور كبير عند المفسرين،بل إنّ بعضهم رجّح جميع الأقوال التي أثبتها في كتابه بناء على دلالة اللغة والسياق ، كما وضع ابن قتيبة في كتابه " تفسير غريب القرآن" فقال: وكتابنا هذا مستنبط من كتب المفسرين، وكتب أصحاب اللغة العالمين لم تخرج فيه عن مذاهبهم، ولا تكلّفنا في شيء منه بآرائنا غير معانيهم ،بعد اختيارنا في الحرف أولى الأقاويل في اللغة، وأشبهها بقصة الآية،"[136]

والترجيح الدلالي على ضوء السياق قرينة قويّة ، لكنّها لا تخرج عن كونها ظنيّة احتماليّة، وبالتالي لا يجزم بأنّ الرأي الذي يرجّحه السياق هو المراد دون غيره وإنّما هو الراجح رجوحا ظنيّا لدلالة السياق، مالم يرد ما يصرف وجه رجحانه"[137]

فالإمام الشنقيطي التزم السياق في الترجيح الدلالي بشكل واضح وعلى مدار تفسيره، فقد ربط المعاني السياقية بالقريب دون البعيد، فهو يقدم المعنى القريب على البعيد، ويرفض كذلك قطع بعض السياق عن بعضه الآخر، وهو في ذلك يبني لبنة متينة في بناء جدارية تكامل السياق القرآني ،ورفض تقطيعه وأنه كلٌّ متكامل، لا يصح فصل أوّله عن آخره." [138]

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ... ﴾[الإسراء:4] اختلف العلماء في معنى "قضينا " فذهب جماعة من المفسرين إلى أنّ "قضينا" بمعنى حكمنا في

134الطبري ،جامع البيان ، ج19 ، ص287

135المرجع السابق، ج19 ، ص 286

136ابن قتيبة ، غريب القرآن ، ج 1، ص88

137المثنيعبد الفتاح محمود ،الرسالة:السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي ، جامعة اليرموك،2005،ص181

138نفس المرجع، ص ، 182

الكتاب أي اللوح المحفوظ ، وقد صدّر به الإمام القاسمي تفسيره لهذه الآية قال:"قال السمين : في تعدية (قضينا) بـ (إلى) تضمينه معنى أنفذنا. أي : أنفذنا إليهم بالقضاء المحتوم ."[139]

أمّا الشنقيطي فقد اختار دلالة القضاء في الآية على الإخبار والإعلام فقال." أظهر الأقوال فيه: أنه بمعنى أخبرناهم وأعلمناهم. ومن معاني القضاء: الإخبار والإعلام. ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى:{وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ}[الحجر: 66]والظّاهر أن تعديته بـ «إلى» لأنّه مضمّن معنى الإيحاء. وقيل: مضمّن معنى: تقدّمنا إليهم فأخبرناهم. قال معناه ابن كثير." [140] وتبعه الفراء، وجعله بمعنى أعلمناهم"[141]

إنّ للفظ القضاء في القرآن محامل يحمل عليها فهو من الألفاظ التي تتعدد دلالتها تبعا للسياق الذي توجد فيه ،ثم إن لها من الآيات ما جاء على مثالها فيقتضي أن ينحو نحوها .

قوله تعالى:﴿فاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾[مريم:17]ذكر المفسّرون في معنى"الروح"قولين:"أحدهما الروح التي خلق منها المسيح حتى تمثّل لها بشراً سوياً .الثاني : أنّه جبريل ، قاله الحسن وقتادة ، والسدي ، وابن جريج ، وابن منبّه ."[142]

وهذا القول الثاني هو الذي استظهره الشنقيطي وأيّده ؛ فهو قد استنبط دلالة لفظ "روحنا " من سياق النص الكلي فقال:"أظهر الأقوال أن المراد بقوله: {روحنا} جبريل. ويدل لذلك قوله: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ...}الآية[الشعراء: 84]، وقوله: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ...} الآية[النحل: 102]، وإضافته إلى الله إضافة تشريف وتكريم."[143]

ومارجّحه الشنقيطي من كون " الروح " جبريل هو الأظهر ؛ لقوله: {فَتَمَثَّلَ لَهَا} أي تمثل الملك لها" [144] فظهر بذلك أن هذا الترجيح هو الأوفق لموافقته للسياق القرآني .

قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾[مريم :78]إنّ القرآن الكريم وحدة متكاملة، يفسِّر بعضه بعضا ،وإن خير ما يفسَّر به القرآن هو القرآن، فكان العهد في هذه الآية مرادا به عند الشنقيطي"أم أعطاه الله عهدا أنّه سيفعل له ذلك،بدليل قوله تعالى :{قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ}[

139القاسمي ،محاسن التأويل، ج4 ، ص 120

140أضواء البيان، ج3 ،ص14

141 الإمام أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ،معاني القرآن، الناشر : دار عالم الكتب الطبعة : الثالثة سنة 1403 هـ - 1983م.،ج3 ،ص 63

142 علي بن محمد الماوردي ، النكت والعيون ، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبدالرحيم ، دار الكتب العلمية ومؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت – لبنان. ج3 ،ص 14

143أضواء البيان، ج3 ،ص386

144القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج11 ، ص 91

البقرة:80]"[145] مع أنّ دلالة "العهد" تحتمل معان أخرى ذكرها المفسِّرون؛ فمنهم من أشار" إلى أنّه قول لا إله إلا الله وهو قول ابن عباس، وآخر أشار إلى أنّه العمل الصالح،وهو قول قتادة "[146]

وهذان المعنيان تستلزمهما الدلالة المعجميّة " فإنّ وعد الله بالثواب على الشهادة والعمل كالعهد عليه سبحانه وتعالى " [147] وهذا ما ارتضاه ابن سعدي في تفسيره فقال :" وإما أن يكون متخذا عهدا عند الله، بالإيمان به واتباع رسله، الذين عهد الله لأهله، وأوزع أنّهم أهل الآخرة والناجون الفائزون"[148]

لكن الإمام الشنقيطي وقف مع سياق النص الكلي ،فجعل دلالة كلمة "عهد" متفقة في الموضعين .وقابلة لأن تدل على المعنيين كليهما .

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾[الزمر: 84]مال الشنقيطي إلى أنّ"أظهر الأقوال في الآية الكريمة، أن المراد بالقول، ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، من وحي الكتاب والسنة، ومن إطلاق القول على القرآن قوله تعالى:{أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ}[الأنبياء: 18].وقوله تعالى:{إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ}[الطارق:13-14] . ثم أشار إلى أنّ قوله تعالى: فيتبّعون أحسنه " له في القرآن الكريم آيات ونظائر وشواهد تدلل " على أنّ القول الأحسن المتبع. ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم من الوحي، فهو في آيات من كتاب الله كقوله تعالى:{وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}[غافر: 55]وقوله تعالى لموسى يأمره بالأخذ بأحسن مافي التورا ة:{فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا}[الأعراف:145] ."[149]

ومال طائفة من المفسرين "إلى أنّهم لم يأتهم كتاب من الله ولكنّهم يستمعون أقاويل الأمم"فالألف واللام في القول للعموم، فيقتضي أنّ لهم حسن الاستماع في كل قول من القرآن وغيره ولهم أن يتبعوا أحسن معنى يحتمل كلّ قول اتباع درايته والعمل به ، وأحسن كل قول ما كان من الله ، أو يهدي إلى الله ، "[150] ومن حجج هؤلاء" أن الله لما أخبر أنّ لهم البشرى أمر ببشارتهم ، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة فقال:{فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}وهذا جنس يشمل كل قول فهم يستمعون جنس القول ليميّزوا بين ما ينبغي إيثاره مما ينبغي اجتنابه فلهذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه وأحسنه على الإطلاق كلام الله

145أضواء البيان، ج3 ،ص507

146 عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، زاد المسير دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى 1994م ، تحقيق أحمد شمس الدين، ج4 ، ص 290

147 عبدالله بن عمر البيضاوي ،أنوار التنزيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت - الطبعة الأولى 1999م. ، ج 4، ص 80

148ابن سعدي ، تيسير الكريم الرحمن، ص 499

149أضواء البيان ،ج6، ص356

150إسماعيل حقي خلوتي ، روح البيان ، ج8 ، ص 67

وكلام رسوله، كما قال في هذه السورة{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً} [الزمر:23]"[151]

لقد اختار الإمام الشنقيطي في تأويله لهذه الكلمة، فردا من أفراد القول؛ وهوما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، من وحي الكتاب والسنة،محتكما في ذلك إلى النّص القرآني، معتبرا إياه بنية واحدة، فكان سياق النص الكلي والجزئي وسيلة من وسائل الترجيح عنده.فهو مبيّن للمجملات، مرجّح لبعض المحتملات، ومؤكّد للواضحات .

قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾[النحل : 2] لقد تعدّدت أقوال المفسرين في بيان "الروح" والمقصود منها في هذه الآية الكريمة، فقد ذكر أصحاب التفسير أنّ فيها ستة أقوال :أحدها أنّه الوحي رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس والثاني أنه النبوة رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث:أن المعنى تنزل الملائكة بأمره، رواه العوفي عن ابن عباس.فعلى هذا يكون المعنى أنّ أمر الله كله روح قال الزجاج :الروح ما كان فيه من أمر الله حياة النفوس بالإرشاد والرابع: أنّه الرحمة قاله الحسن وقتادة والخامس أرواح الخلق ،لا ينزل ملك إلا ومعه روح، قاله مجاهد والسادس أنّه القرآن ،قاله ابن زيد." [152] فعلى هذا سمّاه روحا لأنّ الدين يحيا به، كما أنّ الروح تحيي البدن،إلا أنّ الإمام الشنقيطي أظهر الأقوال عنده في معنى الروح، في هذه الآية الكريمة "أنّ المراد بها الوحي؛ لأنّ الوحي به حياة الأرواح، كما أنّ الغذاء به حياة الأجسام.ويدل لهذا قوله تعالى:{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْأِيمَانُ}[الزخرف: 52] وقوله:{رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[غافر: 15] ومّما يدل على أنّ المراد بالروح الوحي، إتيانه بعد قوله: {يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ}،بقوله:{أَنْ أَنْذِرُوا} ؛لأن الإنذار إنما يكون بالوحي، بدليل قوله: {قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ}الآية، وكذلك إتيانه بعد قوله:{يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}، بقوله:{لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاق...}الآية؛.لأنّ الإنذار إنما يكون بالوحي أيضاً". [153] "

ثم إنّ إطلاق الروح على الوحي هو " على وجه الاستعارة لأنّ الوحي به هدي للعقول الحق، فشبّه الوحي بالروح كما يشبه العلم الحق بالحياة،وكما يشبه الجهل بالموت قال تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ}[سورة الأنعام: 122].ووجه تشبيه الوحي بالروح أنّ الوحي إذا وعته العقول حلّت بها الحياة المعنوية وهو العلم كما أنّ الروح إذا حلّ في الجسم حلّت به الحياة الحسية، قال تعالى:{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا}[سورة الشورى:52]."[154]

151ابن سعدي ، تيسير الكريم الرحمن ،ص 721

152 ابن الجوزي ، زاد المسير،ج4 ، ص80

153أضواء البيان ،ج2 ص328

154الطاهر بن عاشور ،التحرير والتنوير، ج13 ، ص 749

لقد خضع النّص القرآني عند الشنقيطي إلى القرائن المقالية داخل النّص القرآني، فللقول الذي تؤيّده قرائن السياق مرجّح على ما خالفه .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[التوبة: 84] تنوّعت آراء المفسرين في بيان دلالة الآية في أيّ قوم نزلت فقيل "أنّ المراد به أولئك الأحبار والرهبان ، لأن الكلام مسوق في ذمّهم ،وتكون هذه الجملة ذمّا لهم على رذيلة ثالثة هي الحرص والبخل ،بعد ذمهم على رذيلتي أكل أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله . ويرى آخرون أن المراد بهم البخلاء من المسلمين ، وأن الجملة مستأنفة لذم ما نعى الزكاة بقرينة قوله:{وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله}ويكون نظمهم مع أهل السوء من الأحبار والرهبان من باب التحذير والوعيد والإشارة إلى أن الأشحاء المانعين لحقوق الله ، مصيرهم كمصير الأحبار والرهبان في استحقاق البشارة بالعذاب ". [155] ثم اختلفوا في المراد بهذا الكنز المذموم فقال الأكثرون :هو المال الذي لم تؤد زكاته ، والقول الثاني : أن المال الكثير إذا جمع فهو الكنز المذموم ،سواء أديت زكاته أو لم تؤد.

وقد رجّح الشنقيطي القول الأول فقال أنّ "أظهر الأقوال وأقربها للصواب في معنى:{يَكْنِزُونَ} ،في هذه الآية الكريمة، أنّ المراد بكنزهم الذهب والفضة وعدم إنفاقهم لها في سبيل الله، أنهّم لا يؤدون زكاتهما. وممن روى عنه هذا القول عكرمة، والسدي، ولا شك أنّ هذا القول أصوب الأقوال؛ لأنّ من أدى الحق الواجب في المال الذي هو الزكاة لا يُكوى بالباقي إذا أمسكه؛ لأنّ الزكاة تطهره كما قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا}[التوبة: 103] ؛ ولأن المواريث ما جعلت إلا في أموال تبقى بعد مالكيها."[156]

فتكون هذه الدلالة هي المرجّحة حتي تلتئم بذلك وحدة النص القرآني في هذه السورة .

المطلب الثالث :سياق المقطع وأثره في الترجيح بين أقوال المفسرين.

إنّ سياق كل آية بذاتها، أو مجموعة آيات نزلت معا، يجمعها تسلسل الكلمات وترابط المعاني ووحدة القصد، بما يعرف باسم مقاطع الآيات من كل سورة وهذا من أقوى السياق المساعد على فهم معاني القرآن ،فمجموعة آيات نزلت جملة واحدة بشأن مناسبة خاصة، أو في حادث معيّن، يصلح بعضها دليلا على فهم البعض، وهو ما يعرف بالقرينة المتصلة بالكلام .فالسياق يلحظ تارة إلى القرآن كلّه، وأخرى بلحاظ كلّ سورة باعتبار الوحدة موضوعية فيها ،وثالثة سياق جملة من آيات نزلت معا، أو آية نزلت لوحدها أوتقوم بالمعنى بذاتها،فكل هذه السياقات تصلح قرينة على فهم المراد" [157]

155محمد سيد طنطاوي ، تفسير الوسيط ، ج4 ، ص 133

156أضواء البيان ،ج2 ،ص 116

157د إحسان الأمين ، منهج النقد في التفسير ط 1، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ،ص335

فتقتضي مراعاة السياق مراعاة سياق الآية في موقعها من السورة ، وسياق الجملة في موقعها من الآية ، فيجب أن تربط الآية بالسياق الذي وردت فيه ، ولا تقطع عمّا قبلها وما بعدها ، ثم تجرّ جرّا لتفيد معنى أو تؤيّد حكما يقصده قاصد [158]

فالمعنى المراد لايتحدد إذن إلا من خلال السياق ، "فبه يمكن دراسة الكلمة داخل التركيب أو التشكيل الذي ترد فيه ، إذ لا يظهر معنى الكلمة الحقيقي ، أو لا تتحدد إلا من خلال السياق بضروبه المختلفة"[159] .

وقد تناول الشنقيطي هذا النوع من السياق في تفسيره، وأكثر من الاحتكام إليه،نقتصر على بعض الأمثلة التي استخدم فيها سياق المقطع ،آلية من آليات تحليل الخطاب القرآني.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾[المائدة: 44] ذهب جمع من المفسرين إلى أنّ قوله تعالى:{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} نزلت في مَنْ غيرَّ حكم الله من اليهود، وليس في أهل الإسلام منها ومن اللتين بعدها شيءٌ."[160]

أمّا الشنقيطي فقد ذهب إلى تأويل هذا المقطع بما يتناسب مع سياق الآيات،فقد استظهر نزولها في المسلمين فقال: "الظاهر المتبادر من سياق الآيات أنّ آية:{فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}، نازلة في المسلمين، لأنّه تعالى قال قبلها مخاطباً لمسلمي هذه الأمة{فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً}، ثم قال:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}،فالخطاب للمسلمين كما هو ظاهر متبادر من سياق الآية"[161]

لقد أدرك الشنقيطي أن هناك قرائن ومؤشّرات قد يحتف الخطاب بها تسبقه أو تلحقه إذا كانت من داخل الخطاب، منها مصطلح "القرينة السياقيَّة" الذي يشير إلى بعض القرائن التي قد تحف بالنص بحيث تساعد على بيان مجمل أو تقييد مطلق، أو كشف مبهم أو ترجيح معنى على آخر.

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾[الكهف:54] ذهب جمع من المفسرين إلى أنّ "الإنسان" في قوله تعالى:{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القرآن لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيءٍ جَدَلاً }أنّ{الإنسان} هنا يراد به الجنْس، وقد استعمل صلى الله عليه وسلم الآية على العموم في مروره بِعَلِيٍّ لَيْلاً، وأمْره له بالصلاة بالليل، فقال عليٌّ : إنما أنفُسُنَا يا رَسُولَ اللَّهِ بِيَدِ اللَّهِ، أوكما قال، فخرج صلى الله عليه وسلم، وهو يضربُ فَخِذَه بيده،ويقول:{وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيءٍ جَدَلاً}" [162]
وقال بعضهم بل المراد بالإنسان في الآية هو الكافر، "فالآية دالة على أنّ الأنبياء

158عبد الرحمن بودرع ، منهج السياق في فهم النص ،ص 24
159، نور الهدى لوشن ،علم الدلالة: 95 .
160 ،أضواء البيان ، ج1 ،ص 159
161أضواء البيان، ج1، ص407
162الثعالبي ،الجواهر الحسان ، ج2 ، ص 428

عليهم الصلاة والسلام جادلوهم في الدين لأنّ المجادلة لا تحصل إلا من الطرفين ولهذا قيل:أراد بالإنسان الكافر"وهذا القول الثاني رجّحه الشنقيطي فقال :"ما فسّرنا به قوله تعالى:{وَكَانَ الْأِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً}، من أن معناه كثرة خصومة الكفار ومماراتهم بالباطل ليدحضوا به الحق هو السياق الذي نزلت فيه الآية الكريمة، لأنّ قوله:{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} [الكهف: 84] أي ليذكروا ويتعظوا وينيبوا إلى ربهم:بدليل قوله {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا} [الإسراء:41] وقوله:{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: 21]، فلما أتبع ذلك بقوله:{وَكَانَ الْأِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً}[الإسراء:54]، علمنا من سياق الآية أنّ الكفار أكثروا الجدل والخصومة والمراء لإدحاض الحق الذي أوضحه الله بما ضربه في هذا القرآن من كل مثل. ولكن كون هذا هو ظاهر القرآن وسبب النزول لا ينافي تفسير الآية الكريمة بظاهر عمومها. لأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.[163]"

إن السياق القرآني في هذه الآية يُعبر عن"روح الآيةوظاهرها، وهوقرينة من القرائنالمؤثرة في معنى الخطاب مما له علاقة بالخطاب ذاته .

قوله تعالى : ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ, وقليل مِنَ الْآخِرِينَ ﴾[الواقعة:39-40]"قد اختلف أهل العلم في المراد بهذه الثلة من الأولين، وهذا القليل من الآخرين المذكورين هنا، كما اختلفوا في الثلتين المذكورتين في قوله:{ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ, وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ}, فقال بعض أهل العلم: كل هؤلاء المذكورين من هذه الأمة، وأن المراد بالأولين منهم الصحابة.وبعض العلماء يذكر معهم القرون المشهود لهم بالخير في قوله صلى الله عليه وسلم: "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم" الحديث, والذين قالوا: هم كلهم من هذه الأمة، قالوا: إنما المراد بالقليل،{وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ}، وهم من بعد ذلك إلى قيام الساعة.وقال بعض العلماء: المراد بالأولين في الموضعين الأمم الماضية قبل هذه الأمة، فالمراد بالآخرين فيهما هو هذه الأمة."[164]

لكنّ الشنقيطي جعل "ظاهر القرآن في هذا المقام: أنّ الأولين في الموضعين من الأمم الماضية، والآخرين فيهما من هذه الأمة، وأن قوله تعالى:{ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ} في السابقين خاصة، وأن قوله:{ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ}في أصحاب اليمين خاصة.وإنما قلنا: إن هذا هو ظاهر القرآن في الأمور الثلاثة، التي هي شمول الآيات لجميع الأمم، وكون{قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ} في خصوص السابقين، وكون {ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ} في خصوص أصحاب اليمين لأنه واضح من سياق الآيات.أما شمول الآيات لجميع الأمم فقد دل عليه أول السورة، لأن قوله:{إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ}إلى قوله: {فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا} لا شك أنه لا يخص أمة دون أمة"[165]

163أضواء البيان، ج3، ص302

164أضواء البيان ،ج7 ،ص 515

165نفس المرجع، ج7 ،ص507

فالظاهر أنّ الأولين هنا مراد بهم الأمم السابقة قبل الإسلام بناء على ما تقدم من أن الخطاب في قوله "وكنتم أزواجا ثلاثة"خطاب لجميع الناس بعنوان أنهم ناس لأن المنقرضين الذين يتقدمون من أمة أو قبيلة أو أهل نحلة يدعون بالأولين"[166]

إن ترجيح الشنقيطي كان مبنيا على قرينة السياق، التي تقوي الدلالة على مدلول آخر .إنالسياق هو القرينة التي تشخص الدلالة القرآنية للآية وتفرض قيمة واحدةبعينها على اللفظة القرآنية .

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[النحل : 1]

يحتمل أن يكون "صدوا "بمعنى أعرضوا ،فيكون غير متعد ،أو يكون بمعنى صدوا الناس فيكون متعديا ".[167] وقد جاء الفعل صد مستعملا "في اللغة العربية استعمالين، أحدهما: أن تستعمل متعدية إلى المفعول، كقوله تعالى: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...} الآية [25/48]، ومضارع هذه المتعدية "يصد" بالضم على القياس، ومصدرها "الصد" على القياس أيضاً. والثاني: أن تستعمل "صد" لازمة غير متعدية إلى المفعول، ومصدر هذه "الصدود" على القياس، وفي مضارعها الكسر على القياس، والضم على السماع[168]

وقد رجّح الشنقيطي الوجه الثاني ،لأنّ "في الآية الكريمة ثلاث قرائن تدل على أنّ "صدّ" متعديّة، والمفعول محذوف؛ أي: وصدوا النّاس عن سبيل الله.الأولى: أنّا لو قدّرنا "صد" لازمة، وأن معناها: صدودهم في أنفسهم عن الإسلام؛ لكان ذلك تكراراً من غير فائدة مع قوله:{الَّذِينَ كَفَرُوا}بل معنى الآية: كفروا في أنفسهم، وصدوا غيرهم عن الدين فحملوه على الكفر أيضاً. القرينة الثانية:
قولهتعالى:{زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ}[النحل: 88]، فإنّ هذه الزيادة من العذاب لأجل إضلالهم غيرهم، والعذاب المزيدة فوقه: هو عذابهم على كفرهم في أنفسهم؛ بدليل قوله في المضلين الذين أضلوا غيرهم: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ....}الآية[النحل : 25] وقوله: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ...}الآية[العنكبوت:13]،كما تقدمإيضاحه
القرينة الثالثة:قوله:{بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ}، فإنّه يدل على أنّهم كانوا يفسدون على غيرهم مع ضلالهم في أنفسهم"[169]

إن ترجيح الشنقيطي لهذا الوجه دون غيره كان سببه القرائن القرآنية المحتفة بالآية من سباق ولحاق اجتمعت جملتها لإنتاج هذه الدلالة .

المطلب الرابع:سياق النص الجزئي وأثره في تضعيف الأقوال.

لقد اعتنى الإمام الشنقيطي بسياق النص الجزئي في تفسيره ،ورعاه رعاية كبيرة،وأنزله منزلة عالية وذلك أنّه حينما يورد أقوال المفسّرين التي يكون فيها ضعف ووهن شديد، من جهة عدم توافقها مع السابق واللاحق من كلام الله تعالى ،

166التحرير والتنوير ، ج5 ، ص 264
167ابن جزي الغرناطي ، التسهيل في علوم التنزيل ، ج4، ص206
168أضواء البيان ، ج2 ، ص 425
169 نفس المرجع ، ج2، ص426

ترى المفسّر حينها يتعقبّها ويبيّن ضعفها مبيّنا أنّ ضعفها جاء نتيجة عدم النظر إلى سياق الآية وأنّ الخلل الذي وقع فيه المفسّر سببه إغفال النظر إلى سباق الآية ولحاقها وقد أورد أمثلة كثيرة منها :

قوله تعالى:﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً﴾[المائدة : 84]ذهب جمهور العلماء إلى أنّ معنى هذه الآية الكريمة:{وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً}أي متعمّدا لقتله ذاكراً لإحرامه، وخالف مجاهد -رحمه الله- الجمهور قائلاً: إن معنى الآية: {وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً} لقتله في حال كونه ناسياً لإحرامه، واستدل لذلك بقوله تعالى:{وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ} [المائدة84]قال: ولو كان ذاكرا لإحرامه لوجبت عليه العقوبة لأول مرة" [170] قال: فدل على أنه أراد متعمدا لقتله ناسيا لإحرامه، قال مجاهد: فإن كان ذاكرا لإحرامه فقد حلّ ولا حجّ له لارتكابه محظور إحرامه، فبطل عليه كما لو تكلّم في الصلاة، أو أحدث فيها"[171].

وقد تعقّب الشنقيطي قول مجاهد مبيّنا ضعفه وبعده بسبب مخالفته للسياق القرآني حيث"أنّ في الآية قرينة واضحة دالة على عدم صحّة قول مجاهد رحمه الله، وهي قوله تعالى:{لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ}،فإنّه يدلّ على أنّه متعمد أمراً لا يجوز،أما الناسي فهو غير آثم إجماعاً، فلا يناسب أن يقال فيه:{لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ}[المائدة : 84] ، كما ترى".[172]

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾[النحل:72]إنّ للمفسّرين كلاما طويلا حول المراد بالحفدة، واللفظ يحتمل الجميع، لاشتمال الحفدة على كثير من المعاني" [173] فقيل الحفدة أولاد الأولاد، روي عن ابن عباس ، وقيل الحفدة الأختان قاله ابن مسعود وعلقمة وأبو الضحى وسعيد بن جبيروإبراهيم النخعي "[174]

وقد رجّح الشنقيطي المعنى الأول لأنّ "في هذه الآية الكريمة قرينة دالة على أنّ الحفدة أولاد الأولاد؛ لأنّ قوله:{وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً}، دليل ظاهر على اشتراك البنين والحفدة في كونهم من أزواجهم، وذلك دليل على أنهم كلهم من أولاد أزواجهم، ودعوى أن قوله{وَحَفَدَةً}"معطوف على قوله{أَزْوَاجاً}،غير ظاهرة. كما أن دعوى أنهم الأختان، وأن الأختان أزواج بناتهم، وبناتهم من أزواجهم، وغير ذلك من الأقوال،كله غير ظاهر. وظاهر القرآن هو ما ذكر،. "[175]

بل جعل القرطبي هذا "هو ظاهر القرآن بل نصه، ألا ترى أنه قال:" وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً" فجعل الحفدة والبنين منهن. وقال ابن العربي:الأظهر عندي في قوله" بَنِينَ وَحَفَدَةً" أن البنين أولاد الرجل لصلبه والحفدة أولاد ولده، وليس

170تفسير الوسيط ، ج1 ، ص 255
171القرطبي ، الجامع في أحكام القرآن ،ج6 ، ص 306
172أضواء البيان ، ج1، ص429
173محي الدين درويش ، إعراب القرآن وبيانه ، ج5 ، ص335
174الشوكاني ، فتح القدير ، ج4 ، ص242
175أضواء البيان ،ج2 ،ص413

في قوة اللفظ أكثر من هذا، ويكون تقدير الآية على هذا: وجعل لكم من أزواجكم بنين ومن البنين حفدة."[176]

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97]"اختلف العلماء في المراد بالحياة الطيبة في هذه الآية الكريمة.فقال قوم: لا تطيب الحياة إلا في الجنّة، فهذه الحياة الطيبة في الجنّة؛ لأنّ الحياة الدنيا لا تخلو من المصائب والأكدار، والأمراض والآلام والأحزان، ونحو ذلك؛ وقد قال تعالى:{وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[العنكبوت:84]،والمراد بالحيوان: الحياة.وقال بعض العلماء: الحياة الطيبة في هذه الآية الكريمة في الدنيا، وذلك بأن يوفّق الله عبده إلى ما يرضيه،ويرزقه العافية والرزق الحلال؛ كما قال تعالى:{رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}"[البقرة : 84] .

أما القول الأول فقد استبعده الشنقيطي نظرا إلى أنّ"في الآية الكريمة قرينة تدل على أنّ المراد بالحياة الطيبة في الآية: حياته في الدنيا حياة طيبة؛ وتلك القرينة هي أنّا لو قدّرنا أن المراد بالحياة الطيبة: حياته في الجنة في قوله: {فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}،صار قوله: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، تكراراً معه؛ لأن تلك الحياة الطيبة هي أجر عملهم؛ بخلاف ما لو قدّرنا أنها في الحياة الدنيا؛ فإنه يصير المعنى: فلنحيينه في الدنيا حياة طيبة، ولنجزيّنه في الآخرة بأحسن ما كان يعمل، وهو واضح."[177]

قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾[الكهف : 84]أكثر المفسرين على أنّه كلب حقيقة كان لصيد أحدهم فيما روي ، وقيل كان لراع مروا عليه فصحبهم وتبعه الكلب." [178] قد قال بعض أهل العلم في هذه الآية الكريمة:إنّ المراد بالكلب في هذه الآية ـ رجل منهم لا كلب حقيقي. واستدلّوا لذلك ببعض القراءات الشاذة، كقراءة وكَالِبهم باسط ذراعيه بالوصيد وقراءة وكالئهم باسط ذراعيه.

وقد أشار الشنقيطي أنّ في قوله جل وعلا:{بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ}" قرينة على بطلان ذلك القول. لأنّ بسط الذراعين معروف من صفات الكلب الحقيقي، ومنه حديث أنس المتفق عليه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اعتدلوا فيالسجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب" وهذا المعنى مشهور في كلام العرب، فهو قرينة على أنه كلب حقيقي. وقراءة وكالئهم بالهمزة لا تنافي كونه كلباً، لأن الكلب يحفظ أهله ويحرسهم. والكلاءة: الحفظ." [179] وقد ضعّفه القرطبي بقوله:أما إن هذا القول يضعفّه ذكر بسط الذراعين فإنها في العرف من صفة الكلب حقيقة"[180]

---

176 القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج10 ، ص 144

177 أضواء البيان ،ج2، ص441

178ابن عطية ،المحرر الوجيز ،ج4 ،ص 294

179أضواء البيان، ج3، ص225

180القرطبي ، الجامع في أحكام القرآن ، ج10 ، ص 372

قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾.[مريم:24] اختلف العلماء في بيان السريّ فذهب بعضهم إلى "أن السريّ هو ابنها عيسى، لأن السريّ هو الرفيع الشريف مأخوذ من قولهم فلان من سروات قومه أي من أشرافهم، قاله الحسن"[181]

وقد احتج من حمله على"عيسى" بوجهين : الأول : أن النهر لا يكون تحتها بل إلى جانبها ولا يجوز أن يجاب عنه بأن المراد منه أنه جعل النهر تحت أمرها يجري بأمرها ويقف بأمرها كما في قوله : {وهذه الانْهَارُ تَجْرِى مِن تحتي } [الزخرف : 51]لأن هذا حمل للفظ على مجازه ولو حملناه على عيسى عليه السلام لم يحتج إلى هذا المجاز. الثاني : أنه موافق لقوله تعالى : {وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّه ا ءَايَةً وَءَاوَيْنَـاهُمَآ إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ}" [182] والثاني: أن السريّ هو النهر، قاله ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير، وقتادة، والضحاك"

وقد اختار الشنقيطي القول الثاني ورجّحه فقال أنّ": أظهر القولين عندي أنّ السري في الآية النهر الصغير، والدليل على ذلك أمران:

أحدهما: القرينة من القرآن، فقوله تعالى:{فَكُلِى وَاشْرَبِى}قرينة على أن ذلك المأكول والمشروب هو ما تقدم الامتنان به في قوله: {قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً}، وقوله:{تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً}[مريم: 25]،وكذلكقوله تعالى: {إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ}[المومنون:50]

لأنّ المعين: الماء الجاري. والظاهر أنّ الجدول المعبّر عنه بالسري في هذه الآية.."[183]

قوله تعالى:﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً ﴾[مريم:71] ذهب جمع من المفسرين إلى أنه: لا يجوز للمؤمنين أن يردوا النار ويدل عليه أمور : أحدها : قوله تعالى:{ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ } [الأنبياء : 101] والمبعد عنها لا يوصف بأنه واردها ، والثاني : قوله : {لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا} [الأنبياء:102] ولووردوا جهنم لسمعوا حسيسها ،وثالثها:قوله:{ وَهُمْ مّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءامِنُونَ } [النحل : 89]"[184].

وقد رجّح الشنقيطي أنّ "الورود" في الآية معناه الدخول إلى النار ، بأدلة منها " ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من أنّ جميع ما في القرآن من ورود النار معناه دخولها غير محل النزاع، فدلّ ذلك على أنّ محل النزاع كذلك، وخير ما يفسّر به القرآن القرآن. الدليل الثاني:هوأنّ في نفس الآية قرينة دالة على ذلك وهي أنه تعالى لما خاطب جميع الناس بأنهم سيردون النار برهم وفاجرهم بقوله:{وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا

181الماوردي ، النكت والعيون ،ج3 ، ص 16
182 الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج10 ، ص 294
183أضواء البيان، ج3، ص 396
184الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج10 ص 332

وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً}،بيّن مصيرهم ومآلهم بعد ذلك الورود المذكور بقوله: {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا}،أي نترك الظالمين فيها، دليل على أن ورودهم لها دخولهم فيها، إذ لو لم يدخلوها لم يقل: ونذر الظالمين فيها. بل يقول: ونُدخل الظالمين، وهذا واضح كما ترى وكذلك قوله:{ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ}،دليل على أنهم وقعوا فيما من شأنه أنه هلكة، ولذا عطف على قوله:{وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا}."[185]

وكذلك السياق النص القرآني يعضده ففي فقوله تعالى : { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } [الأنبياء : 98] وقال :{ فَأَوْرَدَهُمُ النار وَبِئْسَ الورد المورود } [هود : 98] ويدل عليه قوله تعالى :{ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} والمبعد هو الذي لولا التبعيد لكان قريباً فهذا إنما يحصل لو كانوا في النار ، ثم إنه تعالى يبعدهم عنها"[186]

قوله تعالى:﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾.[طه:124]قال مجاهد وأبو صالح والسدي: أعمى أي لا حجَّة له. وقال عكرمة: عمى عليه كل شيء إلا جهنّم ، والذين قالوا ه ـومن عمى البصيرة ، إن ـما حملهم على ذلك ق ـوله تـعالى:{ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا }[38] ، وقوله:{لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } [قّ : 22]، وقوله:{ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ } [الفرقان : 22] وقوله:{لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ } [التكاثر : 6 - 7]"[187].

وقد تعقب الشنقيطي قول مجاهد والسدي وأبي صالح مبيّنا ضعف قولهم وسقوطهوهو أنّ في هذه الآية الكريمة قرينة تدل على خلاف قولهم "وأنّ ال ـمراد بقوله:{أَعْمَى}أي: أعمى البصر لا يرى شيئاً. والقرينة المذكورة هي قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً}[طه:125]فصرّح بأنّ عماه هو العمى المقابل للبصر وهو بصر العين، لأنّ الكافر كان في الدنيا أعمى القلب كما دلّت على ذلك آيات كثيرة من كتاب الله"[188]

وممّا يرجّح هذا القول أن " السياق يدل عليه لقوله:{قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً} وهو لم يكن بصيراً في كفره قط ، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق .فكيف يقول:{وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً} وكيف يجاب بقوله:{كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا}؟ بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر وأنه جوزي من جنس عمله. فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته ، أعمى الله به بصره يوم القيامة ، وتركه في العذاب ، كما ترك الذكر في الدنيا ، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة . وعلى تركه ذكره ، تركه في العذاب"[189]

185أضواء البيان ، ج3، ص479

186مفاتيح الغيب ، ج 10 ، ص 332

187القاسمي ، محاسن التأويل ، ج4 ، ص 333

188 المرجع السابق ،ج4، ص127

189القاسمي ، المحاسن التأويل ، ج5 ، ص 231

والذي يبدو أنّ الرأي الثاني أقرب إلى الحق ، لأنه هو الظاهر من الآية الكريمة، ولا قرينة تمنع من إرادة هذا الظاهر .

قـولـه تـعالى:﴿خُلِـقَ الْأِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[الأنبياء:37]

أشار الشنقيطي إلى قولين معروفين للعلماء " في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة:{من عَجَلٍ}،وفي نفس الآية قرينة تدل على عدم صحّة أحدهما. أمّا القول الذي دلّت القرينة المذكورة على عدم صحتّه: فهو قول من قال: العَجَل الطين وهي لغة حميرية. كما قال شاعرهم:

الْبَيْعُ فِي الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ مَنْبَتُهُ وَالنَّخْلُ يَنْبُتُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْعَجَلِ

يعني: بين الماء والطين. وعلى هذا القول فمعنى الآية: خلق الإنسان من طين، كقوله تعالى {أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً} **.[الإسراء:61]**،وقوله:{وَبَدَأَ خَلْقَ الْأِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} **[السجدة:7]**

والقرينة المذكورة الدالة على أن المراد بالعجل في الآية ليس الطين قولهبعده: {فَلاتَسْتَعْجِلُونِ}،وقوله:{وَيَقُولُونَمَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} **[الأنبياء:38]**

فهذا يدل على أن المراد بالعجل هو العجلة التي هي خلاف التأني والتثبت"[190] ورجّح هذا القول أبوحيان ،"والذي ينبغي أن تحمل الآية عليه هو القول الأول وهو الذي يناسب آخرها."[191]

إنّ الناظر إلى توجيه الآية بأن تكون دلالة "العجل " هو الطين يراه غير وارد في الآية الكريمة لأن السياق يأباه فهم يستعجلون والله سبحانه ينعى عليهم عجلتهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[الأنبياء:44]

للعلماء في تفسير هذه الجملة الكريمة أقوال ؛ بعضها تدلّ له قرينة قرآنية:قال بعض العلماء: نقصها من أطرافها: موت العلماء، وجاء في ذلك حديث مرفوع عن أبي هريرة."وقال الواحدي : وهذا القول ، وإن احتمله اللفظ ، إلا أن اللائق بهذا الموضع هو الوجه الأول"[192]

إلا أنّ الشنقيطي أبعد هذا القول فقال:" وبعد هذا القول عن ظاهر القرآن بحسب دلالة السياق ـ ظاهر كما ترى.وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها خرابها عند موت أهلها.وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها هو نقص الأنفس والثمرات، إلى غير ذلك من الأقوال، وأما القول الذي دلّت عليه القرينة القرآنية: فهو أنّ معنى{نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا}أي ننقص أرض الكفر ودار الحرب، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها، وردها دار إسلام. والقرينة الدالّة على

190أضواء البيان ،ج 4 ،ص150

191أبو حيّان ، البحر المحيط ، ج 8 ، ص 159

192مفاتيح الغيب ، ج 9، ص 195

هذا المعنى هي قوله بعده {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} ، والاستفهام لإنكار غلبتهم.وقيل: لتقريرهم بـأنّهم مغلوبون لا غـالبون

فقوله:{أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} دليل على أنّ نقص الأرض من أطرافها سبب لغلبة المسلمينللكفار وذلك إنمّا يحصل بالمعنى المذكور.

وممّا يدلّ لهذا الوجه قوله تعالى: {وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ} [الرعد:31] "[193]

قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾[الحج : 55]."قد روى مجاهد عن أبي بن كعب: أنّ اليوم العقيم المذكور يوم بدر، وكذا قال مجاهد وعكرمة، وسعيد بن جبير وغير واحد: واختاره ابن جرير كما نقله عنهم ابن كثير في تفسيره ثم قال: وقال مجاهد وعكرمة في رواية عنهما: هو يوم القيامة لا ليل له، وكذا قال الضحاك والحسن البصري، ثم قال: وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به" [194]

وهذا الذي رجّحه ابن كثير في تفسيره ،قد أخذ الشنقيطي به لأنّ السياق ينصره فـ"القرينة القرآنية هنا دلت على أنّ المراد باليوم العقيم: يوم القيامة، لا يوم بدر، وذلك أنه تعالى أتبع ذكر اليوم العقيم، بقوله {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} [الحج:56]. وذلك يوم القيامة وقوله: يومئذ: أي يوم إذ تأتيهم الساعة، أو يأتيهم عذاب عقيم، وكل ذلك يوم القيامة. فظهر أنّ اليوم العقيم: يوم القيامة، وإن كان يوم بدر عقيماً على الكفار، لأنهم لا خير لهم فيه، وقد أصابهم ما أصابهم."[195]

إنّ القول الأوّل الذي يجنح إلى أن اليوم العقيم هو يوم بدر " ممَّا لا يساعده سياقُ النَّظمِ الكريمِ أصلاً كيفَ لا وإنَّ تخصيصَ الملكِ والتَّصرفِ الكُليِّ فيه باللهِ عزَّ وجلَّ ثم بيانَ ما يقع فيه من حكمِه تعالى بين الفريقين بالثَّواب والعذابِ الأُخرويين يقضي بأنَّ المرادَ به يومُ القيامةِ قضاءً بيِّناً لا ريبَ فيه ".[196]

قوله تعالى:﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ *الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ *وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[الشعراء: 217-218 -219]إنقوله تعالى هنا: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، قال فيه بعض أهل العلم المعنى: وتقلبك في أصلاب آبائك الساجدين، أي: المؤمنين باللّه كآدم ونوح، وإبراهيم، وإسماعيل.واستدلّ بعضهم لهذا القول فيمن بعد إبراهيم من آبائه، بقوله تعالى عن إبراهيم:{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} [الزخرف:28]، وممّن روي عنه هذا القول ابن عباس نقله عنه القرطبي"،[197]

193المرجع السابق ، ج 4، ص157

194ابن كثير ،تفسير القرآن العظيم ، ج5 ، ص 446

195أضواء البيان، ج5 ،ص 291

196أبوالسعود ، إرشاد العقل السليم ، ج4 ، ص477

197القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج8 ، ص 222

وقد تعقب الإمام الشنقيطي هذا الوجه مضعّفا إيّاه، ومعتمدا على قرينة داخل الآية " تدلّ على عدم صحة هذا القول، وهي قوله تعالى قبله مقترنًا به: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} ،فإنه لم يقصد به أن يقوم في أصلاب الآباء إجماعًا، وأوّل الآية مرتبط بآخرها، أي: الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك، وحين تقوم من فراشك ومجلسك، ويرى{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} ، أي: المُصلّين، على أظهر الأقوال؛ لأنه صلى الله عليه وسلم يتقلب في المصلّين قائمًا، وساجدًا وراكعًا،".[198]

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَحَمَلَهَاالإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[الأحزاب:72]

ذهب جمع من المفسرين أنه يصح أن"تجعل في ضمير {إِنَّهُ} استخداما بأن يعود إلى الإنسان مراداً به الكافر وقد أطلق لفظ الإنسان في مواضع كثيرة من القرآن مرادا به الكافر كما في قوله تعالى: {وَيَقُولُ الإنسان أإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً}[مريم: 66] ، الآية وقوله: {يَا أَيُّهَا الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}[الانفطار:6]"[199]الآيات

وقد استظهر الشنقيطي أنّ المراد بالإنسان "ءادم عليه وعلى نبيّنا الصّلاة والسّلام، وأن الضمير في قوله: {إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً}، راجع للفظ: {الإنسان} ،مجرّدًا عن إرادة المذكور منه، الذي هو ءادم.والمعنى: أنه أي الإنسان الذي لا يحفظ الأمانة{كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً} ،أي: كثير الظلم والجهل، والدليل على هذا أمران: أحدهما: قرينة قرآنية دالّة على انقسام الإنسان في حمل الأمانة المذكورة إلى معذّب ومرحوم فيقوله تعالى بعده، متّصلاً به: {لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً}[الأحزاب: 73]، فدلّ هذا على أن الظلوم الجهول من الإنسان هو المعذب، والعياذ بالله، وهم المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، دون المؤمنين والمؤمنات."[200]

ورجوع الضمير إلى مجرد اللفظ دون اعتبار المعنى التفصيلي معروف في اللغة التى نزل بها القرآن .وقد جاء فعلا في آية من كتاب الله ، وهى قوله - تعالى - :{ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ}لأنّ الضمير في قوله:{وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ}راجع إلى لفظ المعمّر دون معناه التفصيلى ، كما هو ظاهر "[201]

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾[الكهف : 17]

للمفسرين ههنا قولان : القول الأول : أن باب ذلك الكهف كان مفتوحاً إلى جانب الشمال فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف وإذا غربت كانت على شماله فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف ، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق

198 أضواء البيان ، ج6، ص103
199التحرير والتنوير ، ج21 ، ص 349- 350
200أضواء البيان ، ج6، ص 260
201محمد سيد طنطاوي ، الوسيط ، ج5 ، ص 345

يصل ، والمقصود أن الله تعالى صان أصحاب الكهف من أن يقع عليهم ضوء الشمس وإلا لفسدت أجسامهم فهي مصونة عن العفونة والفساد. والقول الثاني : أنه ليس المراد ذلك ، وإنما المراد أن الشمس إذا طلعت منع الله ضوء الشمس من الوقوع ، وكذا القول حال غروبها وكان ذلك فعلاً خارقاًللعادة وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف"[202]

وقد أشار الشنقيطي أنّ في نفس الآية قرينة تدل على صحة أحدهما وعدم صحة الآخر."أما القول الذي تدل القرينة في الآية على خلافه: فهو أنّ أصحاب الكهف كانوا في زاوية من الكهف، وبينهم وبين الشمس حواجز طبيعية من نفس الكهف، تقيهم حر الشمس عند طلوعها وغروبها..وأما القول الذي تدل القرينة في هذه الآية على صحته: فهو أن أصحاب الكهف كانوا في فجوة من الكهف على سمت تصيبه الشمس وتقابله. إلا أن الله منع ضوء الشمس من الوقوع عليهم على وجه خرق العادة. كرامة لهؤلاء القوم الصالحين، الذين فروا بدينهم طاعة لربهم جل وعلا.والقرينة الدالة على ذلك هي قوله تعالى:{ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ}[الكهف : 17]إذ لو كان الأمر كما ذكره أصحاب القول الأول لكان ذلك أمراً معتاداً مألوفاً، وليس فيه غرابة حتى يقال فيه {ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ} ".[203]

202الرازي ، مفاتيح الغيب ،ج21 ، ص85
203أضواء البيان ج3، ص 218

المبـــحث الثّاني

السياق وأثره في توجيه الإفراد والتثنية والجمع.

المبحث الثاني :السياق وأثره في توجيه الإفراد والتثنية والجمع.

من وسائل القرآن الكريم في اختياره ما يحقق التناسب الصوتي ، والانسجام التأليفي للآيات القرآنية؛اعتماده توظيف بعض الكلمات في صورتها المفردة في سياقات، ثم توظيفها مرة أخرى في صورتها الجمعية في سياقات أخرى ، وما ذاك إلا مراعاة للتلوين الصوتي لهذه الكلمات ، وقصداً لما يراد من وراء هذا التلوين من توابع دلالية وجمالية موظفة في هذه السياقات.

والشنقيطي قد وجّه كثيرا من الكلمات الدالة على العدد في اللغة العربية بحسب دلالة السياق وهي تكون بألفاظ تفرّق في الاستخدام بين المفرد والمثنى والجمع. لكن وردت في القرآن الكريم كلمات تساوت فيها الدلالة على الإفراد والتثنية والجمع، ولا تتبين دلالتها على ذلك إلا من السياق .نذكر طرفا مما استعمله المفسّر موجّها به كثيرا من الآيات القرآنية.

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الشعراء: 16]

" فإن قيل ما وجه الإفراد في قوله :{رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} في الشعراء ؟ مع أنّهما رسولان ؟ كما جاء الرسول مثنّى في "طه" والإفراد في الشعراء ، وكل واحد من اللفظين : المثنى والمفرد يراد به موسى وهارون.

لقد وجّه الشنقيطي قول الله تعالى عن موسى وهارون عليهما السلام قولهما : إنّا رسول رب العالمين" أنّ إفراد لفظ الرسول في هذا الموضع "أصله مصدر وصف به ، والمصدر إذا وصف به ذكّر وأفرد .فالإفراد في الشعراء نظرا إلى أنّ أصل الرسول مصدر والتثنية في "طه "اعتدادا بالوصفيّة العارضة ،ويفرد مرادا به الجمع نظرا إلى أن أصله مصدر" [204] وقد أخذ بهذا التوجيه الإمام الطبري في تفسيره[205] والبيضاوي[206] والألوسي[207]والثعلبي"[208]وقد أضاف الشنقيطي في بيان هذه الآية فقال : ومثال إفراد الرسول مرادا به الجمع قول أبي ذؤيب الهذلي:

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُولِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرْ" [209]

قال أبو عبيدة: يجوزأن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع، تقول هذا رسولي ووكيلي وهذان وهؤلاء رسولي ووكيلي كما قال تعالى : وهم لكم عدو" [210]

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾[المؤمنون : 99] تناول المفسرون هذه الآية القرآنية تحليلا ،وتعليلا، وبيانا، وإيضاحا ،حيث

204أضواء البيان، ج4 ،ص17
205الطبري، جامع البيان ، ج11 ، ص 333
206البيضاوي ،أنوار التنزيل، ج4 ، ص 413
207 الألوسي، روح المعاني ، ج14 ، ص 177
208الثعلبي، الكشف والبيان ، ص 146
209أضواء البيان، ج4، ص17
210البغوي، معالم التنزيل، ج6 ، ص 108

تساءلوا " عن وجه صيغة الجمع في قوله:{رَبِّ ارْجِعُونِ}ولم يقل أرجعني بالإفراد ؟ فقد ذكر صاحب الدر المصون " ثلاثة أوجه فيها حيث قال: أجودها أنّه على سبيل التعظيم كقول الشاعر:

فَإِنْ شِئْتِ حَرَّمَتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ وإِنْ شِئْتِ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخًا وَلَا بَرْدًا

وقال آخر:

أَلَا فَارْحَمُونِي يَا إِلَهَ مُحَمَّدٍ فَإِنْ لَمْ أَكُنْ أَهْلًا فَأَنْتَ لَهُ أَهْل"[211]

وقد مال الشنقيطي إلى هذا الوجه، واعتبره من أظهر الوجوه،حيث عدّ صيغة الجمع في قوله {ارْجِعُونِ}لتعظيم المخاطب ،وذلك النادم السائل الرجعة،يظهر في ذلك الوقت تعظيمه لربه "[212]

إنّ الخطاب بصيغة الجمع لقصد التعظيم طريقة عربية، وهو يلزم صيغة التذكير ،فيقال في خطاب المرأة إذا قصد تعظيمها:أنتم ولا يقال: أنتن ـ قال العرجي :

فَإِنْ شِئْتِ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ وَإِنْ شِئْتِ لَمْ أَطْعِمْ نُقَاخًا وَلَا بَرْدًا

فقال:سواكم " [213] وأما الوجهالثاني :فـقوله:{رَبِّ}استغاثة به تعالى و قـوله : {ارْجِعُونِ}
خطاب للملائكة الذين يقبضون الأرواح من ملك الموت وأعوانه" [214] ويستأنس لهذا الوجه بما ذكره ابن جرير عن ابن جريج قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة:" إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا: نرجعك إلى دار الدنيا فيقول:إلى دار الهموم والأحزان، فيقول بل قدموني إلى الله وأما الكافر فيقولون له: نرجعك ؟ فيقول : رب ارجعوني "[215] الوجه الثالث :أن ذلك يدل على تكرير الفعل كأنه قال : أرجعون ـ أرجعون ـ أرجعون ـ نقله أبو البقاء ـ وهو يشبه ما قالوه في قوله :{أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ }[ق :24] أنه بمعنى : ألق ألق ، ثنّي الفعل للدلالة على ذلك، وأنشدوا قوله :قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل"[216]
وقدتعقّب الشنقيطي قول المازني: إنّه جمع الضمير ليدل على التكرار فكأنه قال : أرجعني أرجعني أرجعني ثم قال:ولا يخفى بعد هذا القول كما ترى"[217]

211السمين الحلبي ، الدر المصون،ج1 ، ص 358
212أضواء البيان، ج5، ص355
213الطاهر بن عاشور ،التحرير والتنوير، ج18 ،ص 100
214 محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري ، حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ،ط2، دار المنهاج في جدة، 1426هـ-2005.ج15، ص268
215أضواء البيان ،ج5، ص355
216 الدر المصون ، ج1 ،ص358
217أضواء البيان، ج5 ،ص355

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[الجاثية: 20]وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربيّ معروف وهو أن المبتدأ الذي هو قوله:{هَذَا} اسم إشارة إلى مذكر مفرد،والخبر الذي هو{بَصَائِرُ}جمع مكسر مؤنث. فأجاب الشنقيطي على هذا التساؤل بقوله: " أنّ مجموع القرآن كتاب واحد تصح الإشارة إليه بهذا ، وهذا الكتاب الواحد يشتمل على براهين كثيرة فصحّ إسناد البصائر إليه لاشتماله عليها كما لا يخفى" [218]وقد نقل الثعالبي عن أبي حيان أن هذه الآية فيها قراءة بقوله : هذه أي هذه الآيات" وقيل أنّ سبب الإخبار عن المفرد بالجمع لاشتماله على سور وآيات وقيل هو على حذف مضاف أي ذو بصائر"[219]

وقد ذكر الإمام الألوسي وجها آخر بقوله: وقيل: الإشارة إلى اتباع الشريعة والكلام من باب التشبيه البليغ ،وجمع الخبر على الوجهين باعتبار تعدد ما تضمنه المبتدأ , واتباع مصدر مضاف فيعم ويخبر عنه بمتعدد"[220]

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[الأنبياء: 30]لقد نظر المفسّرون إلى هذه الآية فاستشكلوا التثنية في قوله تعالى : كَانَتَا رَتْقاً "بعد أن سيقت بما يفهم منه الجمع في قوله تعالى : {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا} إذ السياق يقتضي أن يقال :كنّ رتقا لأنّه يعود على السماوات والأرض، فحاولوا أن يجدوا لها تأويلا سائغا يتوافق مع الآية كلّها،فذهب الزجاج إلى أنه إنما" قال كانتا لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد لأن السموات كانت سماء واحدة وكذلك الأرضون". [221]وذهب الزمخشري إلى أنّه إنّما قال :": كانتا دون كنّ ، لأنّ المراد جماعة السموات وجماعة الأرض ، ونحوه قولهم: لقاحان سوداوان ، أي : جماعتان"[222]

وللشنقيطي وجه آخر وهوأن التثنيةفي قوله:{كَانَتَا} باعتبار النوعين اللذين هما نوع السماء، ونوع الأرض. كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا}[فاطر:41]"[223]

ومن ذلك قولهم أصلحنا بين القومين ومرت بنا غنمان أسودان ، لأن هذا القطيع غنم وذلك غنم."[224]وارتضاه الألوسي "كانتا" الضمير للسماوات والأرض والمراد من السماوات طائفتها ولذا ثني الضمير ولم يجمع ومثل ذلك قوله تعالى إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا"[225]

218أضواء البيان، ج7 ،ص202
219أبو حيّان ،البحر المحيط ، ج 6 ، ص 34
220الألوسي ، روح المعاني، ج25 ، ص 149
221تفسير الزجاج ، ص 233
222الزمخشري ،الكشاف ، ج 4 ، ص 217
223أضواء البيان ،ج4 ، ص160
224مفاتيح الغيب ، ج22 ، ص 140
225الألوسي ، روح المعاني ، ج 17 ، ص 34

لقد أوضح الشنقيطي تثنية الضمير في الآية، مستندا إلى السياق لكون الضمير يعود يعود على الجنسين ، لأجل ذلك جاء الضمير في الآية مثنى ، بدلا من كونه مجموعا .

المبـــحث الثَّالث

السياق وأثره في التذكير والتأنيث

المبحث الثالث:السياق وأثره في التذكير والتأنيث .

إن قضية التذكير والتأنيث من الظواهر اللغوية البارزة في لغة العرب ، حيث يذكّر الكلام ويؤنّث على حسب السياق الذي ترد فيه الجملة ،فلا يمكن أن يفهم معنى كلمة أو جملة إلا بوصلها بالكلمة التي قبلها أو بالتي بعدها داخل إطار السياق"[226]
فالتذكير والتأنيث يكون تبعا للسياق ، فرعايته مهمة ، والعناية به بالغة ،وقد أولى الشنقيطي هذه الظاهرة اللغوية حقّها، نذكر بعضا ممّا مثّل له .

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[الأعراف:189]لقد ذكر الله تبارك وتعالى في الآية أنّ الخلق إنما خلقوا من نفس واحدة وهي آدم عليه السلام كما نقله الطبري عن مجاهد وقتادة [227] وتبعهم على ذلك جمع من المفسرين ثم تلاها الوصف بقوله " واحدة " مع أنّ الموصوف به مذكّر وهو آدم عليه السلام ،حيث أبان الإمام الشنقيطي أن تأنيث الوصف، بقوله: {وَاحِدَةٍ} ، مع أن الموصوف به مذكر، وهو آدم؛ "نظراً إلى تأنيث لفظ النفس، وإن كان المراد بها مذكراً، ونظير ذلك من كلام العرب قوله:

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَىوَأَنْتَ خَلِيفَةٌ ذَاكَ الْكَمَالُ"[228]

فأنّث ولدته لتأنيث لفظ خليفة" [229]وقد قرأ الجمهور : واحدة بالتاء على تأنيث لفظ النفسوقرأ ابن أبي عبلة : واحد على مراعاة المعنى ، إذ المراد به آدم ، أو على أن النفس تذكّر وتؤنّث، فجاءت قراءته على تذكير النفس ."[230] وقد كان هذا الأسلوب جاريا في كلام الله جل وعلا ففي قوله تعالى : عن زكريا عليه السلام أنه قال:{فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً } [مريم: 5] والذرية الطيبة هي النسل الصالح ،والذرية تكون واحدة وتكون جمعا ذكرا وأنثى، وهو هنا واحد. يدل عليه قوله.{فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً} [مريم: 5] ولم يقل أولياء، وإنما أنث "طَيِّبَة" لتأنيث لفظ الذرية؛ كقوله:

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى وَأَنْتَ خَلِيفَةٌ ذَاكَ الْكَمَالُ[231]

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴾[الأنبياء : 47] إن المتأمل في الآية يرى أن الضمير أنّث مع أنّ مرجعه إلى قوله "مثقال" وهو مذكر.
والسبب في تأنيث الضميرفي قوله{بِهَا} أنه" راجع إلى المضاف الذي هو{مِثْقَالَ}وهو مذكّر لاكتسابه التأنيث من المضاف إليه الذي هو {حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ} على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

وَرُبَّمَا أَكْسَبَ ثَانٍ أَوَّلَا تَأْنِيثًا إِنْ كَانَ لِحَذْفٍ مُؤَهَّلَا

226عبدالرحمن بودرع ، منهج السياق في فهم النص ، ص 17
227الطبري، جامع البيان ، ج5 ، ص 122
228أضواء البيان ، ج 6 ص 354
229 محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الفكر ، بيروت – ، 1993م ج4 ، ص 72
230 أبوحيان ، البحر المحيط ، ج4 ، ص 20
231 أبو إسحاق أحمد المعروف بالإمام الثعلبي، الكشف والبيان ، تحقيق ابن عاشور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى 2002. ، ج3 ، ص59

ونظير ذلك من كلام العرب قول عنترة في معلقته:

جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدِّرْهَمِ

وإلى هذا مال الرازيّ، [232] والنسفيّ، [233] وأبو السعود، [234] والألوسي، [235] والبيضاوي،[236] وجمهرة من المفسرين، إلى أنّ التأنيث إنما اكتُسِب من المضاف إليه وهذا أسلوب عربي معهود يؤيّده ماجاء من شعرهم .

وقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾[الأعراف: 8]لقد وصف الله جل وعلا أسماءه بأنّها حسنى "أي أن لله تعالى وحده جميع الأسماء الدالة على أحسن المعاني وأكمل الصفات والحسنى هي تأنيث الأحسن أفعل التفضيل" [237] ولقد علّق الإمام الشنقيطي علىهذهالآية بقوله: "وقوله:{الْحُسْنَى} تأنيث الأحسن، وإنّما وصف أسماءه جلّ وعلا بلفظ المؤنّث المفرد، لأنّ جمع التكسير مطلقاً وجمع المؤنّث السالم يجريان مجرى المؤنثة الواحدة المجازيّة التأنيث، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وَالتَّاءُ مَعْ جَمْعٍ سِوَى السَّالِمِ مِنْ مُذَكَّرٍ كَالتَّاءِ مِنْ إِحْدَى اللَّبَنْ

ونظير قوله هنا:{الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}من وصف الجمع بلفظ المفرد المؤنث.

قوله:{مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى}[طه: 23]،وقوله:{مَآرِبُ أُخْرَى}[طه : 18] ". [238] بل لهذا نظائر في كلام الله تعالى ففي قوله تعالى :آلهة أخرى إنما قال تعالى :{آلهة أخرى}كما قال الخازن"[239]لأنّ الجمع يلحقه التأنيث كما قال تعالى :{آلِهَةً أُخْرَى}ولم يقل: أُخَر؛ لأن الآلهة جمع، (والجمع) يقع عليه التأنيث؛ كما قال الله تبارك وتعالى:{وللّهِ الأسماءُ الحسنى} وقال الله تبارك وتعالى:{فما بال القُرون الأُولى}[طه:51]ولم يقل: الأوَل والأوّلين.وكلّ ذلك صواب." [240] وقد تكرر استعمال هذه اللفظة في كتاب الله تعالى،ففي قوله تعالى:{وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى}[النحل:62] فلفظ الحسنى تأنيث الأحسن، قيل: "المراد بها الذكور؛ كما تقدم في قوله:{وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ}وقوله تعالى:{قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ}[التوبة: 52]"[241]

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[الأعراف: 56]اختلف اللغويون والنحاة اختلافا كبيرا حول تذكير كلمة «قريب» مع أنّها صفة للرحمة التي هي مؤنثة،وعدم لحاق علامة التأنيث لوصف (قريب) مع أن موصوفة مؤنث اللفظ وجّهه علماء العربية بوجوه كثيرة وأشار إليها في الكشاف وجلّها يحوم حول تأويل

232الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج4 ، ص 46
233النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، ج2 ، ص 327
234أبو السعود، إرشاد العقل السليم ، ج4 ، ص 420
235الألوسي،روح المعاني ، ج23 ، ص88
236البيضاوي، أنوار التنزيل ،ج4 ، ص194
237سيد طنطاوي ، الوسيط ، ص 174
238أضواء البيان ، ج4 ، ص 8
239الخازن ،لباب التأويل ، ج 2 ، ص 376
240الفراء ،معاني القرآن ، ج2 ، ص2
241أضواء البيان ، ج2 ، ص 393

الاسم المؤنث بما يرادفه من اسم مذكر أو الاعتذار بأن بعض الموصوف به غير حقيقي التأنيث كما هنا .

وقد أشار الشنقيطي إلى قولين صدّرهما عند توجيهه الآية،حيث قال " منها: أن الرحمة مصدر بمعنى الرحم، فالتذكير باعتبار المعنى.ومنها: أن من أساليب اللغة العربية أن القرابة إذا كانت قرابة نسب تعين التأنيث فيها في الأنثى فتقول: هذا المرأة قريبتي أي في النسب، ولا تقول: قريب مني؛ وإن كانت قرابة مسافة جاز التذكير والتأنيث، فتقول: داره قريب وقريبة مني، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ}[الشورى : 17]،وقوله تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبا}[الأحزاب: 63] ، وقول امرىء القيس:

لَهُ الْوَيْلُ إِنْ أَمْسَى وَلَا أُمُّ هَاشِمٍ قَرِيبٌ وَلَا الْبَسْبَاسَةُ ابْنَةُ يَشْكُرَا [242]

وهذا الذي أشار إليه الشنقيطي هو " قول الفراء وأبي عبيدة:أن قريبا أو بعيدا إذا أطلق على قرابة النسب أو بعد النسب فهو مع المؤنث بتاء ولا بد وإذا أطلق على قرب المسافة أو بعدها جاز فيه مطابقة موصوفة وجاز فيه التذكير على التأويل بالمكان وهو الأكثر قال الله تعالى:{وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ }[هود: 83]قوله تعالى:{وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً}[الأحزاب:63]

قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ**﴾[النحل: 66]لقد تباينت أقوال المفسرين في بيان وجه تذكير الضمير من قوله: "مما في بطونه "فذهب جمع منهم إلى أنّه " أعاد الضمير مذكّراً مراعاة للجنس لأنه إذا صحّ وقوع المفرد الدال على الجنس مقام جمعه جاز عوده عليه مذكراً كقولهم :هو أحسن الفتيان وأنبله ، لأنه يصح هو أحسن فتى." [243]وكان بعض نحويِّي الكوفة يقول:النَّعم والأنعام شيء واحد، لأنهما جميعًا جمعان، فردّ الكلام في قوله (مِمَّا فِي بُطُونِهِ)إلى التذكير مرادًا به معنى النَّعم، إذ كان يؤدي عن الأنعام ، ويستشهد لقوله ذلك برجز بعض الأعراب:

إذا رأيْتَ أنْجُما منَ الأسَدْجَــبْهَتهُ أوِ الخَرَاة والكَتَدْ
بال سُهَيْلٌ فِي الفَضِيخِ فَفَسَدْوطــابَ أَلْبانُ اللِّقاحِ فَبَرَدْ

ويقول: رجع بقوله "فبرد" إلى معنى اللبن، لأنّ اللبن والألبان تكون في معنى واحد ، وفي تذكير النعم قول الآخر:

أكُلَّ عامٍ نَعَمٌ تَحْوُونَهُ يُلْقحُهُ قَومٌ وتَنْتِجُونَهُ

فذكّر النعم ؛ وكان غيره منهم يقول: إنما قال(مِمَّا فِي بُطُونِهِ) لأنه أراد: مما في بطون ما ذكرنا وينشد في ذلك رَجزا لبعضهم:

..... مِثْلُ الفِراخِ نُتِفَتْ حَوَاصِلُهُ" [244]

242أضواء البيان ، ج 2 ، ص32
243أبو حيّان ، البحر المحيط ، ج7 ، ص 265
244الطبري،جامع البيان ، ج 17 ، ص 239

وكان بعض البصريين يقول:قيل(مِمَّا فِي بُطُونِهِ) لأن المعنى: نسقيكم من أيّ الأنعام كان في بطونه ، ويقول: فيه اللبن مضمر، يعني أنه يسقي من أيّها كان ذا لبن، وذلك أنه ليس لكلها لبن، وإنما يُسقى من ذوات اللبن. والقولان الأوّلان أصحّ مخرجا على كلام العرب من هذا القول الثالث."[245]

وقد علّل الشنقيطي التذكير في قوله : مما في بطونه" وتأنيثها في موضع آخر في قوله تعالى:"نسقيكم مما في بطونها" إلى "أن أسماء الأجناس يجوز فيها التذكير نظراً إلى اللفظ، والتأنيث نظراً إلى معنى الجماعة الداخلة تحت اسم الجنس. وقد جاء في القرآن تذكير الأنعام وتأنيثها كما ذكرناه آنفاً ، وجاء فيه تذكير النخل وتأنيثها؛ فالتذكير في قوله:{كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ}[القمر: 20]، والتأنيث في قوله:{كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}،[الحاقة: 7]ونحو ذلك. وجاء في القرآن تذكير السماء وتأنيثها؛ فالتذكير في قوله: {السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ}[المزمل: 18]، والتأنيث في قوله: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ...}[الذاريات: 47] الآية، ونحو ذلك من الآيات."[246]

قال الله تعالى: ﴿**مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا**﴾[الكهف:3]فقد جاء قبل هذه الآية قوله تعالى :{أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا}[الكهف: 1]أي "وليبشرهم بأن لهم أجراً حسناً. الأجر: جزاء العمل، وجزاء عملهم المعبر عنه هنا بالأجر: هو الجنة. ولذا قال {مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا}وذكّر الضمير في قوله: {فِيهِ} لأنه راجع إلى الأجر وهو مذكر، وإن كان المراد بالأجر الجنة"[247]

قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ**﴾[الحج:2]لقد أشار الشنقيطيفي قوله تعالى{كُلُّ مُرْضِعَةٍ} أن "وجه قوله: مرضعة، ولم يقل: مرضع: هو ما تقرر في علم العربية، من أن الأوصاف المختصة بالإناث إن أريد بها الفعل لحقها التاء، وإن أريد بها النسب جردت من التاء، فإن قلت: هي مرضع تريد: أنها ذات رضاع، جردته من التاء كقول امرىء القيس:

فَمِثْلُكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُغْيَلِ

وإن قلت: هي مرضعة بمعنى، أنّها تفعل الرضاع: أي تلقم الولد الثدي، قلت: هي مرضعة بالتاء ومنه قوله:

كَمُرْضِعَةٍ أَوْلَادَ أُخْرَى وَضَيَّعَتْ بَنِي بَطْنِهَا هَذَا الضَّلَالُ عَنِ الْقَصْدِ

كما أشار له بقوله:

وَمَا مِنَ الصِّفَاتِ بِالْأُنْثَى يَخُصُّ عَنْ تَاءٍ اسْتَغْنَى لِأَنَّ اللَّفْظَ نَصٌّ
وَحَيْثُ مَعْنَى الْفِعْلِ يَعْنِي التَّاءَ زِدْ كَذِي غَدَتْ مُرْضِعَةً طِفْلًا وُلِدْ"[248]

إن التحاق "هاء التأنيث بوصف{مُرْضِعَةٍ} للدلالة على تقريب الوصف من معنى الفعل،فإن الفعل الذي لا يوصف بحدثه غير المرأة تلحقه علامة التأنيث ليفاد بهذا

245المرجع نفسه ، ج17 ، ص 240
246أضواء البيان ، ج2 ، ص 396
247المرجع نفسه ، ج 3 ،ص197
248المرجع نفسه ، ج 4 ،ص 255

التقريب أنها في حالة التلبس بالإرضاع، كما يقال: هي ترضع. ولولا هذه النكتة لكان مقتضى الظاهر أن يقال: كل مرضع، لأن هذا الوصف من خصائص الأنثى فلا يحتاج معه إلى الهاء التي أصل وضعها للفرق بين المؤنث والمذكر خيفة اللبس".[249]
وعلى هذا فقوله تعالى:{ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت} أبلغ من مرضع في هذا المقام فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة فإذا التقم الثدي واشتغلت برضاعة لم تذهل عنه إلا لأمر أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع"[250]
إنّ مجيء هذه الآيات في سياق الحديث عن اليوم الآخر,ومافيها من أهوال زائدة عن الحياة الدنيا، لمؤذن بزيادة في المبنى: أي في قوله مرضعة بزيادة التاء ؛إذ الزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى غالبا.

249التحرير والتنوير ، ج17 ، ص138
250 ابن القيم ،التفسير القيم ، ج2 ، ص 155

المبـــحث الرَّابع

سياق النص وأثره في توجيه مرجع الضمير.

المبحث الرابع :سياق النص وأثره في توجيه مرجع الضمير.

إنّ القرآن الكريم نزل بلغة العرب،يقول الله عزوجل:{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[الزخرف:1]ومن عادة العرب في كلامهم :الاختصار والاستغناء بالضمير عن تكرار الكلام، وإذا كان الضمير للغائب فلابد له من تقديم مفسر له في السياق ؛ لأنه كما قال أبوحيان : " ضمير المتكلم وضمير المخاطب تفسرهما المشاهدة ، وأما ضمير الغائب فعار عن المشاهدة ، فاحتيج إلى ما يفسره"[251]

وما يهمنا هاهنا هو إبراز دور السياق في تحديد مرجع "مفسر " الضمير ويتجلى ذلك من خلال تطبيقات المفسرين في هذا الباب ، ومن نماذج تطبيقات الشنقيطي في هذا الباب

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ﴾[الفرقان : 50]ذهب الشنقيطي إلى" أن الضمير في قوله:{وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ}، راجع إلى ماء المطر المذكور في قوله تعالى:{وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً}، كما روي عن ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة وغير واحد فيكون المعنى: ولقد صرفنا ماء المطر بين الناس فأنزلنا مطرًا كثيرًا في بعض السنين على بعض البلاد، ومنعنا المطر في بعض السنين عن بعض البلاد، فيكثر الخصب في بعضها، والجدب في بعضها الآخر" [252] ووافقه على هذا القول ابن كثير" [253] والطبري" [254] حيث قال الألوسي : الضمير للماء المنزل من السماء كالضميرين السابقين " [255] وهذا القول هو قول جمهور المفسرين .

وهناك من خالف فذهب إلى ":أن الضمير المذكور راجع إلى القرءان، كما روي عن عطاء الخراساني وصدّر به القرطبي حيث قال: قوله تعالى:{وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ}يعني القرآن،وقد جرى ذكره في أول السورة:قول ــه تعالى:{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ}[الفرقان:].وقوله:{لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي}[الفرقان:29]وقوله:{اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً}[الفرقان: 30].[256] وقد صدّر الزمخشري بما يقرب منه فقال :يجوز أن يريد بهذا القرآن إبطال إضافتهم إلى الله البنات؛ لأنه مما صرفه وكرّر ذكره " [257] ومال إليه أبو السعود في تفسيره وقال : هو الأظهر، وأخرج ابن المنذر.وابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني أنه عائد على القرآن ألا ترى قوله تعالى بعد:{ وجاهدهم بِهِ }[الفرقان : 52]"[258].

251أبو حيان ، التذييل والتكميل في شرح التسهيل ، ج2 ، ص 252
252أضواء البيان، ج 6، ص 63
253ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ،ج6 ، ص 115
254الطبري ،جامع البيان ، ج19 ، 279
255الألوسي ، روح المعاني ، ج14 ، ص 115
256القرطبي ،الجامع لأحكام القرآن ، ج13 ، ص 57
257الزمخشري ، الكشاف ، ج 3 ، ص 449
258الألوسي ، روح المعاني ، ج14 ، ص115

إن في ترجيح القول الأول؛وهو أن الضمير عائد إلى المطر، لدلالة قوية على استعمال المفسر للسياق اللغوي، وجعله مرجّحا عند ورود النزاع واختلا ف المفسرين ،عند ذاك يعتبر السياق أمارة على البيان وتعيين المراد .

قال الله تعالى :" ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[الحجر : 9] اختلف المفسرون في مرجع الضمير من قوله تعالى:وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" فذهب مجاهد وقتادة وغيرهما إلى أن الضمير عائد على الذكر لأنّه هو المصرّح به في الآية"[259]

فقوله:إنّا نحن نزلنا الذكر جواباً لقولهم :(يا أيها الذين نزل عليه الذكر) فأخبر الله عز وجل هو الذي نزل الذكر على محمد صلى الله عليه وسلم{وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} الضمير فيّ"له" يرجع إلى الذكر يعني ،وإنّا للذكر الذي أنزلناه على محمد لحافظون"[260]

وانتصر الشنقيطي لهذا القول فقال :"وهذا هو الصحيح في معنى هذه الآية أن الضمير في قوله:{وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} ،راجع إلى الذكر الذي هو القرآن، وقيلالضمير راجع إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم كقوله:{وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس}[المائدة :67] والأول هو الحق كما يتبادر من ظاهر السياق."[261]

وممّن أخذ بالقول الثاني الفرّاء وابن الأنباري، ولقد قوّى ابن الأنباري هذا الوجه بقوله:فقال:لمّا ذكر الله الإنزال والمنزل دل ذلك على المنزل عليه فحسنت الكناية عنه ،لكونه أمراً معلوماً كما في قوله تعالى:{ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر}[القدر: 1] فإن هذه الكناية عائدة إلى القرآن مع أنه لم يتقدم ذكره وإنما حسنت الكناية للسبب المعلوم فكذا هاهنا"ولكن الرازي بعد نقله لرأي ابن الأنباري عقّب فقال :إلا أنّ القول الأوّل أرجح القولين وأحسنهما مشابهة لظاهر التنزيل"[262]

-قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[النحل:100] اختلف في مرجع الضمير في قوله "به"فقيل أنّ مرجع الضمير هو إلى الله، وهذا القول قاله مجاهد بن جبر التابعي؛ فيكون المعنى والذين هم بالله مشركون"[263]

وممن تبع الإمام مجاهد بن جبر التابعي على قوله هذا الإمام الطبري. حيث جعل الشنقيطي قول مجاهد "أولى القولين في ذلك بالصواب ، وذلك أن الذين يتولون الشيطان إنما يشركونه بالله في عبادتهم وذبائحهم ومطاعمهم ومشاربهم، لا أنهم يشركون بالشيطان. ولو كان معنى الكلام ما قاله الربيع، لكان التنزيل: الذين هم مشركوه، ولم يكن في الكلام به ، فكان يكون لو كان التنزيل كذلك،والذين هم مشركوه في أعمالهم، إلا أن يوجِّه موجّه معنى الكلام ، إلى أن القوم كانوا يدينون بألوهة الشيطان ، ويشركون الله به في عبادتهم إياه، فيصحّ حينئذ معنى الكلام،

---

259 أبو حيان ، البحر المحيط ن ج2 ، ص 222
260الخازن ،لباب التأويل ، ج4 ، ص34
261أضواء البيان ، ج2 ، ص 256
262الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج9 ، ص 284
263الطبري ،جامع البيان ، ، ج17 ، ص 295

ويخرج عما جاء التنزيل به في سائر القرآن ، وذلك أن الله تعالى وصف المشركين في سائر سور القرآن أنهم أشركوا بالله ، ما لم ينزل به عليهم سلطانا، وقال في كلّ موضع تقدّم إليهم بالزجر عن ذلك ، لا تشركوا بالله شيئا، ولم نجد في شيء من التنزيل: لا تشركوا الله بشيء، ولا في شيء من القرآن. خبرا من الله عنهم أنهم أشركوا الله بشيء فيجوز لنا توجيه معنى قوله(وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) إلى والذين هم بالشيطان مشركو الله. فبين إذًا إذ كان ذلك كذلك ، أن الهاء في قوله(وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ) عائدة على الربّ في قوله(وَعَلَى رَبِّهِمْيَتَوَكَّلُونَ)".[264]

وقد ذكر الإمام الشنقيطي أنّ أظهر الأقوال في قوله:{وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ}،أن الضمير عائد إلى الشيطان لا إلى الله. ومعنى كونهم مشركين به هو طاعتهم له في الكفر والمعاصي؛ كما يدل عليه قوله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [يس:60]،وقوله عن إبراهيم: {يَاأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ}[مريم: 44]، إلى غير ذلك من الآيات" [265]وهذا القول الذي اختاره يتوافق مع ظاهر الآية، لتتحد الضمائر في قوله تعالى:{إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ}

قوله تعالى: ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا**﴾[الحج :78]اختار الشنقيطي في بيانه لهذه الآية، أنّ الضمير يعود على لفظ الجلالة" لأنّ الأفعال كلها في السياق المذكور راجعة إلى الله، لا إلى إبراهيم فقوله{هُوَ اجْتَبَاكُمْ} أي الله وما جعل عليكم في الدين من حرج: أي الله هو سماكم المسلمين: أي الله.وهذا القول مروى عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وعطاء، والضحاك، والسدي، ومقاتل بن حيان، وقتادة. كما نقله عنهم ابن كثير."[266]

ومال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم إلى أنّ الضمير في قوله:{ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَمِنْقَبْلُ}يعني: إبراهيم،وذلك لقوله:{رَبَّنَاوَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةًمُسْلِمَةً لَكَ}[البقرة: 128].قال ابن جرير:وهذا لا وجه له؛ لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسمّ هذه الأمة في القرآن مسلمين، وقد قال الله تعالى:{ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا }"[267]

فإن قيل: الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور للضمير المذكور: هو إبراهيم. فالجواب: أن محلّ رجوع الضمير إلى أقرب مذكور محلّه ما لم يصرف عنه صارف، وهنا قد صرف عنه صارف، لأن قوله وفي هذا يعني القرآن، دليل على أن المراد بالذي سماهم المسلمين فيه: هو الله لا إبراهيم، وكذلك سياق الجمل

264المرجع نفسه ، ج17 ، 296
265أضواء البيان ، ج2 ، ص444
266أضواء البيان ، ج5 ، ص 302
267ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج5 ، ص 456

المذكورة قبله نحو {هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}[الحج: 78] يناسبه أن يكون هو سماكم: أي الله المسلمين."[268]

-قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾[الزخرف: 88].ذكر الشنقيطي أن"التحقيق في مرجع الضمير في{قِيلِهِ} ، للنبي صلى الله عليه وسلم .والدليل على ذلك، أن قوله بعد:{فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ}[الزخرف: 89], خطاب له صلى الله عليه وسلم بلا نزاع، فادعاء أن الضمير في {قِيلِهِ} لعيسى لا دليل عليه ولا وجه له."[269]

وقد نصر هذا المعنى "ابن كثير" حيث قرّر أن النبي صلى الله عليه وسلم "شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يا رب، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى في الآية الأخرى:{وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا}[الفرقان: 30] وهذا الذي قلناه هو معنى قول ابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وعليه فسّر ابن جرير ".[270]

قال الله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾[الإسراء:69].ضمير "به" قيل للإرسال وقيل : للإغراق وقيل : لهما باعتبار ما وقع ونحوه كما أشير إليه وكأنّه سبحانه لما جعل الغرق بين الإعادة إلى البحر انتقاما في مقابلة الكفر عقّبه تعالى بنفي وجدان التبيع فكأنه قيل ننتقم من غير أن يقوم لنصركم فهو وعيد على وعيد وجعل ما قبل من شق العذاب كمس الضر في البحر عقّبه بنفي وجدان الوكيل فكأنه قيل لا تجدون من تتكلون عليه في دفعه غيره تعالى لقوله سبحانه ضل من تدعون إلا إياه"[271]

إلا أنالشنقيطي رجّح " أن الضمير في قوله{بِهِ تَبِيعًا}راجع إلى الإهلاك بالإغراق المفهوم من قوله {فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ}، أي: لا تجدون تبيعاً يتبعنا بثأركم بسبب ذلك الإغراق.[272]وقد أيّده الطبري في تفسيره لهذه الآية ناقلا عنالإمام قتادة بن دعامة السدوسي قال(فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ)يقول:فيغرقكم الله بهذه الريح القاصف بما كفرتم، يقول: بكفركم به(ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا) يقول: ثم لا تجدوا لكم علينا تابعا يتبعنا بما فعلنا بكم،ولا ثائرا يثأرنا بإهلاكنا إياكم"[273] وعن ابن عباس في تفسير القاصف فقال:القاصف من الريح ،الريح التي تغرق"[274]

268أضواء البيان ، ج5 ، ص 302
269 أضواء البيان ، ج7 ، ص 169
270ابن كثير ،تفسير القرآن العظيم ، ج7 ، ص244
271المرجع نفسه ، ج11، ص 21
272أضواء البيان ، ج3، ص175
273الطبري ،جامع البيان ، ج 17 ، ص 499
274الألوسي ، روح المعاني ، ج11، ص 21

إن السياق القرآني لهذه الآية ،وإن كان يحتمل عودة الضمير إلى الإرسال في قوله تعالى:"فيرسل عليكم قاصفا من الريح "ويحتمل العودة إلى قوله تعالى:" فيغرقكم بما كفرتم" إلا أنّ السياق فيه ما يساعد على الوجه الأول فإن قوله تعالى:{ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا}أي مطالبا يتبعنا بثأركم أي بإهلاككم ثم إن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور قوله تعالى:{فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ}

قوله تعالى:﴿ألا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ألا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[هود:5] رجّح الإمام الشنقيطي مرجع الضمير في قوله تعالى {ليستخفوا منه }"إلى الله وقال بأنه أظهر القولين"[275]ونصر هذا القول "ابن كثير "، فقال :عود الضمير على الله أولى لقوله تعالى:{ألا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ } وتبعه على هذا الألوسي فقال: لكن ظاهر قوله تعالى الآتي : { يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ }يقتضي عود الضمير إليه تعالى ".[276]ورأى جماعة من المفسرين رأيا آخره وهو أن الضمير في قوله منه راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أي أنهم يثنون صدورهم على عداوة النبي صلى الله عليه وسلم، ليخفوها عنه قاله الفراء والزجاج"[277]
وقد تعقّب الإمام الطبري هذا القول، مرجّحا أن الضمير عائد على الله تبارك وتعالى، وأن الهاء في قوله،(منه) ، عائدة على اسم الله، ولم يجر لمحمّدٍ ذكر قبلُ ، فيجعل من ذكره صلى الله عليه وسلم وهي في سياق الخبر عن الله. فإذا كان ذلك كذلك ، كانت بأن تكون من ذكر الله أولى. وإذا صحّ أن ذلك كذلك، كان معلومًا أنهم لم يحدِّثوا أنفسهم أنهم يستخفون من الله ، إلا بجهلهم به".[278]

قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً ﴾[طه : 106-107].ذكر الشنقيطي أنّ الضمير في قوله:{فَيَذَرُهَا}فيه وجهان:أحدهما: أنه راجع إلى الأرض وإن لميجر لها ذكر. ونظير ه ـذا القول في هذه الآية ق ـوله تعالى:{مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْـرِهَا مِنْ دَابـةٍّ}[فاطر: 45]،وقوله:{مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ}[النحل:61] فالضمير فيهما راجع إلى الأرض ولم يجر لها ذكر والثاني: أنه راجع إلى منابت الجبال التي هي مراكزها ومقارها لأنها مفهومة من ذكر الجبال. والمعنى: فيذر مواضعها التي كانت مستقرة فيها من الأرض قاعاً صفصفاً"[279]
والسياق الذي وردت فيه هذه الآية الكريمة، يحتمل كلا المعنيين، حيث يعود إلى الجبال باعتبار أجزائها السفلى الباقية بعد النسف ، ويصح أن يعود إلى الأرض المدلول عليها بقرينة الحال،لأنها هي الباقية بعد قلع الجبال"[280]

275أضواء البيان ، ج 2 ، ص 173
276الألوسي ، روح المعاني ، ج8 ، ص 151
277الماوردي ، النكت والعيون ، ج2 ، ص189
278الطبري ،جامع البيان ، ج15 ، ص 238
279أضواء البيان ، ج4 ، ص98
280محمد سيد طنطاوي ، تفسير الوسيط ، ج 3، ص 222

والشنقيطي أوردهما وجعلهما وجهين معروفين عند العلماء ،ووجّه القول القائل بعودة الضمير إلى الأرض، "أن هذا أسلوب قرآني نزل به الذكر الحكيم ،وهو أن يعود الضمير إلى شيء لم يجر له ذكر، وله في كتاب الله نظائر وشواهد كقوله تعالى:{حتى توارت بالحجاب}[ص: 32] أي الشمس"ولكنها تفهم من سياق الكلام وذكر العشي يقتضيها" [281] ونظيره قوله تعالى:{مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ}أي الأرض وقوله تعالى:{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}[الرحمن:26]

قوله تعالى:﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾[مريم : 24].

اختلف المفسرون في بيان المنادى في قوله تعالى:{فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا} هل هو عيسى عليه السلام أو جبريل عليه السلام؟، فذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنّه جبريل، ولم يتكلم حتى أتت به قوما، وممّن تبعه على هذا سعيد بن جبير، والضحاك وعمرو بن ميمون، والسدي،وقتادة: إنّه الملك جبريل عليه الصلاة والسلام، أي: ناداها من أسفل الوادي. وقال مجاهد:{ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا }قال: عيسى ابن مريم" [282] وقد انتصر للقول الثاني الإمام الطبري وتبعه على هذا الشنقيطي فقال: أظهر القولين عندي أن الذي ناداها هو ابنها عيسى، وتدل على ذلك قرينتان: الأولى ـ أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه، وأقرب مذكور في الآية هو عيسى لا جبريل.لأن الله قال{فَحَمَلَتْهُ}يعنيعيسى{فَانْتَبَذَتْ بِهِ}، أي بعيسى.ثم قال بعده:{فناداها}فالذي يظهر ويتبادر من السياق أنه عيسى. والقرينة الثانية: أنها لما جاءت به قومها تحمله، وقالوا لها ما قالوا أشارت إلى عيسى ليكلموه. كما قال تعالى عنها:{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً}[مريم:29]، وإشارتها إليه ليكلموه قرينة على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم على سبيل خرق العادة لندائه لها عندما وضعته. وبهذه القرينة الأخيرة استدل سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه على أنه عيسى. كما نقله عنه غير واحد" [283] ويبدو أن ما ذهب إليه ابن جرير من كون الذي نادى مريم هو ابنها عيسى ، أقرب إلى الصواب، لأن هذا النداء منه لها في تلك الساعة ، فيه ما فيه من إدخال الطمأنينة والسكينة على قلبها ." [284] **قوله تعالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾[القصص: 39]** ذهب الإمام الشنقيطـيإلى أنّ معنى{أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ}أي: ضعيه في الصندوق.والضمير في قوله:{أَنِ اقْذِفِيهِ} راجع إلى موسى بلا خلاف. وأما الضمير في قوله {فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ} وقوله {فَلْيُلْقِهِ} فقيل: راجع إلى التابوت. والصواب رجوعه إلى موسى في داخل التابوت، لأن تفريق الضمائر غير حسن" [285]

281ابن جزي ، التسهيل لعلوم التنزيل ، ج3 ن ص 111
282ابن كثير ،تفسير القرآن العظيم ، ج5 ، ص 224
283أضواء البيان ، ج3 ، ص294
284محمد سيّد طنطاوي ، تفسير الوسيط ، ج4 ن 122
285أضواء البيان ، ج4 ، ص 9

ثم إنّ السياق القرآني لهذه الآية يقتضي أن ترجع "الضمائر كلها لموسى عليه السلام؛ إذ هو المحدَّث عنه، والمقذوف في البحر، والملقى بالساحل، وإن كان هو التابوت أصالة، لكن لما كان المقصود بالذات ما فيه، جعل التابوت تبعاً له في ذلك" [286]
وهذا القول هو الأرجح،لأن تفريق الضمائر هنا لا داعي له ، بل الذي يقتضيه بلاغة القرآن الكريم ، عودة الضمائر إلى موسى - عليه السلام –"[287]
وجعل الضمائر عائدة على موسى عليه السلام أولى لمراعاة النظم ،"لأن رجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت يفضي إلى تناثر النظم، والمقذوف في البحر والملقى إلى الساحل وإن كان هو التابوت، لكن موسى في جوف التابوت" [288].قال جار الله : الضميران الباقيان في قوله {فاقذفيه في اليم فليلقه } عائدان إلى موسى أيضاً، لئلا يؤدي إلى تنافر النظم ، فإن المقذوف والملقى إذا كان موسى وهو في جوفللتابوت لزم أن يكون التابوت مقذوفاً و ملقى،ويؤيّده أن الضمير في قوله (عدُّو له) لموسى بالضرورة لأن عداوة التابوت غير معقولة."[289]

وقوله تعالى: ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[الزخرف: 58] نقل الإمام الشنقيطي " أن الضمير في قوله: {هُوَ}راجع إلى عيسى، لا إلى محمد عليهما الصلاة والسلام."[290]
وممّا يدلّل على ما ذهب إليه؛ كون الآية التي قبلها تتناول الحديث عن عيسى عليه السلام،وعن موقف المشركين منه قال تعالى :{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يصدون وقالوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ }[**الزخرف : 57-58**] فإنّ دلالة السياق والسباق فيهما إشارة إلى أنه عيسى عليه السلام هو المعني بالضمير، وقد رأى الإمام الطنطاوي أنّ الضمير "هو" يعود الى عيسى عليه السلام ومرادهم بالاستفهام تفضيل عيسى - عليه السلام - على آلهتهم، مجاراة للنبي - صلى الله عليه وسلم - [291]
وممن رجّح هذا القول ونصره الامام الثعالبي قائلا :وقالتْ فرقةٌ : المراد بـ { هُوَ } محمَّد صلى الله عليه وسلم وهو قولُ قتادة ، وفي مصحف [أُبَيٍّ] :«خَيْرٌ أَمْ هَذَا» فالإشارة إلى نِبِيِّنا محمد عليه السلام ،وقال ابن زيد وغيره:المراد بـ{هُوَ}عيسى، وهذا هو الراجح" [292]

---

286 إسماعيل حقي بن مصطفى الإسطنبولي الحنفي الخلوتي ،روح البيان ،دار النشر / دار إحياء التراث العربي، ج5 ، ص 294
287تفسير الوسيط ، ج3 ، ص 283
288 النسفي ،مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، ج2 ، ص294
289 نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1416 هـ - 1996 ، ج5 ، ص290
290أضواء البيان ، ج7 ، ص 126
291الوسيط ، 4 ، ص 380
292 عبدالرحمن الثعالبي ،الجواهر الحسان، تحقيق أبو محمد الغماري الإدريسي الحسني ، دار الكتب العلمية ،بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1996م، ج3 ، ص405

ثم إن تناسق الضمائر وانتظامها وعودها لواحد من دون تفريق الضمائر هو الأصل الذي لاينبغي العدول عنه . قال أبو حيان " والظاهر أن الضمير في أم هو لعيسى ، لتتناسق الضمائر في قوله:{ إن هو إلاّ عبد}".[293]
لقد حاول الشنقيطي أن يجعل دلالة الضمير في هذه الآية متفقة مع الآيات التي قبله، حتى يضمن بذلك وحدة المقطع في النص القرآني .

293أبو حيّان ، البحر المحيط ، ج10 ص 23

المبحث الخامس

السياق النحوي وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

المبحث الخامس :
السياق النحوي وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

تمهيد:

النحو " إعراب الكلام العربي " قاله ابن منظور، وقال :" الإعراب: هو الإبانة يقال : أعرب
يقال:أعرب عنه لسانه وعَرَب، اي : أبان وأفصح . ويقال : أعرب عما في ضميرك ، أي : أبن . وأعرب الكلام ، وأعرب به : بيّنه . وعرّب منطقه ، أي : هذّبه من اللحن . الإعراب الذي هو النحو:إنما هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ "[294]
لقد عدّ النحو من جملة العلوم التي يحتاج إليه المفسر ،لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب ،فلابد من اعتباره .
يؤكّد الإمام مكي ابن أبي طالب القيسي ، مؤلّف كتاب (مشكل إعراب القرآن) على أهميّة الإعراب ، سواء على مستوى القراءات،أو معرفة المعاني والتفسير، حتى يجعله من أعظم ما يجب تعلمه ، فيقول : " رأيت من أعظم ما يجب على طالب علوم القرآن ، الراغب في تجويد ألفاظه وفهم معانيه ومعرفة قراءاته ولغاته ، وأفضل ما القارئ إليه محتاج : معرفة إعرابهوالوقف على حركاته وسواكنه ، ليكون بذلك سالما من اللحن فيه ، مستعينا على إحكام اللفظ به ، مطلعا على المعاني التي قد تختلف باختلاف الحركات ، متفهما لما أراد الله تبارك وتعالى به من عباده" ويضيف موضّحا :" بمعرفة الإعراب تعرف أكثر المعاني وينجلي الإشكال، وتظهر الفوائد، ويفهم الخطاب ، وتصح معرفة حقيقة المراد "[295]

المطلب الأول :
السياق النحوي وأثره في التوجيه الإعرابي.

إن من يقرأ كتب النحاة، بعناية، يجد فيها التفاتات سياقية مهمة، إذ نراهم يحللون التراكيب اللغوية، مراعين في ذلك الجمل السابقة واللاحقة، ودورهما في الكشف عن الوجه الإعرابي، فضلاً عن حال المتكلم ، والمخاطب ، والظروف الملابسة ، مما يساعدهم في التحليل الدقيق للكلام.
وقد أفاد الإمام الشنقيطي كثيرا من سياق النحو في توجيه الإعراب ، فلقد ساق كثيرا من المسائل الإعرابية في تفسيره خلال تعرضه لإعراب الآيات القرآنية، فتراه ينصر وجها معيّنا على وجه آخر، ويرجّح قولا على غيره، مستندا في ذلك إلى ما قرّره أئمة النحو في كتبهم، وما يتوافق مع السياق القرآني .

294ابن منظور ، لسان العرب ، ط 1 بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، 1408 هـ 1988 ، ج1 ، ص90 ، مادة عرب
295خالد بن عبد الرحمن العك ،أصول التفسير وقواعده، . دار النفائس، بيروت ط: الثانية 1406هـ. ، ص157

قال الله تعالى:﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[النحل: 5]ذكر المفسرون أوجها في ناصب قوله تعالى " والأنعام " أمّا الزمخشري [296] وابن عطيّة[297] فعلّلا وجه النصب في قوله "والأنعام" لكونها عطفت على "الإنسان" فيكون "خلقها" على هذا "مؤكدا" وعلى الأول "مفسرا ،ورجّح الشنقيطي إعراب قوله :"والأنعام "بأنها منصوبة على الاشتغال وأن عامله وهو{خَلَقَ}، اشتغل عنه بالضمير فنصب بفعل مقدر وجوباً يفسره{خَلَقَ} المذكور، على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

فَالسَّابِقُ انْصِبْهُ بِفِعْلٍ أُضْمِرَا حَتْمًا مُوَافِقٍ لِمَا قَدْ أَظْهَرَا

وإنّما كان النصب هنا أرجح من الرفع؛ لأنه معطوف على معمول فعل، وهو قوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ}الآية[النحل : 4]، فيكون عطف الجملة الفعلية على الجملة الفعلية أولى من عطف الإسمية على الفعلية لو رفع الاسم السابق؛ وإلى هذا أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله عاطفاً على ما يختار فيه النصب:

وَبَعْدَ عَاطِفٍ بِلَا فَصْلٍ عَلَى مَعْمُولِ فِعْلٍ مُسْتَقِرٍّ أُوِّلَا "[298]

وهذا الذي اختاره الشنقيطي، اختاره السمين الحلبي "، [299] والألوسي،حيث قال الألوسي: نُصِب على الاشتغال وهو أرجح من الرفع، لتقدم جملة فعلية ".[300]

إنّ الذي جعل الشنقيطي يختار هذا وجه النصب على الاشتغال،هو نظره للسياق النحوي، الذي جاءت من خلاله الآية والتركيب البنائي للآية القرآنية ،حيث يقتضي السياق أن يكون عمل النصب بسبب العطف.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴾[النحل:45]نقل الشنقيطي اختلاف العلماء في إعراب{السَّيِّئَاتِ}، في هذه الآية الكريمة؛ "فقال بعض العلماء: نعت لمصدر محذوف؛ أي: مكروا المكرات السيئات، أي: القبيحات قبحاً شديداً؛ كما ذكر الله عنهم في قوله:{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ} الآية[الأنفال : 30] ، وقال بعض العلماء: مفعول به لـ {مَكَرُوا} على تضمين{مَكَرُوا}، معنى فعلوا. "وقد جعل القول القائل بأنه مفعول به على تضمين الفعل مكروا معنى فعلوا هو الأقرب فقال " وهذا أقرب أوجه الإعراب عندي." فيكون المعنى " أفأمن الذين عملوا بالفساد،يعني:عبادة الأوثان ، وهم مشركو مكّة" [301]ثم إن السياق القرآني في بيان "حلم الله وإمهاله وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها،

---

296 الزمخشري ، الكشاف ، ج 2، ص222
297ابن عطية ، المحرر الوجيز، ج2 ، ص326
298أضواء البيان ، ج2 ص 333
299ا السمين الحلبي ، لدر المصون ،ج2 ، ص330
300 الألوسي ، روح المعاني ، ج4، ص 250
301أضواء البيان ، ج2 ، ص381

ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على { أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ }"[302]

لقد لجأ الإمام الشنقيطي إلى تضمين الفعل" مكروا" معنى فعلوا وعملوا؛ لأن الفعل "مكروا" لازم، لا يتعدى إلا إذا ضمّن معنى فعل يتعدى، عند ذاك يكون متعديا فيأخذ حكمه آنذاك، حتى يظهر بذلك فظاعة جرم المشركين ،وقبح فعالهم، ويكون الذم أبلغ وأوكد، بسبب إقدامهم على مايسوءهم.

قوله تعالى:﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[الإسراء:3]كلمة ذريّة:

اضطربت أقوال المعربين في نصبها المتفّق عليه بين القراء جميعا فقيل:"نصبت على الاختصاص وبه بدأ الزمخشري وقيل على النداء وقيل بدل من وكيلا وقيل مفعول ثان لتتخذوا"[303]

أما الإمامالشنقيطي فاختار أن "ذريّة "هي منادى بحرف محذوف" [304] وارتضاه من المتقدمين مجاهد بن جبر التابعي." [305]لأنّ السياق القرآني يخاطب ذرية نوح بقوله لهم قبل هذه الآية{أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلاً}[الإسراء: 2] والمعنى :ولا تتخذوا من دوني وكيلا {ذُرِّيَّةَ}يا ذرية من حملنا مع نوح " [306]وهذا النداء مقصود به تحريضهم على شكر نعمة الله واجتناب الكفر باتخاذ شركاء دونه "وفيه تهييج وتنبيه على المنّة . والإنعام عليهم في إنجـاءآبائهم من الغرق بحملهم مع نوح في السفينة .وإيماء إلى علة النهي .كأنه قيل : لا تشركوا به، فإنه المنعم عليكم والمنجي لكم من الشدائد .وأنهم ضعفاء محتاجون إلى لطفه ."[307]

ثم إنّ هناك آيات قرآنيةٍ تناظرها في هذا الوجه ،قد جاءت ونصب آل فرعون على هذه القراءة بالنداء المضاف كما قال تعالى ذرية من حملنا يريد والله أعلم يا ذرية من حملنا مع نوح"[308]

وفي توجيه النداء؛ يقول الواحدي : وإنما يصحّ هذا على قراءة من قرأ بالتاء كأنّه قيل لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا مع نوح في السفينة قال قتادة : الناس كلهم ذرية نوح لأنه كان معه في السفينة ثلاثة بنين : سام وحام ويافث فالناس كلهم من ذرية أولئك ، فكان قوله : يا ذرية من حملنا مع نوح ، قائماً مقام قوله:{أَيُّهَا الناس}"[309]وهذا يدلُّ على أنه ذهب إلى أنه منصوبٌ على النداء.وممّا يرجّح إعراب ذريّة على الاختصاص أو النداء قول الزمخشري في إعراب جملة:«إنه كان عبدا شكورا» أنها تعليلية لاختصاصهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح فكأنه قيل:«لا

302تفسير ابن كثير ، ج4 ، ص 575

303إعراب القرآن وبيانه ، ج5 ، ص391

304أضواء البيان ،ج 3 ، ص14

305ا السيوطي ، الدر المنثور ، ج6 ، ص260

306الواحدي ، الوجيز ، ج 1 ، ص441

307 محمد جمال الدين القاسمي ، محاسن التأويل المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر: عيسى البابي الحلبي،سنة النشر: 1376 – 1957 ج ،ص 323

308ابن خالويه،الحجة في القراءات السبع، ج1 ، ص 315

309 الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج10 ، ص1

تتخذوا من دوني وكيلا ولا تشركوا بي لأن نوحا عليه السلام كان عبدا شكورا وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم» وهذه فطنة من الزمخشري تسترعي الانتباه وتستحق الإعجاب.[310]

قوله تعالى:﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾[المائدة : 89] اختلف المفسّرون في بيان وجه إعراب "ما "في قوله تعالى : {بِمَا عَقَّدْتُمُ }هل هي مصدرية أو موصوليّة، فذهبت طائفة من المفسرين إلى أنّها موصوليّة "والعائد محذوف .أي ولكن يؤاخذكم بالذي عقّدتم الأيمان عليه ".[311]

وذهب جمع آخر إلى أنّها مصدرية؛ومنهم الإمام الشنقيطي حيث رجّح مصدريّتها فقال: {مَا}في قوله: {بِمَا عَقَّدْتُمُ} مصدرية على التحقيق لا موصولة، كما قاله بعضهم، زاعماً أن ضمير الرابط محذوف." [312] فيكون المعنى "ولكن يؤاخذكم بتعقيدكم الأيمان وتوثيقها عليه بالقصد والنية "[313]

وممّن انتصر لهذا الرأي أبوحيّان في البحر المحيط فقال "وكذلك هنا الأولى أن تكون ما مصدرية،ويقوي ذلك ويحسنه المقابلة بعقد اليمين للمصدر الذي هو باللغو في أيمانكم ، لأن اللغو مصدر، فالأولى مقابلته بالمصدر لا بالموصول".[314]

قوله تعالى:﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾.[مريم:16]

ذكر المعربون من أهل اللغة أن "في "إذ" أوجه: أحدها أنّها منصوبة بـ "اذكر" على أنّها خرجت عن الظرفيّة إذ يستحيل أن تكون باقية على مضيّها، والعامل فيها ما هو نصّ في الاستقبال، والثاني أنها منصوبة بمحذوف مضاف لمريم، تقديره واذكر خبر مريم أو نبأها إذ انتبذت فإذ منصوبة بذلك الخبر أو النبأ، الثالث أنها بدل من مريم بدل اشتمال قال الزمخشري: لأن الأحيان مشتملة على ما فيها لأن المقصود بذكر مريم ذكر وقتها لوقوع هذه القصة العجيبة فيه".[315]

وقد رجّح الشنقيطي أن"{إذ} {مريم} بدل اشتمال، لأن الأحيان مشتملة على ما فيها اشتمال الظرف على مظروفه. قاله الزمخشري في الكشاف"[316]

واستبعد أبو البقاء قول الزمخشري قال :لأنّ الزمان إذا لم يكن حالاً عن الجثة ولا خبراً عنها ولا وصفاً لها لم يكن بدلاً منها ثم تعقّب أبوحيّان أبا البقاء بقوله :واستبعاده ليس بشيء لعدم الملازمة."[317]

قوله تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾[يسن : 6] تباينت أقوال المفسرين في بيان توجيه دلالة "ما" في هذه الآية، فذهبت طائفة منهم إلى أنها يجوز

310محي الدين درويش ، إعراب القرآن وبيانه ، ج5 ، ص391

311 محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الطبعة الثالثة 1407 هـ 1978 م ص 1351

312أضواء البيان ج1، ص420

313 محمد جمال الدين القاسمي ، محاسن التأويل ، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر: عيسى البابي الحلبي،سنة النشر: 1376 - 1957ج 2، ص 123

314أبوحيان ، البحر المحيط ، ج5 ، ص13

315إعراب القرآن وبيانه ، ج6 ، ص77

316أضواء البيان ،ج3 ،ص 385

317أبو حيّان ، البحر المحيط ، ج 8 ، ص 19

أن تكون " ما" هذه بمعنى الذي، ويجوز أن تكون نكرة موصوفة .والعائد على الوجهين مقدر أي :ما أنذره آباؤهم فتكون ما وصلتها أو وصفها في محل نصب مفعولا ثانيا لقوله : لتنذر كقوله{إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً}[النبأ: 65]والتقدير: لتنذر قوما الذي أنذره آباؤهم، ويجوز أن تكون مصدرية أي:إنذار آبائهم أي مثله.ويجوز أن تكون نافية وتكون الجملة المنفية صفة لـ(قوما) أي قوما غير منذر آباؤهم "[318] وقد ارتضى وجه كونها نافية الشنقيطي، وجعله هو الصحيح فإنّ "ممّا يدلّل على ذلك ترتيبه بالفاء عليه قوله بعده{فَهُمْ غَافِلُونَ}لأنّ كونهم غافلين يناسب عدم الإنذار لا الإنذار وهذا هو الظاهر مع آيات أخر دالة على ذلك" [319]فتكون دلالتها على وفق النفي أي أنه لم يرسل إليهم ولا لآبائهم رسول ينذرهم وقد رجّح ابن جزي [320] هذا الوجه،وتبعه على هذا أغلب المفسرّين، وهو قول قتادة ،والزجّاج.

إنّ السياق القرآني يؤيّد هذاالوجه ويدعمه دعما قويا ،فقد جاءت آيات تعضد هذا المعنى ،قال الله تعالى:{وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ}[سبأ:44] فأمّة العرب ضلت فترة طويلة من الزمن؛ بغير نبي يرسل إليهم أو كتاب ينزل عليهم "[321] ثم إنّ لحاق الآية مترتب على ماقبله، وملائم له .

قوله تعالى:﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: 7].نقل الشنقيطي في قوله تعالى:وما يعلم تأويله إلا الله "أن الواو استئنافية لا عاطفة ،لدلالة الاستقراء في القرآن أنّه تعالى إذا نفى عن الخلق شيئا وأثبته لنفسه، أنه لا يكون له في ذلك الإثبات شريك كقوله:{قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ}[القصص: 65]،وقوله:{لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ}[الأعراف:187]،وقوله:{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}[القصص: 88]، فالمطابق لذلك أن يكون قوله:{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}، معناه: أنه لا يعلمه إلا هو وحده كما قاله الخطّابي وقال: لو كانت الواو في قوله: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} للنّسق، لم يكن لقوله:{كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}، فائدة والقول بأن الوقف تام على قوله:{إِلَّا اللَّهَ}،وأن قوله: {وَالرَّاسِخُونَ}،ابتداء كلام هو قول جمهور العلماء للأدلة القرآنية التي ذكرنا."[322]فالكلام قد تم عند قوله : إلا الله ، ومعناه أن الله استأثر بعلمه تأويل المتشابه ، وهو قول ابن مسعود ، وأبي ، وابن عباس ، وعائشة ، والحسن وعروة ، وعمر بن عبد العزيز، وأبي نهيك الأسدي ، ومالك بن أنس، والكسائي ، والفراء،والجلبائي ، والأخفش، وأبي عبيد."[323]

وقد وافق الشنقيطيَّ على هذا القول الرازيُّ فجعل الوقف والوقف ههنا واجب لوجوه.أحدها:أن قوله تعالى:{والراسخون فِي الْعِلْمِ}[آل عمران: 7] لو كان معطوفاً

318الدر المصون، ج 9 ، 246

319أضواء البيان ،ج6، ص286

320ابن جزي، التسهيل ، ج 3ص 163

321 محمد عبد اللطيف بن الخطيب ، أوضح التفاسير، الناشر: المطبعة المصرية ومكتبتها ، سنة النشر: 1383 - 1964 ،ط: 6 ، ص 536

322أضواء البيان، ج1 ،ص192

323أبوحيان ، البحر المحيط ،ج3، ص 157

على قوله :{إلا اللّهَ} لبقي{يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِه }منقطعاً عنه وأنه غير جائز لأنه وحده لا يفيد ، لا يقال أنه حال ،لأنا نقول حينئذٍ يرجع إلى كل ما تقدم ، فيلزم أن يكون الله تعالى قائلاً آمنا به كل من عند ربنا وهذا كفر. وثانيها:أن الراسخين في العلم لو كانوا عالمين بتأويله لما كان لتخصيصهم بالإيمان به وجه ، فإنهم لما عرفوه بالدلالة لم يكن الإيمان به إلا كالإيمان بالمحكم، فلا يكون في الإيمان به مزيد مدح وثالثها : أن تأويلها لو كان مما يجب أن يعلم لما كان طلب ذلك التأويل ذماً ، لكن قد جعله الله تعالى ذماً حيث قال: {فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـابَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِه}[آل عمران:7][324].

قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً** ﴾[مريم:33]إنّ الفتحة في قوله:{يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً}، يحتمل أن تكون في الظروف الثلاثة فتحة إعراب نصباً على الظرفية. ويحتمل أن تكون فتحة بناء لجواز البناء في نحو ذلك .

وقد اختار الشنقيطي أن تكون فتحة بناء فقال :"والأجود أن تكون فتحة{يوم ولد} فتحة بناء، وفتحة {وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ} فتحة نصب؛ لأن بناء ما قبل الفعل الماضي أجود من إعرابه وإعراب ما قبل المضارع، والجملة الاسمية أجود عن بنائه، كما عقده في الخلاصة بقوله:

وَابْنِ أَوْ أَعْرِبْ مَا كَإِذْ قَدْ أُجْرِيَا وَاخْتَـــرْ بِنَـا مَتْلُوِّ فِعْـلٍ بُنِيَا
وَقَبْلَ فِعْلٍ مُعْرَبٍ أَوْ مُبْتَـدَا أَعْرِبْ وَمَـــنْ بَنَى فَلَنْ يُفَنَّـــدَا"[325]

إن الذي اختاره الشنقيطي من كون الظرف إن كان ما وليه فعلا مبنيا فالبناء أرجح للتناسب

وإن كان معربا أعرب هذا هو الذي يستقيم مع الكلام ويلتئم معه.

المطلب الثاني :

السياق النحوي وأثره في إزالة الإشكال القرآني.

للسياق النحوي أثر كبير في دفع الإشكالات الواردة على كلام الله من جهة النحو، فتجد المفسّر يرجع إلى لغة العرب، وما قرّره أئمتها من أصول وقواعد، فيحتكم إليها ويرد النّزاع الذي يتبادر إلى الأذهان من أول وهلة، فيتضح وجه الحق في المسألة بعد أن كانت ملتبسة، وقد أفاد الشنقيطي من هذا النوع في تفسيره نذكر طرفا منها .

في قوْله تَعَالَى:﴿**فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ** ﴾.[القمر:29]

هذه الآية الكريمة تشير إلى إزالة إشكال معروف في الآية، وإيضاح ذلك أن الله تعالى، فيها نسب العقر لواحد لا لجماعة، لأنّه قال:{فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}، بالإفراد مع أنّه أسند عقر الناقة في آيات أخر إلى ثمود كلهم كقوله في سورة الأعراف:{فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ} [الأعراف: 77]،وقوله تعالى فيهود:{فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ}[هود: 65],وقوله في الشعراء:{فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا

324 الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج1، ص179
325أضواء البيان، ج3 ،ص 382

نَادِمِينَ}[الشعراء:157]،وقوله في الشمس:{فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا}[الشمس: 14].ووجه إشارة الآية إلى إزالة ه ـذا الإشكال هو" أن قوله تعالى:{فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} يدل على أنّ ثمود اتفقوا كلّهم على عقر الناقة، فنادوا واحدا منهم لينفّذ ما اتفقوا عليه، أصالة عن نفسه ونيابة عن غيره. ومعلوم أن المتمالئين على العقر كلهم عاقرون، وصحّت نسبة العقر إلى المنفّذ المباشر للعقر، وصحّت نسبته أيضا إلى الجميع، لأنّهم متمالئون كما دلّ عليه ترتيب تعاطي العقر بالفاء في قوله: {فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} على ندائهم صاحبهم لينوب عنهم في مباشرة العقر في قوله تعالى:{فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ} أي نادوه ليعقرها"[326]

ولا تعارض بين هذه الآية التى تثبت أنّ الذى عقر الناقة هو ه ـذا الشقي ، وبين الآيات الأخرى التي تصرّح بأنّهم هم الذين عقروها ، كـما في قولهتعالى :

{ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ }لأنّ المقصود أنّ القوم قد اتفقوا على هذا القتل للناقة ، فنادوا واحدا منهم لتنفيذه ، فنفّذه وهم له مؤيّدون ، فصاروا كأنّهم جميعا عقروها ، لرضاهم بفعله ثم إنّهذه الصيغة " تعاطى " تشير إلى تعدد الفاعل ، فكأن هذا النداء بقتل الناقة ، تدافعوه فيما بينهم ، وألقاه بعضهم على بعض ، فكان كل واحد منهم يدفعه إلى غيره"[327]

وجمع بعض العلماء بين هذه الآيات بوجه آخر، وهو أن إطلاق المجموع مرادا به بعضه أسلوب عربي مشهور، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب.

وقوله تعالى:﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾[مريم: 66] في هذه الآية الكريمة إشكال وهوأنّ "لام الابتداء الداخلة على المضارع تعطي معنى الحال، فكيف جامعت حرف التنفيس الدال على الاستقبال؟

فأجاب الشنقيطي :"أن اللام هنا جرِّدت من معنى الحال، وأخلصت لمعنى التوكيد فقط. ولذلك جامعت حرف الاستقبال كما بيّنه الزمخشري في الكشاف، وتعقّبه أبو حيّان في البحر المحيط بأن من علماء العربية من يمنع أن اللام المذكورة تعطي معنى الحال، وعلى قوله: يسقط الإشكال من أصله."[328]

وإنّما جرّدت اللام من معناها لتلائم "سوف" دون أن تجرد "سوف" من معناها لتلائم اللام لأنه لو عكس هذا للغت "سوف" إذ لا معنى لها سوى الاستقبال وأما اللام فإنها إذا جرّدت من الحال بقي لها التوكيد فلم تلغ" [329] ومما يدلل على أن "اللام في " لسوف أخرج حيا " للتأكد.كأنه قيل له إذا ما مت لسوف تبعث حيا فقال " أئذا ما مت لسوف أخرج حيا" ! قال ذلك منكرا فجاءت اللام في الجواب كما كانت في القول الأول ولو كان مبتدئا لم تدخل اللام لأنها للتأكيد والإيجاب وهو منكر للبعث"[330]

فظهر من كلام الشنقيطي أن اللام هنا لمجرد التوكيد لا للحال كما هو المتقرر عند أهل اللغة، ولذا ساغ اقترانها بحرف الاستقبال.

326أضواء البيان ،ج7، ص481

327محمد سيّد طنطاوي , تفسير الوسيط ، ج2 ، ص 122

328أضواء البيان ،ج3، 474

329محي الدين درويش ،إعراب القرآن وبيانه ، ج6 ، ص 333

330 القرطبي ،الجامع في أحكام القرآن ، ج 11 ، ص 131

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى﴾[طه : 77] لقد استشكل الشنقيطي الآية حالة كونها قد قرئت على قراءة حمزة، وأجاب عن الإشكال فعلى "قراءة حمزة{لاَ تَخَفْ}بالجزم ففي قوله {وَلا تَخْشَى} إشكال معروف، وهو أنه معطوف على مضارع مجزوم،وهو قوله{لاَ تَخَفْ} وذلك يقتضي جزمه، ولو جزم لحذفت ،وأجيب عنه من ثلاثة أوجه:

الأول: أن{وَلا تَخْشَى} مستأنف خبر مبتدأ محذوف، تقديره: وأنت لا تخشى، أي ومن شأنك أنك آمن لا تخشى.والثاني: أن الفعل مجزوم، والألف ليست هي الألف التي في موضع لام الكلمة ولكنها زيدت للإطلاق من أجل الفاصلة، كقوله:{فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا}،وقوله: {وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}.

والثالث: أن إشباع الحركة بحرف مد يناسبها أسلوب معروف من أساليب اللغة العربية،كقول عبد يغوث بن وقاص الحارثي:

وَتَضْحَكُ مِنِّي شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ كَأَنْ لَمْ تَرَ قَبْلِي أَسِيرًا يَمَانِيَا "[331]

على قراءة الرفع فـ " لا " ليست ناهية ، بل هي نافية لا عمل لها، فـ " لا تخاف " مرفوع لتجرده من الناصب والجازم ولا نافية ، و " لا تخشى " مرفوع كذلكعطفاً على الفعل الأول فالحاصل على قراءة الرفع أن " لا " في الموضعين نافية لا عمل لها.

إن كلام الشنقيطي في بيان عطف المضارع على الماضي هنا لفائدة عظيمة جداً، وهي دوام إنزال المطر واخضرار الأرض في وقت بعد وقت، وأيضاً يفيد استحضار الهيئة التي عليها الأرض من الاخضرار، والفعل الماضي لا يفيد ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾[مريم: 61] المشهور من أنواع البدل هو الأربعة وزا د بعض النحاة نوعا خامسا سماه: "بدل الكل من البعض"، واستدلّ له بأمثلة متعددة تؤيّده، منها قوله تعالى في التائبين الصالحين: {فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ} ، فجنات بدل كل من الجنة، والأولى جمع، والثانية مفرد، ولهذا كان البدل كلا والمبدل منه بعضا [332] وقد مثّل بعض علماء البلاغة بهذه الآية لنوع من أنواع البدل. وهو بدل الكل من البعض،قالوا:{جَنَّاتِ عَدْنٍ}بدل من الجنة في قوله:{فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ} بدل كل من بعض.

فأجاب الشنقيطي عن توجيههم معترضا على قولهم ومفنّدا لهفقال:ولا يتعيّن عندي في الآية كون البدل بدل كل من بعض، بل يجوز أن يكون بدل الشيء من الشيء، لأن الألف واللام في قوله:{فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ}، للجنس،وإذا كان للجنس جاز أن

331أضواء البيان ،ج4 ،ص70

332عباس حسن ، النحو الوافي , ، ج3 ، ص 674

يراد بها جميع الجنات،فيكون قوله:{جَنَّاتِ عَدْنٍ}، بدلاً من{الْجَنَّةِ}،بدل الشيء من الشيء،لأن المراد بالأول الجمع كما تقدم كثير من أمثلة ذلك".[333]

قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[الحج:63]لقد تساءل الشنقيطي عن" وجه الرّفع في قوله:{فَتُصْبِحُ} مع أن قبلها استفهاماً؟

فأجاب "أمّا الرفع في قوله:{فَتُصْبِحُ}،فلأنّه ليس مسبباً عن الرؤية التي هي موضع الاستفهام وإنما هو مسبب الإنزال في قوله:{أَنَزَلَ}،والإنزال الذي هو سبب إصباح الأرض مخضرة ليس فيه استفهام، ومعلوم أن الفاء التي ينصب بعدها المضارع إن حذفت جاز جعل مدخولها جزاء للشرط، ولا يمكن أن تقول هنا: إن تر أنّ الله أنزل من السماء ماء، تصبح الأرض مخضرّة، لأنّ الرؤية لا أثر لها ألبتة في اخضرار الأرض، بل سببه إنزال الماء لا رؤية إنزاله."[334]

قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾[الكهف: 18]استشكل الإمام الشنقيطي وجه عمل اسم الفاعل الذي هو{باسط} في مفعوله الذي هو{ذراعيه} والمقرّر في النحو أنّ اسم الفاعل إذا لم يكن صلة أل لا يعمل إلا إذا كان واقعاً في الحال أو المستقبل؟

فأجاب الشنقيطي: أنّ الآية هنا حكاية حال ماضية، ونظير ذلك من القرآن قـوله تعالى:﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة30]وقوله تعالى:{وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}"[البقرة : 72][335]والسياق قد أيّد مجيء الآية على حكاية الحال، بدليل قوله تعالى (وكلبهم باسط) والواو للحال، ولا يحسن أن يقال هنا: وكلبهم بسط، بالماضي، وإنما يحسن أن يقال بعد واو الحال: وكلبهم يبسط. وقد جاء قبل الآية قوله تعالى:{ونُقَلِّبهم ذات اليمين وذات الشمال } فأتى فيها بالفعل المضارع الدال على الحال أو الاستقبال".[336]

إن ما قرره الشنقيطي من أن جملة " يقولون " معطوفة بحرف محذوف هو مما ارتضاه علماء متقدمون أجازوا العطف بالحرف المحذوف كالفارسي وابن عصفور

قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾[آلعمران:7]تساءل الإمام الشنقيطي عمّا "إذا كانت جملة "يقولون":لا يصح أن تكون حالا لما ذكر فما وجه إعرابها على القول بأن الواو عاطفة.فأجاب بـ"أنها معطوفة بحرف محذوف والعطف بالحرف المحذوف، أجازه ابن مالك وجماعة من علماء العربية. والتحقيق جوازه، وأنه ليس مختصا بضرورة الشعر كما زعمه بعض علماء العربيّة، والدليل على جوازه وقوعه في القرآن، وفي كلام العرب.فمن أمثلته في القرآن قوله تعالى:{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ}[الغاشية:8]الآية،فإنّه معطوف بلا شك على قوله تعالى:{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ

333أضواء البيان ،ج3، ص465

334أضواء البيان ،ج5 ،ص295

335المرجع نفسه، ج3 ،ص 226

336 صلاح الدين الزعبلاوي ، دراسات في النحو، (مقالة)

خَاشِعَةٌ}[الغاشية:2]، بالحرف المحذوف الذي هو الواو ويدلّ له إثبات الواو في نظيره في قوله تعالى: في سورة "القيامة":{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ, إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ, وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ} [القيامة: 22-23-24]الآية ، وقوله تعالى في "عبس":{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ, ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ, وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ} [عبس: 38-39-40]"[337].

المطلب الثالث :السياق النحوي وأثره في تضعيف الأوجه الإعرابية.

لقد ركن الإمام الشنقيطي في تفسيره إلى السياق النحوي، وجعله عمدة يضعّف به الآراء البعيدة، ويأخذ بالآراء الموافقة لسنن كلام العرب ، وما درج عليه الأئمة المحققون، نذكر أمثلة منها:

قوله تعالى:﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾[النساء :127]قرّر الشنقيطي أنّ"قوله هنا:{وَمَا يُتْلَى}،في محل رفع معطوفا على الفاعل الذي هو لفظه الجلالة، وتقرير المعنى:{قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ}أيضا:{وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ}، وذلك قوله تعالى:{وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى}الآية، ومضمون ما أفتى به هذا الذي يتلى علينا في الكتاب هو تحريم هضم حقوق اليتيمات فمن خاف أن لا يقسط في اليتيمة التي في حجره فيتركها ولينكح ما طاب له سواها، وهذا هو التحقيق عند الشنقيطي [338]

وضعّف بعض قول العلماء الذين قالوا إنّ قوله:{وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ}،في محل جر معطوفا على الضمير، وعليه فتقرير المعنى:{قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ}ويفتيكم فيما يتلى عليكم، وقد ضعّف هذا الوجه "لأمرين:الأول: أن الغالب أن الله يفتي بما يتلى في هذا الكتاب، ولا يفتي فيه لظهور أمره.الثاني: أن العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض ضعفه غير واحد من علماء العربية"[339].

إن ماقرره الشنقيطي من كون "ما " في موضعالرفع هو أقوى الوجوه وفيه ثلاثة أوجه:الأولمعطوفة على ضمير الفاعلفي يفتيكم . والثاني معطوف على لفظ الجلالة في قوله: (قُلِ اللَّه) الثالث :مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: وما يتلى عليكم يبين لكم .

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾[طه:3]اضطربت أقوال المفسرين في بيان وجه إعراب " تذكرة " وتدافعت ،فذهب الزجاج إلى أنّإعراب{إِلَّا تَذْكِرَةً} بأنه بدل من{لِتَشْقَى} ،وتبعه ابنُ عطية "[340]

ودفع هذا القول الإمام الشنقيطي ووجّه عدم صحة إعراب " تذكرة " بدلا "لأن التذكرة ليست بشقاء وإعرابه مفعولاً مطلقاً أيضاً غير ظاهر. [341].ولا يَجُوزُ أنْ يَكُونَ

337أضواء البيان، ج1 ، ص 195
338المرجع نفسه ، ج1 ، ص 313
339أضواء البيان ،ج1 ،ص314
340االسمين الحلبي ، الدر المصون ،ج 8،ص 8
341أضواء البيان، ج4 ، ص5

مَفْعُولًا لَهُ لِأَنْزَلْنَا الْمَذْكُورَةِ ; لِأَنَّهَا قَدْ تَعَدَّتْ إلَى مَفْعُولٍ لَهُ ، وَهُوَ «لِتَشْقَى» فَلَا تَتَعَدَّى إلَى آخَرَ مِنْ جِنْسِهِ ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَعْمَلَ فِيهَا «لِتَشْقَى» لِفَسَادِ الْمَعْنَى .[342]

وأظهر الأقوال عند الشنقيطي في إعراب "تذكرة": أنه مفعول لأجله، أي: ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة، أي: إلا لأجل التذكرة لمن يخشى الله ويخاف عذابه[343] واختار الزمخشري أن تكون تذكرة مفعولا لأجله قال: «وكل واحد من لتشقى وتذكرة علة للفعل إلا أن الأول وجب مجيئه مع اللام لأنه ليس لفاعل الفعل المعلل ففاتته شريطة الانتصاب على المفعولية والثاني جاز قطع اللام عنه ونصبه لاستجماع الشرائط» وعلى هذا جرى معظم المعربين والمفسرين[344]

ويبدو لنا أن الآية الكريمة وإن كانت تتسع لهذه المعاني والأعاريب، إلا أنّتوجيه الشنقيطي أظهرها ، وأقربها إلى سياق الآيات الكريمة ، فإن قوله - تعالى - بعد ذلك : { إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يخشى } بيان للحكمة التى من أجلها أنزل الله - تعالى - هذا القرآن

قوله تعالى: ﴿**تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى**﴾.[طه : 4] ،في قوله: {تَنْزِيلاً} أوجه كثيرة من الإعراب ذكرها المفسّرون. من هذه الأوجه" أن يكون بدلاً من تذكرة إذا جعل حالاً، لا إذا كان مفعولاً له؛ لأن الشيء لا يعلل بنفسه ، وأن ينصب بنزل مضمراً، وأن ينصب بأنزلنا؛ لأن معنى: ما أنزلناه إلا تذكرة: أنزلنا تذكرة، وأن ينصب على المدح والاختصاص وأن ينصب بـ(يخشى) مفعولاً به.أي:أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله، وهو معنى حسن وإعراب بيِّن[345] وما ذكره الزمخشري مِنْ نصبه على غيره فمتكلَّفٌ: أمَّا الأولُ ففيه جَعْلُ تذكرةً وتنزيلاً حالين، وهما مصدران. وجَعْلُ المصدرِ حالاً لا ينقاسُ.وأيضاً فمدلولُ "تذكرةً" ليس مدلولُ "تنزيلَ"، ولا "تنزيلاً" بعضُ تذكرة. فإن كان بدلاً فيكونُ بدلَ اشتمالٍ على مذهبِ مَنْ يرى أن الثاني مشتملٌ على الأول؛ لأنَّ التنزيلَ مشتملٌ على التذكرة وغيرِها. وأمَّا قولُه: "لأنَّ معنى ما أنزلناه إلاَّ تذكرة: أنْزَلْناه تذكرةً" فليس كذلك لأنَّ معنى الحصرِ يَفوت في قولِه أنزلناه تذكرةً. وأمَّا نصبُه على المدحِ فبعيدٌ. وأمَّا نصبُه بـ"يَخْشى" ففي غاية البُعْدِ لأنَّ "يخشى" رأسُ آيةٍ وفاصلٌ، فلا يناسبُ أن يكونَ "تنزيلاً" منصوباً بـ"يَخْشى"[346]

وأظهرها عند الشنقيطي" أنّه مفعول مطلق، منصوب بنزلّ مضمرة دلّ عليها قوله: {مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} , أي: نزّله الله {تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ} "[347] ورجّحه أبوحيّان بعد أن ساق الأقوال التي أوردها الزمخشري في كشافه وجعله هو "الأحسن أي أنّ{تنزيلاً} مصدر لفعل محذوف أي نزل {تنزيلاً ممن خلق} "[348].وهذا التوجيه هو الأليق بسياق الآية وبمدلولها ..

342العكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، ج2 ، ص 884

343أضواء البيان ، ج6 ، ص 222

344محي الدين درويش ، إعراب القرآن وبيانه ، ج6 ، ص 164

345الزمخشري ، الكشاف ،ج4،ص 127

346السمين الحلبي ، الدر المصون ، ج5 ، ص 90

347أضواء البيان، ج4 ، ص5

348أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي. البحر المحيط. ط3 ، بيروت: 1393هـ ، ج8 ، ص 80

وقوله:﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾[مريم: 4] .لفظ " ذكر"مال الفراء إلى أنه مرفوع بـ "كهيعص"؛ قال الزجاج: هذا محال؛ لأن "كهيعص" ليس هو مما أنبأنا الله عز وجل به عن زكريا، وقد خبّر الله تعالى عنه وعن ما بشّر به، وليس "كهيعص" من قصته"[349] ثم إنه مما يبعد هذا القول "أنّ الخبر هو المبتدأ في المعنى ; وليس في الحروف المقطعة ذكر الرحمة،ولا في ذكر الرحمة معناها".[350]

أما الشنقيطي فنقل إعرابين في قوله "ذكر" فقيل "هو خبر مبتدأ محذوف. أي هذا ذكر رحمة ربك. وقيل: مبتدأ خبره محذوف، وتقديره: فيما يتلى عليكم ذكر رحمة ربك" ثم أشار إلى أنّ"الأول أظهر. والقول بأنه خبر عن قوله:{كهيعص}، ظاهر السقوط لعدم ربط بينهما." [351]وهذا التقدير مما يتعيّن أن يكون ذِكْرُ "خبر" مبتدأ محذوف ، مثله شائع الحذف في أمثال هذا من العناوين" [352]ولذلك قد يتجاذب المعنى والإعراب اللفظة الواحدة ، والمتمسك به صحة المعنى.

قوله تعالى:﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[النحل : 5].

فأظهر أوجه الإعراب عند الشنقيطي "في قوله:{لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ}،أن قوله: {دِفْءٌ} مبتدأ خبره {لَكُمْ فِيهَا}،وسوّغ الابتداء بالنكرة اعتمادها على الجار والمجرور قبلها وهو الخبر كما هو معروف، خلافاً لمن زعم أنّ {دِفْءٌ}، فاعل الجار والمجرور الذي هو: {لَكُمْ}"[353].

وقد استظهر أبو حيان "أن يكون {لكم فيها دفء }استئناف لذكر ما ينتفع بها من جهتها،ودفء مبتدأ وخبره لكم ، ويتعلق فيها بما في لكم من معنى الاستقرار.ويؤيد كون لكم فيها دفء يظهر فيه الاستئناف مقابلته بقوله : ولكم فيها جمال ، فقابل المنفعة الضرورية بالمنفعة غير الضرورية."[354]

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾[الإسراء:1].اختار بعض المفسّرين، مثل برهان الدين البقاعي صاحب "نظم الدرر"،" أن لفظة {سُبْحَانَ}، علم للتنزيه" [355] وعليه فهو علم جنسٍ لمعنى التنزيه على حدّ قول ابن مالك في الخلاصة، مشيراً إلى أن علم الجنس يكون للمعنى كما يكون للذات:

وَمِثْلُهُ بَرَّةُ لِلْمَبَرَّةِ كَذَا فُجَّارِ عَلَمٌ لِلْفَجَرَةِ

349محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الفكر ، بيروت ، 1993م ج11 ،ص75

350العكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، ج2 ، ص 865

351أضواء البيان، ج3 ، ص359

352الطاهربن عاشور ، التحرير والتنوير ، ج 16 ، ص 8

353أضواء البيان ، ج 2 ، ص 333

354أبو حيّان ، البحر المحيط ، ج7 ، ص 216

355، إبراهيم بن عمر البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ، تحقيق عبدالرزاق غالبالمهدي ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 1995م. ج5، ص17

وعلى أنه علم: فهو ممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون.لكن الذي رجّحه الشنقيطي أنه غير علم، وأن معنى{سُبْحَانَ}،يكون " تنزيهاً لله عن كل ما لا يليق به. ولفظة{سُبْحَانَ}من الكلمات الملازمة للإضافة، وورودها غير مضافة قليل؛ كقول الأعشى:

فَقُلْتُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الْفَاخِرِ

ومن الأدلة على أنه غير علم:ملازمته للإضافة والأعلام تقل إضافتها، وقد سمعت لفظة {سُبْحَانَ} غير مضافة مع التنوين والتعريف؛ فمثاله مع التنوين قوله:

سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانًا نَعُودُ بِهِ وَقَبْلَنَا سَبَّحَ الْجُودِيُّ وَالْجُمُدُ

ومثاله معرفاً قول الراجز:

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَانِ "[356].

المطلب الرابع: السياق النحوي وأثره في بيان الحذف والذكر.

إنّ قضيّة الحذف والذكر من الظواهر اللغويّة البارزة ،التي أولاها علماء اللغة عناية بالغة ، حيث طرقها الشنقيطي في تفسيره ، وأبدى فيها وأعاد، مبيّنا وجه الحذف والذكر منطلقا في ذلك من السياق الذي وردت فيه الآية، ومما ذكره أهل اللغة في دواوينهم. وقد أشار إلى كثير من مواطن الحذف ، مبيّنا المحذوف منطلقا في ذلك من السياق النحوي.

قال تعالى:﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾اختلف المفسرون في هذه الفاء من قوله:{ فإذا حبالهم } فذهب أبو البقاء العكبري إلى أن "الفاء جواب ما حذف وتقديره فألقوا "[357] وقد تعقّبه أبو حيّان :ليست هذه فاء جواب لأن "فألقوا" لا تجاب، وإنما ه ي للعطف عطفت جملة المفاجأة على ذلك المحذوف.[358] فعلى هذا تكون" هذه الفاءُ عاطفةٌ على جملةٍ محذوفةٍ دَلَّ عليها السياقُ والتقدير : فَأَلْقَوْا فإذا[359].

فالحذف "دل المقام عليه، والتقدير: قال بل ألقوا فألقوا حبالهم وعصيهم، فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. وبه تعلم أن الفاء في قوله: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ} عاطفة على محذوف كما أشار لنحو ذلك ابن مالك في الخلاصة بقوله:

وحذفُ مُتْبُوعٍ بدا هنا استَبِحْ[360]

فظهر بذلك أن السياق أشار إلى المحذوف ودل عليه .

-قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام :121]زعم الحوفي أنه {إنكم لمشركون } على حذف الفاء أي فإنكم وهذا الحذف من الضرائر

356أضواء البيان، ج3 ، ص 8
357أبو حيّان ، البحر المحيط ، ج3 ، ص104
358 المرجع نفسه ، ج3 ، ص 105
359السمين الحلبي ،الدر المصون ، ج3 ، ص 333
360أضواء البيان ، ج6 ، ص 155

فلا يكون في القرآن وإنما الجواب محذوف و{ إنكم لمشركون }جواب قسم محذوف التقدير والله {إن أطعتموهم} لقوله :{وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن}وقوله:{ وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين} [361]وقد أشار الشنقيطي إلى وجه آخر وهو " أنّ المسوّغ لحذف الفاء في آية:{إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}تقدير القسم المحذوف قبل الشرط المدلول عليه بحذف الفاء على حد قوله في الخلاصة:

واحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمٍ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهُوَ مُلْتَزَمْ

وعليه:فجملة{إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}جواب القسم المقدر، وجواب الشرط محذوف فلا دليل فيالآية لحذف الفاء المذكور."[362]

فالآية قد دلت على أن القسم مقدر لأن سقوط الفاء من صدر الجملة الاسمية (إنكم لمشركون) دليلٌ على أنها ليست جواباً للشرط.

قوله تعالى:﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الإنسان قَتُوراً﴾[الإسراء:100]

أوضح الشنقيطي أنّ "المقرر في علم العربية أنّ {لو} لا تدخل إلى على الأفعال. فيقدّر لها في الآية فعل محذوف، والضمير المرفوع بعد {لو} أصله فاعل الفعل المحذوف. فلما حذف الفعل فصل الضمير. والأصل قل لو تملكون، فحذف الفعل فبقيت الواو فجعلت ضميراً منفصلاً: هو أنتم. هكذا قاله غير واحد"[363].

إن ما يقرر كلام الشنقيطي ويؤيّده من جهة السياق ، هو أن الأصل: لو تملكون، فحذف الفعل؛ لدلالة ما بعده عليه ، فانفصل الضمير ، وهو الواو؛ إذ لا يمكن بقاؤه متّصلاً بعد حذف رافعه "[364]فأصل الكلام : لو تملكون تملكون مرتين:فأضمر« تملك » إضماراً على شريطة التفسير فصار الضمير المتصل منفصلاً لسقوط ما كان يتصل هو به فـ{ أنتم }فاعل الفعل المضمر{ تملكون}تفسيره [365]فقوله انتم ليس بمبتدأ لأن "لو"إنما تدخل على الفعل بل هو فاعل فعل محذوف، والأصل لو تملكون أنتم تملكون فحذف الفعل الأول احترازا عن العبث لوجود المفسر ثم أبدل من الضمير المتصل ضمير منفصل على ما هو القانون عند حذف العامل فالمسند المحذوف ههنا فعل"[366]

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾[محمد: 4] إن لحذفعامل المفعول المطلق أحكاما تختلف بحسب أنواع هذا المفعول ، فالمصدر المؤكد لعامله لا يجوز حذف عامله ،لأن المصدر غرضه توكيد هذا العامل وتقويته والحذف منافٍ لذلك. أما أن يقع المصدر بعد إمّا التفصيلية لغرض التفصيل والعاقبة

361أبو حيّان ، البحر المحيط ، ج 5 ، ص 224
362أضواء البيان ، ج7، ص 55
363المرجع نفسه ، ج3 ، ص 18
364ابن عادل الحنبلي ، اللباب في علوم الكتاب ، ج 10 ، ص 390
365 النيسابوري ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، ج5 ، ص 147
366سعد الدين التفتازاني ، مختصر المعاني ، ، ص 77

فالعامل يحذف كما في الآية "أي فإما تمنون عليهم منا، أو تفادونهم فداء.ومعلوم أن المصدر إذا سيق لتفصيل وجب حذف عامله، كما قال في الخلاصة:

وَمَا لِتَفْصِيلٍ كَإِمَّا مَنًّا عَامِلُهُ يُحْذَفُ حَيْثُ عَنَّا[367].

وقد اشترط " لوجوب حذف العامل من هذا النوع ثلاثة شروط، الأول: أن يكون المقصود به تفصيل عاقبة، أي بيان الفائدة المترتبة على ما قبله والحاصلة بعده، والشرط الثاني: أن يكون ما يراد تفصيل عاقبته جملة ، سواء أكانت طلبية كالآية الكريمة التي تلاها الشارح، أم كانت الجملة خبرية ، والشرط الثالث: أن تكون الجملة المراد بيان عاقبتها متقدمة عليه، فإن تأخرت مثل أن تقول: إما إهلاكا وإما تأديبا فاضرب زيدا لم يجب حذف العامل أيضا."[368]

قوله تعالى:﴿**لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ**﴾[محمد: 4] إنّ حذف العائد المنصوب واقع في كلام العرب .وحذف الضمير المنصوب المتصل يقع في أربع أبواب منها الصلة "[369]

ولقد قرّر النحويون حذفه بشرطين :أن يكون ضميراً متصلاً بفعل، أو وصف عامل غير صلة الألف واللام".[370] وقد أشار الشنقيطي إلى أن" العائد أيضاً محذوف كالذي قبله: أي ما يشاءونه، وحذف العائد المنصوب بالفعل أو الوصف كثير، كما قال في "الخلاصة":

..... وَالْحَــذْفُ عِنْدَهُمْ كَثِيرٌ مُنْجَلِي

فِي عَائِدٍ مُتَّصِلٍ إِنِ انْتَصَبْ بِفِعْلٍ أَوْ وَصْفٍ كَمَنْ نَرْجُو يَهَبْ[371]

قال تعالى:﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة:196].اختلف العلماء في بيان المحذوف في الآية في قوله" في الحج " فقد "استظهر أبوحيّان أن يكون المحذوف : زماناً ، لأنه المقابل في قوله : { وسبعة إذا رجعتم } إذ معناه في وقت الرجوع ، ووقت الحج هو أشهره"[372]

وأظهر قولي أهل العلم عند الشنقيطي" أنّ معنى قوله في الحج: أي في حالة التلبس بإحرام الحج، لأنّ الظاهر من اسم الحج هو الدخول في نفس الحج، وذلك بالإحرام وقال بعض أهل العلم:المراد بالحج أشهره، واستدل بقوله تعالى:{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ}[البقرة:197] وقد ضعّف الشنقيطي هذا القول لأنّه "لا دليل في الآية،لأن الكلام على حذف مضاف: أي زمن الحج أشهر معلومات. وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أسلوب عربي كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وَمَا يَلِي الْمُضَافَ يَأْتِي خَلَفَ عَنْهُ فِي الْإِعْرَابِ إِذَا مَا حُذِفَا[373]

---

367 أضواء البيان ، ج7 ، ص248

368شرح ابن عقيل ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، ج 2 ، ص 180

369 الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج1 ، ص 185

370شرح ابن عقيل ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، ج1 ، ص88

371أضواء البيان ، ج 6 ، ص 31

372أبو حيّان ، البحر المحيط ، ج2 ، ص 252

373أضواء البيان ،ج5، ص 158

إنّ استدلال الشنقيطيفي هذه المسألة ،وتوجيهه للآية يعد استدلالا قويّا ؛لأنّه لما قيّد الصيام بظرفية الحج:{ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ }[البقرة: 196] دل على أنها لا تجزي في غير الحج، فقالوا حينئذٍ: يلزمه الصيام إذا شرع في الحج، وأما قبل الحج فلا يصح منه.

المبحث السَّادس

السياق الصوتي وأثره في توجيه الخطاب القرآني

المبحث السادس :السياق الصوتي وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

تمهيد :

إنّ المعاني تتعلق بالألفاظ ومنها تعرف دلالات الآيات ، وحيث أنّ اختلاف الألفاظ بزيادة أو نقص أو تغيير يعرف من علم القراءات، كان لهذا العلم تأثيرأساسي في التفسير،ولذا عدّ أحد العلوم التي يحتاج إليها المفسّر،"لأنّ به يُعرف به كيفية النطق بالقرآن وبالقراءات يترجّح بعض الوجوه المحتملة على بعض" [374]

من هنا فإنّ المفسرين عادة ما يبتدئون بعرض القراءات في الآيات وبيان اختلاف بعضها على بعض ، ومن ثم توجيه القراءات وتبيين علل ما ذهب إليه كل قارئ ، وبهذا التوجيه " تعرف جلالة المعاني وجزالتها "[375]

ثم تُرجّح بعضها على بعض ... فهم كثيرا ما يرجعون في تفسير الآيات وبيان معانيها إلى الاستدلال بالقراءات ، إثباتا أو نفيا ، أو ترجيحا ، وبذلك كانت القراءات أخد المعايير المؤثرة في نقد نصوص التفسير وأحد الأدوات الأساسية التي يستعان بها في تقييمه وتقويمه إذا كان كتاب الله قد جاء بأفضل البيان وأتمه فإنّ من تمامه وكماله أن لا يكون محتاجا فيه إلى الشواذّ من الألفاظ والقراءات، وغير المأهول والمتداول من المعاني ، وإنما يلجأ إلى ذلك المؤلف غير المتمكن ، ويضطّر إليه المتكلم غير المتبحّر وينزه كلام الله تعالى أن يكون كذلك , وهو العلي القدير .

المطلب الأول:السياق الصوتي وأثره في توجيه الدلالة.

لقد استعمل الشنقيطي السياق الصوتي لتوجيه معاني كلام الله، فهو في جملة من المواضع التفسيرية ، لكثير من الآيات يحيل على الروايات القرآنية المفسرة والمؤيدة للوجه الذي يذهب إليه، إن القراءات القرآنية يعتد بها في بيان الأحكام الشرعية، بل لها دور مهم في توجيه المعنى التفسيري، وقد استعان بها الشنقيطي في دعم توجيه الخطاب القرآني، نذكر طرفا منها.

قوله تعالى:﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[النور:33].قوله تعالى في هذه الآية الكريمة:{فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، قيل: غفور لهن، وقيل: غفور لهم، وقيل: غفور لهن ولهم. "[376]

وقد استظهر الشنقيطي الوجه الأول لأن سياق القراءات يعضده ويقويه فتكون الدلالة " أنّ المعنى غفور لهن لأن المكره لا يؤاخذ بما أكره عليه، بل يغفره الله له لعذره بالإكراه؛ كما يوضّحه قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} [النحل: 106]، ويؤيّده قراءة ابن مسعود، وجابر بن عبد الله، وابن جبير، فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم،"[377]. وقد تبعه البيضاوي على هذا القول{ فَإِنَّ الله مِن بَعْدِ

374جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي أبو الفضل ، الإتقان في علوم القرآن ،طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف تحقيق مركز الدراسات القرآنية، 1426هـ ،ج،2 ص121.

375الزركشي ،البرهان في علوم القرآن ، ج1 ،ص339.

376ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ج 5 ، ص 75

377أضواء البيان، ج5، ص532

إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أيلهنّ،أوْله إن تاب، والأول أوفق للظاهر ولما في مصحف ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : من بعد إكراههن لهن غفور رحيم"[378]
لقد أخضع الشنقيطي تأويل دلالة الآية، لسياق القراءة القرآنية فترجّح معناها.بأن الأظهر:أن المعنى غفور لهن ، لأن المكره لا يؤاخذ بما يكره عليه ، بل يغفره الله له ، لعذره بالإكراه . فالموعود بالمغفرة والرحمة ، هو المعذور بالإكراه دون المكره - بكسر الراء - لأنه غير معذور بفعله القبيح"[379]

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾[نوح: 15]فقد قرأ القراء كلمة" سراجا " بالإفراد والجمع، ونظرا لاختلاف الصيغتين اختلف المعنيان حيث " قرأ هذا الحرف عامّة السبعة غير حمزة والكسائي:{وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً} ،بكسرالسينوفتح الراء بعدها ألف على الإفراد، وقرأه حمزةوالكسائي:{سُرُجًا}بضم السين، والراء جمع سراج، فعلى قراءة الجمهور بإفراد السراج، فالمرادبه الشمس، بدليل قوله تعالى:{وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً}وعلى قراءة حمزة والكسائي بالجمع، فالمراد بالسرج: الشمس والكواكب العظام.[380]ومنهم من وجّه الجمع في قوله{سُرُجًا}كون الشمس لعظمها وكمال إضاءتها لأنها سرج كثيرة أو الجمع باعتبار الأيام والمطالع ، وقد جمعت لهذين الأمرين في قول الشاعر:

لمعان برق أو شعاع شَمُوس

وعلى هذا القول تتحد القراءتان"[381]

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾[العنكبوت:10] وأظهر الأقوال في معنى الآية عند الشنقيطي،" أن المعنى على قراءة ضمّ التاء، كانت عاقبة المسيئين السوأى، وهي تأنيث الأسوإ، بمعنى: الذي هو أكثر سوءًا، أي: كانت عاقبتهم العقوبة، التي هي أسوأ العقوبات، أي: أكثرها سوءًا وهي النار أعاذنا اللّه وإخواننا المسلمين منها.وأمّا على قراءة فتح التاء، فالمعنى: كانت السوأى عاقبة الذين أساءوا،" [382].فالمعنى يختلف باختلاف الخبر , فإذا جعلنا الخبر هو (السوأى), كان المعنى كما يقول مكي: "ثم كان مصير المسيئين السوأى من اجل أن كذبوا , أي: كان مصيرهم دخول جهنم"[383]
أما إذا اعتبرنا الخبر هو (أن كذبوا) كان المعنى كما يقول مكي أيضا:"ثم كان مصير الذين أساؤوا إساءة للتكذيب لما جاء به محمد عليه السلام"[384] .

378البيضاوي،أسرار التأويل ، ج4 ، ص379
379محمد سيد طنطاوي ، تفسير الوسيط ،ج 4، ص235
380أضواء البيان، ج6، ص72
381محمود الألوسي، روح المعاني : روح المعاني في تفسر القرآن ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، طبعة 1997م ، تحقيق محمد حسين عرب. .ج14 ، ص131
382أضواء البيان ،ج6، ص171
383 مكي بن طالب ، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها ، ج2 ، ص 286
384المرجع نفسه ، ج2 ، ص 286

هنا ذكر الله إسم كان (عاقبة) وترك لنا مسألة معرفة خبرها (خبر كان)، فخبر كان هو الكيفية التي كانت عليها العاقبة ،ومن سياق الكلام علمنا الكيفية التي آلت إليها عاقبة الظالمين وهي (الإهلاك).إذن فـ(عاقبة ...) إسم كان منصوب وخبرها هو (الإهلاك) الذي استنتجناه من السياق.ثم يتابع الله كلامه على اعتبار أننا فهمنا الكيفية (خبر كان) الذي هو (الإهلاك) فيخبرنا أن هذا الإهلاك سيكون عاقبة الذي أساءوا السوأى .

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[الزخرف : 57].قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر والكسائي: "يَصُدُّونَ" بضم الصاد. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة: {يَصِدُّونَ} بكسر الصاد فتوجيه" قراءة الكسر فمعنى {يَصِدُّونَ} يضجون ويصيحون، وقيل يضحكون، وقيل معنى القراءتين واحد, كيعرِشون ويعرُشون ويعكِفون ويعكُفون

قراءة الضم فهو من الصدود "[385].

ويرى بعضهم أن{ يَصِدُّونَ}- بكسر الصاد - بمعنى : يضجون ويصيحون ويضحكون وأنّ{يَصِدُّونَ}- بضم الصاد- بمعنى الصاد-بمعنى يعرضون .من الصد بمعنى الإعراض عن الحق.والمعنى: وحين ضرب ابن الزبعرى ،عيسى ابن مريم مثلا ، وحاجك بعبادة النصارى له ،فاجأك قومك -كفار قريش- بسبب هذه المحاجة ، بالصياح والضجيج والضحك ،فرحا منهم بما قاله ابن الزبعرى ، وظنّا منهم أنه قد انتصر عليك فى الخصومة والمجادلة.[386] فتكون القراءتان بذلك ملتئمتين من جهة الدلالة .

وقوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُفَآزَرَهُ ﴾[الفتح : 29] أبان الشنقيطي أوجه الاختلاف في قراءة قوله " فَآزَرَهُ " وأوضح ما يترتّب على هذا الاختلاف في القراءة ،من تباين في الدلالة، فقوله {فَآزَرَهُ} على قراءة الجمهور من المؤازرة، بمعنى المعاونة والتقوية، وقال بعض العلماء:{فَآزَرَهُ}أي ساواه في الطول، وبكل واحد من المعنيين فُسّر قول امرىء القيس:

بِمَحْنِيَّةٍ قَدْ آزَرَ الصَّالُ نَبْتَهَا مُجَرٍ جُيُوشَ غَانِمِينَ وَخَيَّبَا

وأما على قراءة ابن ذكوان{فَأَزَرَهُ} بلا ألف، فالمعنى شد أزره أي قوّاه.

ومنه قوله تعالى عن موسى{وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي, هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي}[طه: 29-30-31] "[387]فيكون وزن آزر فاعل من الأزر وهو القوة او من الايزار وهى الاعانة فيكون وزنه افعل وهو الظاهر لانه لم يسمع في مضارعه يوازر بل يوزر[388]

385أضواء البيان ، ج7، ص123

386محمد سيّد طنطاوي ، تفسير الوسيط ، ج 6، ص 145

387أضواء البيان ،ج7 ،ص398

388روح البيان ، ج9 ، ص 59

وكلا القراءتين بمعنى واحد كما أشار إلى ذلك جمهرة من المفسرين .

قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾[الحجرات:6]استعان الشنقيطي بسياق القراءات،في بيان دلالة الفعل"فَتَبَيَّنُوا فقد"قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائي:{فَتَبَيَّنُوا}بالباء التحتية الموحدة بعدها مثناة تحتية مشددة ثم نون. وقرأه حمزه والكسائي: "فَتَثَبَّتُوا" بالثاء المثلثة بعدها باء تحتية موحدة مشددة ثم تاء مثناة فوقية. والأول من التبين، والثاني من التثبت. ومعنى القراءتين واحد، وهو الأمر بالتأني وعدم العجلة حتى تظهر الحقيقة فيما أنبأ به الفاسق.[389] فالتثبت والتبين متقاربان وهما طلب الثبات والبيان والتعرف"[390].

-قوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران : 39]قوله: «ونبياً» على قراءة نافع بالهمزة معناه واضح، وهو فعيل بمعنى مفعول، من النبأ وهو الخبر الذي له شأن، لأن الوحي خبر له شأن يخبره الله به. وعلى قراءة بالياء المشددة فقال بعض العلماء: معناه كمعنى قراءة نافع، إلا أن الهمزة أبدلت ياء وأدغمت فيها للياء التي قبلها. وعلى هذا فهو كالقراءتين السبعيتين في قوله:{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ}، بالهمزة وتشديد الياء. وقال بعض العلماء:هو على قراءة الجمهور من النبوة بمعنى الارتفاع لرفعة النَّبي وشرفه"[391].

فتكون قراءة الهمز وعدمها قد اتفقتا في الدلالة لأن النبي المخبر من الله تعالى مرتفع المرتبة والمنزلة .

المطلب الثاني : السياق الصوتي وأثره في توجيه المسائل النحوية.

إنّ الاختلاف في القراءات القرآنية ينجم عنه اختلاف في الإعراب، لذلك أولى المعربون لكلام الله تعالى، علم القراءات عناية عظيمة؛ فإن تعدد الروايات في القرآن ينبئ عن تعدد في الأوجه الإعرابية، فالقرآن حمّال ذو وجوه، والملاحظ أن المفسرين غالبهم له إلمام بالقراءات فهم لا يستطيعون الإقدام على توجيه كلام الله من دون دراية بهذا العلم العظيم .

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[الزخرف:35], على قراءة الجمهور بتخفيف الميم من{لَمَّا} ، فـ{إِنْ} هي المخففة، من الثقيلة، واللام هي الفارقة بين {إِنْ} المخففة من الثقيلة، و{إِنْ} النافية المشار إليها بقوله في الخلاصة:

وَخُفِّفَتْ إِنْ فَقَلَّ الْعَمَلُ وَتَلْزَمُ اللَّامُ إِذَا مَا تُهْمَلُ

و {مَّا}مزيدة للتوكيد، وأما على قراءة عاصم وحمزة وابن عامر في إحدى الروايتين عن هشام {لَمَّا}بتشديد الميم فـ {إِنْ} نافية، و {لَمَّا} حرف إثبات بمعنى إلا.

والمعنى: وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا. وذكره بعضهم أنّ تشديد ميم {لَمَّا} على

---

389 أضواء البيان ، ج7 ،ص 411

390 عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي ،مدراك التنزيل وحقائق التأويل ،تحقيق الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ،1995م. ج3 ، ص 242

391أضواء البيان، ج3 ،ص 385

بعض القراءات في هذه الآية وآية الطارق: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} [الطارق:4], لغة بني هذيل بن مدركة"[392]
فظهر أن التخفيف والتشديد في ميم "لما " قراءة سبعية ، كل قراءة لها ما يؤيدها من جهة الدرس النحوي .

قوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[سبأ : 3]قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر: {عَالِمُ الْغَيْبِ} بألف بعد العين وتخفيف اللام المكسورة، وضمّ الميم على وزن فاعل. وقرأه حمزة والكسائي: {عَلاَّمُ الْغَيْبِ}، بتشديد الميم وألف بعد اللام المشدّدة وخفض الميم على وزن فعال. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: {عَالِمِ الْغَيْبِ} ؛ كقراءة نافع وابن عامر، إلا أنهم يخفضون الميم.
وقد وجّه الشنقيطي القراءتين فمن قرأ "على قراءة نافع وابن عامر بضم الميم، من قوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ}، فهو مبتدأ خبره جملة: {لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ} الآية، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو عالم الغيب.وعلى قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم: {عَالِمِ الْغَيْبِ}بخفض الميم فهو نعت لقوله: {رَبّى}، أي: قل: بلى وربي عالم الغيب لتأتينكم، وكذلك على قراءة حمزة والكسائي: {عَلاَّمُ الْغَيْبِ} " [393]. فالحجة لمن خفض أنه جعله وصفا لقوله بلى وربي لأنه مخفوض بواو القسم فأما علام فهو أبلغ في المدح من عالم وعليم"[394].
فاتضحأن كلَّ هذه القراءات الثلاث قراءات مشهورات في قراء الأمصار متقاربات المعاني

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾[سبأ: 5]قرأ ابن كثير وحفص: {مّن رّجْزٍ أَلِيمٌ} ،بضم الميم من قوله: {أَلِيمٌ} على أنه نعت؛ لقوله: {عَذَابِ} وقرأ الباقون: {أَلِيمٌ} بالخفض على أنه نعت لقوله: {رِجْزٍ} "[395]، فالرفع على أن الأليم وصف العذاب كأنه قال عذاب أليم من أسوأ العذاب والجر على أنه وصف للرجز والرفع أقرب نظراً إلى المعنى والجر نظراً إلى اللفظ"[396]
إلا أن مَكّيًّا ضعّف قراءة الرفع واستبعدها قال : لأن الرّجز هو العذاب فيصير التقدير عذاب أليم من عذاب وهذا المعنى غير ممكن قال : والاختيار خَفْضُ " أليم " لأنه أصحّ في التقدير والمعنى إذ تقديره لهم عذابٌ من عذابٍ أليم أي هذا الصِّنف من أصناف العذاب ، لأن العذاب بعضه آلم من بعض "[397]كما قرأت القراء {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ

392المرجع نفسه ،ج7، ص119
393أضواء البيان ،ج6 ،ص264
394ابن خالويه ، الحجة في القراءات السبع ، ج3 ، ص 211
395 المرجع نفسه، ج،6 ص 264
396 الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج25 ، ص 210
397ابن عادل الحنبلي ، اللباب في علوم الكتاب ، ج 9 ، ص 122

سُنْدُسٍ خُضْرٍ} و{خُضْرٌ} وقرءوا {فى لَوْح محفوظٍ} لِلَّوح و {محفوظٌ} للقرآن. وكلّ صواب".[398]

وقوله تعالى: ﴿**فَبِمَ تُبَشِّرُونَ**﴾[الحجر : 54]، قرأه ابن عامر وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي بفتح النون مخففة، وهي نون الرفع، وقرأه نافع بكسر النون مخففة وهي نون الوقاية مع حذف ياء المتكلم لدلالة الكسرة عليها، وقرأه ابن كثير بالنون المكسورة المشددة مع المد، فعلى قراءة ابن كثير لم تحذف نون الرفع ولا المفعول به بل نون الرفع مدغمة في نون الوقاية وياء المتكلم هي المفعول به، وعلى قراءة الجمهور فنون الرفع ثابتة، والمفعول به محذوف على حد قول ابن مالك:

وَحَذْفُ فُضْلَةٍ أَجِزْ إِنْ لَمْ يَضُرْكَحَذْفِ مَا سِيقَ جَوَابًا أَوْ حُصِر

وعلى قراءة نافع فنون الرفع محذوفة لاستثقال اجتماعها مع نون الوقاية"[399].

فظهر بذلك أن القراءة بكسر النون والتّخفِيفوإبقاء الكسرة لتدل على الياء المحذوفة و قراءة فتح النون كونها نون الرفع.

المطلب الثالث :السياق الصوتي وأثره في توجيه الوحدات الصرفية .

إن علماء العربية قد التفتوا في دراساتهم اللغوية الصرفية إلى الصيغة، ودارحولها منذ البداية إلى النهاية علم الصرف العربي، فتم تقعيد صيغ العربية وتحديد أصنافهاوأقسامها،لقد رأى بعض المحدثين أن هنالك نوعًا آخر من أنواع المورفيمات وشكلًا آخر منأشكاله يتأثر ببعض الظروف السياقية، فيأخذ صورة صوتية غير التي كان عليها، ويطلق عليه بعض الباحثين في هذه الحالة مصطلحًا صرفيًّا صوتيًّا هو "مورفوفونيم"، أوالوحدة الصرفية الصوتية[400]. وقد استعمل الشنقيطي هذه الدراسة في تفسيره منها :

قوله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[الحجرات:1] ذكر الشنقيطي في قوله تعالى: {لا تُقَدِّمُوا} ثلاثة أوجه عند المفسّرين أظهرها عنده "أنّه مضارع قدّم اللازمة بمعنى تقدم.ومنه مقدمة الجيش ومقدمة الكتاب بكسر الدال فيهما، وهو اسم فاعل قدم بمعنى تقدم. ويدلّ لهذا الوجه قراءة يعقوب من الثلاثة الذين هم تمام العشرة {لا تُقَدِّمُوا} بفتح التاء والدال المشددة وأصله لا تتقدموا فحذفت إحدى التاءين"[401].

فظهر أن ال قراءتين، الاولى بضم التاء وهي قراءة الجمهور، والثانيةبفتحها . والقراءتان بضم التاء وفتحها متحدتان في المعنى.

قوله تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاما**﴾[الفرقان: 67] اختلف القراء في قراءة قوله"وَلَمْ يَقْتُرُوا" حيث " قرأ هذا

398الفراء ، معاني القرآن ، ج4 ، ص43
399المرجع نفسه، ج2، ص 282
400بسومي ، علم اللغة العام ، ص 70
401أضواء البيان ، ج7، ص 150

الحرف نافع وابن عامر: {وَلَمْ يُقَتِّرُوا}بضمّ الياء المثناة التحتية وكسر التاء مضارع أقتر الرباعي، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو:{وَلَمْ يَقْتِرُوا} بفتح المثناة التحتية، وكسر المثناة الفوقية مضارع قتر الثلاثي كضرب، وقرأه عاصم وحمزة، والكسائي،{وَلَمْ يَقْتُرُوا} بفتح المثناة التحتية، وضمّ المثناة الفوقية مضارع قتر الثلاثي كنصر، والإقتار على قراءة نافع وابن عامر، والقتر على قراءة الباقين معناهما واحد، وهو التضييق المخل بسد الخلّة اللازم،[402]

فنلاحظ أن الشنقيطي استعان بالسياق الصوتي في تحديد نوع صيغة الفعل أثلاثي هو أم رباعي ، فالفعل إذا كان رباعيا ضم حرف مضارعته" إن كان الماضي أربعة أحرف سواء كانت كلها أصولا نحو دحرج يدحرج أو كان بعضها أصلا وبعضها زائدا نحو اكرم يكرم فإن الهمزة فيه زائدة لأن أصله كرم ويفتح إن كان الماضي أقل من الأربعة أو أكثر منها"[403]

قوله تعالى:﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[النمل:49]

قرأ عاصم:{مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ} بفتح الميم، والباقون بضمّها، وقرأ حفص عن عاصم:{مُهْلِكَ}بكسر اللام، والباقون بفتحها. فتحصّل أن حفصًا عن عاصم قرأ{مَهْلِكَ} بفتح الميم وكسر اللام، وأنّ أبا بكر -أعني شعبة- قرأ عن عاصم:{مَهْلَكَ} بفتح الميم واللام، وأن غير عاصم قرأ:{مُهْلَكَ أَهْلِهِ}، بضم الميم وفتح اللام،لقد وجّه الامام الشنقيطي قراءة "من قرأ {مَهْلِكَ}بفتح الميم، فهو مصدر ميمي من هلك الثلاثي ويحتمل أن يكون اسم زمان أو مكان، وعلى قراءة من قرأ {مُهْلِكَ} بضم الميم، فهو مصدر ميمي من أهلك الرباعي، ويحتمل أن يكون أيضًا اسم مكان أو زمان."[404]

نتج عن التغير في الصيغة الصرفية للفظة "مهلك"تغير في الدلالة.لأ ن المعول فى توجيه القراءات القرآنية يقوم فى جله على اللغة وفنونها.

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾[الصافات: 12].وجّه الشنقيطي قراءة" عامة القراء السبعة غير حمزة والكسائي:{عَجِبْتَ} بالتاء المفتوحة وهي تاء الخطاب، المخاطب بها النبيّ صلى الله عليه وسلم. وقرأ حمزة والكسائي:{بَلْ عَجِبْتَ}، بضم التاء وهي تاء المتكلم، وهو اللّه جلَّ وعلا." [405] وقد كان الفراء يفضل رفع التاء قال :والرفع أحبّ إليَّ لأنها قراءة عَلِيٍّ وابن مسعودٍ وعبدالله بن عبّاسٍ ،وأما شريح القاضي فأنكر قراءة الرفع وقال :إن الله لا يَعْجب منْ شيءٍ، إنما يَعجب مَن لا يعلم. قال: فذكرت ذلكَ لإبراهيم النَخَعيّ فقال: إن شُريحاً شاعر يعجُبهُ عِلمه، وعبدالله أعلم بذلكَ منه. قرأهَا (بل عجبتُ ويَسْخَرُونَ).[406]

402أضواء البيان، ج6، ص75
403ابن هشام ، قطر الندى وبل الصدى ، ص 40
404 أضواء البيان ،ج6 ،ص120
405المرجع السابق، ج6 ،ص 308
406للفراء ،معاني القرآن ،ج4 ، ص81

إن توجيه الشنقيطي للآية الكريمة كان متعدد الدلالة فبضم التاء إثبات صفة العجب لله تعالى كما تليق به ، وبالفتح تاء الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

المبحث السَّابع

السياق الصرفي وأثره في توجيه الصيغ الصرفية.

المبحث السابع :السياق الصرفي وأثره في توجيه الصيغ الصرفية.

إن الوحدة الصّرفية عنصر حيويّ يستمّد حيويته من السّياق، فيؤثّر فيه ويتأثّر به شأنه في ذلك شأن الكائن الحيّ الذّي لا يكتسب حياته إلاّ بالتفاعل مع أبناء جنسه، وهو الفضاء الذّي نقتحمه لكشف أسرار الصناعة اللفظيّة في اللغة، هي إشارات، أوْ علاماتٌ تَسْبَحُ في فضاءالخطاب دون قيدٍ دلاليّ، أوْ بنيوي، فدلالاتها متولّدة من حُرّية تخلّصها من السّوابق واللّواحق، ومن ثمّة فهي كوكبٌ عائم يوظّفه المُبدعُ لتحقيق غايته الفنيّة والجماليّة والفكرية.

إن هذه الصيغ ليس لها دلالاتٌ إلاّ الدّلالات المباشرة، لكنْ إذا تعمقنّا، أوْ عمّقنا النّظر في التحام الوحدات الصّرفية والتصاقها بجذورها نجد أنّ هناك دلالاتٍ عميقةً خلقها السّياق،فتترك اللغة للسياق الحق في تحديد نوع المشتق حسب المعنى المراد من الكلام وعلى الرغم من أنّ اسم الفاعل واسم المفعول ضدان في المعنى ،فإنّ السياق يحتملهما أحيانا أما حين يَحْتَمِلُ السياقُ المعنيين جميعا فإن العلماء يقبلونهما ما لم يكن هناك مرجح من قرينة لفظية أو حالية،إنّ التحويل في الصيغ هو موضوع صرفيّ يبحث في الأصول والفروع والدّلالة والأصوات والقراءات القرآنية، والضرائر الشعرّية، وعلم النّحو، والفصائل النحّوية، وما قالته العرب في كلامها باستخدام صيغةٍ بدلَ صيغةٍ أخرى"[407] .

وقد جاءت القراءات القرآنية شاهدة على هذا في بعض المواضع في القرآن الكريمفمنها :

قوله تعالى:﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً ﴾[مريم:14] لقد نظر المفسرون إلى أن " عصيا " يحتمل أن يكون أصله عصييا بوزن فعيل أدغمت الياء فيه ويحتمل أن يكون أصله فعولا وهي منصيغ المبالغة "[408]والمراد المبالغة في النفي لا نفي المبالغة "[409] ونقل السمين الحلبي القولين جميعا مجوّزا لهما من دون ترجيح[410]

وأمّا الشنقيطي فاختار أن يكون" قوله: {عصياً} فعول قلبت فيه الواو ياء، وأدغمت في الياء على القاعدة التصريفية المشهورة: التي عقدها ابن مالك في الخلاصة بقوله:

إنْ يَسْكُنِ السَّابِقُ مِنْ وَاوٍ وَيَا وَاتَّصَلَا وَمِنْ عُرُوضٍ عَرِيَا
فَيَاءُ الْوَاوِ اقْلِبَـنَّ مُدْغِمَـا وَشَذَّ مُعْطًى غَيْرُ مَا قَدْ رُسِمَا

فأصل {عصياً} على هذا «عصوياً» كصبور، أي كثير العصيان"[411]

وفي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿و لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾[النحل: 61] استظهر الشنقيطي في الفعل {يُؤَاخِذُ}،"أنّ المفاعلة فيه بمعنى الفعل المجرد؛ فمعنى آخذ الناس يؤاخذهم: أخذهم بذنوبهم؛ لأنّ المفاعلة تقتضي الطرفين. ومجيئها

---

407 د ياقوت محمود سليمان، ظاهرة التحويل في الصيغ الصّرفية، الإسكندرية، 1986، ص9،
408أبو حيّان ، البحر المحيط ، ج8 ،ص 18
409الألوسي ، روح المعاني ، ج 11 ، ص 461
410السمين الحلبي ،الدر المصون ، ج6، ص 211
411أضواء البيان، ج3 ،ص 381

بمعنى المجرّد مسموع؛ نحو: سافر وعافى."[412] كمجيء قوله تعالى:{لا تؤاخذنا }فقد حكى أبوحيّان: أنّ "فَاعَل هنا بمعنى الفعل المجرّد، نحو: أخذ، لقوله:{فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ}[العنكبوت: 40] وهو أحد المعاني التي جاءت لها فَاعَل"[413]

وقوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[مريم:65]أشار المفسّرون أنّ "المشهد "في الآية صالحلمعان، وهو أن يكون مشتقا من المشاهدة أو من الشهود، ثم إمّا أنيكون مصدرا ميميا في المعنيين أو اسم مكان لهما أو اسم زمان لهما[414]

وقد استظهر الشنقيطي أنّ لفظ " المشهد في الآية مصدر ميمي. أي فويل لهم من شهود ذلك اليوم أي حضوره لما سيلاقونه فيه من العذاب. خلافاً لمن زعم أنّ المشهد في الآية اسم مكان. أي فويل لهم من ذلك المكان الذي يشهدون فيه تلك الأهوال والعذاب. والأول هو الظاهر وهو الصواب."[415]

قال الله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[الحج : 38]قرأ هذا الحرف ابن كثير وأبو عمرو:{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ}بفتح الياء والفاء بينهما دال ساكنة مضارع دفع المجرد، وعلى هذه القراءة، فالمفعول محذوف أي يدفع عن الذين آمنوا الشر والسوء، لأن الإيمان بالله هو أعظم أسباب دفع المكاره، وقرأ الباقون: يدافع بضم الياء، وفتح الدال بعدها ألف. وكسر الفاء مضارع دافع المزيد فيه ألف بين الفاء والعين على وزن فاعل. واستشكل الشنقيطي قراءة الجمهور" وهو أن المفاعلة تقتضي بحسب الوضع العربي اشتراك فاعلين في المصدر ، والله جل وعلا يدفع كل ما شاء من غير أن يكون له مدافع يدفع شيئاً.

فأجاب الإمام الشنقيطيبأن" المفاعلة قد ترد بمعنى المجرّد، نحو: جاوزت المكان بمعنى جزته، وعاقبت اللص، وسافرت، وعافاك الله، ونحو ذلك، فإن فَاعَل في جميع ذلك بمعنى المجرّد، وعليه فقوله: يدافع بمعنى:يدفع.كما دلت عليه قراءة ابن كثير وأبي عمرو، وقال الزمخشري: ومن قرأ يدافع فمعناه: يبالغ في الدفع عنهم كما يبالغ من يغالب فيه لأن فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ منه"[416]

وقوله في هذه الآية الك ـريمة:﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلا﴾[الإسراء: 72]، قال بعض أهل العلم: إن قوله "أعمى "الثانية ليست صيغة تفضيل،بل المعنى فهو فيالآخرة أعمى كذلك لا يهتدي إلى نفع. وبهذا جزم الزمخشري.[417]وقد نظر الشنقيطي إلى أن : الذي يتبادر إلى الذهن أن لفظة «أعمى»

412المرجع نفسه، ج2، ص 392
413البحر المحيط ،ج3، ص 137
414الطاهر بن عاشور ،التحرير والتنوير، ج16 ، ص 39
415أضواء البيان ،ج3 ،ص420
416أضواء البيان، ج5 ، ص262
417الزمخشري ، الكشاف، ج3 ، ص 176

الثانية صيغة تفضيل. أي هو أشد عمى في الآخرة ويدل عليه قوله بعده {وَأَضَلُّ سَبِيلاً}، فإنها صيغة تفضيل بلا نزاع. والمقرر في علم العربية: أن صيغتي التعجب وصيغة التفضيل لا يأتيان من فعل الوصف منه على أفعل الذي أنثاه فعلاء. كما أشار له في الخلاصة بقوله:

..... **وَغَيْرِ ذِي وَصْفٍ يُضَاهِي أَشْهَلَا** "[418]

ولا بُدَّ لنا هنا أن نلحظ أن ألفاظ اللغة قد يكون اللفظ واحداً ولكن يختلف السياق ، ففي قوله تعالى :{ وَمَن كَانَ فِي هذه أعمى فَهُوَ فِي الآخرة أعمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً }[الإسراء : 72] فلفظ { أعمى } واحد ، لكن في الآخرة قال{ وَأَضَلُّ سَبِيلاً }إذن : لا بُدَّ أن عمى الدنيا أقلّ من عمى الآخرة إذن : فكلمة :{ فَهُوَ فِي الآخرة أعمى . . }[الإسراء : 72] ليست وَصْفاً، وإنما تفضيل لعمى الآخرة على عمى الدنيا ، أي أنه في الآخرة أشدّ عمىً .و{ أعمى } هنا من عمى القلب لا من عمى البصر لأن ذلك يقع فيه التفاضل لا هذا.[419]

قوله تعالى:﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[الشعراء : 227]فالمنقلب: مصدر ميمي من الانقلاب وهو المصير والمآل لأن الانقلاب هو الرجوع"[420] وقد استظهر الشنقيطي هذا القول ، مستندا فيه على السياق الصرفي؛ لأنه "قد تقرّر في فن الصرف أن الفعل إذا زاد على ثلاثة أحرف كان كل من مصدره الميمي، واسم مكانه، واسم زمانه على صيغة اسم المفعول." [421] فالمصدر الميمي " يصاغ لغير الثلاثي المجرد، على وزن المضارع المبني للمجهول مع إبدال حرف المضارعة ميما مضمومة، وفتح ما قبل الآخر[(422)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴾[المرسلات : 41] أصل "المتقين": الموتقيين بياءينمخففتين، حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلهاثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين [423]وهو اسم فاعل من الاتقاء وأصل مادة الاتقاء "و ق ى" لفيف مفروق فاؤه واو، وعينه قاف، ولامه ياء، فدخله تاء الافتعال فصارت وقى أو تقى، فأبدلت الواو التي هي فاء الكلمة تاء للقاعدة المقررة في التصريف: أن كل واو هي فاء الكلمة إذا دخلت عليها تاء الافتعال يجب إبدالها، أعني الواو تاء وإدغامها في تاء الافتعال نحو اتصل من الوصل، واتزن من الوزنواتحد من الوحدة، واتقى من الوقاية، وعقد هذه القاعدة ابن مالك في الخلاصة

ذُو اللِّينِ فَاتَا فِي افْتِعَالٍ أَبْدِلَا وَشَذَّ فِي ذِي الْهَمْزِ نَحْوَ ائْتَكَلَا"[424]

418أضواء البيان ،ج3 ،ص 177
419 البحر المحيط ، ج7 ، ص 389
420التحرير والتنوير ،ج19 ، ص 251
421أضواء البيان ،ج6، ص108
422 سيبويه ،الكتاب. ، ج4 ، ص 85
423القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ،ج1،ص161
424أضواء البيان، ج2 ،ص278

قوله تعالى:﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[النحل :79] لم يذكر علماء العربية الفَعْل - بفتح فسكون - من صيغ جموع التكسير.وقد ذكر الشنقيطي أنّ: الذي يظهر له من استقراء اللغة العربية: أن الفعل- بفتح فسكون- جمع تكسير لفاعل وصفاً لكثرة وروده في اللغة جمعاً له؛ كقوله هنا: {أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ} فالطير جمع طائر، وكالصحب فإنه جمع صاحب؛ قال امرؤ القيس:

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطِيُّهُمْيَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

فقوله: "صحبي"، أي: أصحابي. وكالركب فإنه جمع راكب؛ قال تعالى: {وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} [الأنفال : 42] .

وقال ذو الرُمّة:

أَسْتَحْدَثَ الرَّكْبُ عَنْ أَشْيَاعِهِمْ خَبَرَا أَمْ رَاجَعَ الْقَلْبَ مَنْ أَطْرَابِهِ طَرَبُ

فالركب جمع راكب. وقد رد عليه ضمير الجماعة في قوله: "عن أشياعهم"[425]

قوله تعالى:﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[الأنبياء:73]وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة:{وَإِقَامَ الصَّلَاةِ} لم تعوض هنا تاء عن العين الساقطة بالاعتلال على القاعدة التصريفيّة المشهورة. لأن عدم تعويضها عنه جائز كما هنا، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله:

..... وَأَلِـــفُ الْإِفْعَالِ وَاسْتِفْعَالِ

أَزِلْ لِذَا الْإِعْلَالَ ، وَالتَا الْزَمْ عِوَضْ وَحَــذْفُهَا بِـالنَّقْلِ رُبَّمَا عَرَضْ

وقد أشار في أبنية المصادر إلى أنّ تعويض التاء المذكورة من العين هو الغالب بقوله:

وَاسْتَعِذِ اسْتِعَاذَةً ثُمَّ أَقِمْ إِقَامَةً وَغَالِبًا ذَا التَّا لَزِمْ

وما ذكره من أن التاء المذكورة عوض عن العين أجود من قول من قال: إن العين باقية وهي الألف الباقية، وأن التاء عوض عن ألف الافعال."[426]

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾[الفرقان : 13] في هذه الآية الكريمة قال:{مَكَاناً ضَيِّقاً}، وكذلك في "الأنعام" في قوله تعالى : يجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً} وقال في هود {وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ} فما وجه التعبير في سورة هود، بقوله:{ضَائِقٌ} على وزن فاعل، وفي "الفرقان" و"الأنعام" بقوله:{ضَيِّقاً} على وزن فيعل، مع أنّه في المواضع الثلاثة هو الوصف من ضاق يضيق، فهو ضيّق.

فأجاب الشنقيطي بأنه قد " أنه تقرر في فن الصرف أن جميع أوزان الصفة المشبهة باسم الفاعل إن قصد بها الحدوث والتجدد جاءت على وزن فاعل مطلقاً، كما أشار له ابن مالك في لاميته بقوله:

425أضواء البيان ،ج2 ،ص419

426 أضواء البيان ،ج4 ،ص167

وَفَاعِلٌ صَالِحٌ لِكُلٍّ إِنْ قَصَدَ الـ حُدُوثَ نَحْوَ غَدًا ذَا فَارِحٌ جَذِلًا

وإن لم يقصد به الحدوث، والتجدد بقي على أصله.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله تعالى في سورة "هود" {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ} أريد به أنه يحدث له ضيق الصدر، ويتجدد له بسبب عنادهم وتعنتهم في قولهم: {لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ}ولما كان كذلك، قيل فيه: {ضَائِقٌ} بصيغة اسم الفاعل، أما قوله: {ضَيِّقاً}في"الفرقان" و"الأنعام" فلم يرد به حدوث، ولذلك بقي على أصله[427].

427أضواء البيان ، ج6 ، ص 28

المبحث الثامن

السياق البلاغي وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

المبحث الثامن : السياق البلاغي وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

إن للبلاغة أهميّة كبيرة في فهم النصوص القرآنيّة والوقوف على أغراضها ، فهي علم لا غنى للمفسّر عنه ، إذ به يعرف الإعجاز القرآني ، وما ينطوي عليه من حكم وأسرار عظيمة، أودعت في كلام الله جل وعلا ، لذا تجد عامّة أصحاب التفسير لا تخلو كتبهم من لمسات بيانية ، مستنبطة من آي الذكر الحكيم .

المطلب الأول:السياق البلاغي وأثره في توجيه الأساليب التعبيرية.

إن المتتبّع للنص القرآني يدرك أن المساقات تختلف فيه باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل ، مما هو معلوم في علم البيان والمعاني ، فالضابط الذي يلزم في فهم النص هو الالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها، مما تبينه أسباب النزول ، فإن علم البيان والمعاني إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال.[428]

قوله تعالى :﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ ﴾[البقرة : 197] وجّه الإمام الشنقيطي الصيغة في قوله{فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ}بأنها" صيغة خبر أريد بها الإنشاء: أي فلا يرفث ولا يفسق، ولا يجادل، وقد تقرر في فن المعاني أن الصيغة قد تكون خبرية، والمراد بها الإنشاء لأسباب منها التفاؤل كقولك: رحم الله زيداً، فالصيغة خبرية، والمراد بها إنشاء الدعاء له بالرحمة، ومنها إظهار تأكيد الإتيان بالفعل، وإلزام ذلك كقوله تعالى:{هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [الصف: 10-11]: أي آمنوا بالله بدليل جزم الفعل في قوله{يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}[الصف:12] فهو مجزوم بالطلب المراد بالخبر في قوله {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} أي آمنوا بالله، يغفر لكم ذنوبكم كقوله{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ}[التوبة: 15] {تَعَالَوْا أَتْلُ} [الأنعام: 151]،ونحو ذلك، وأبان عنالمسوّغ لكون الصيغة في الآية خبرية،" هو إظهار التأكد، واللزوم في الإتيان بالإيمان فعبر عنه بصيغة الخبر، لإظهار أنه يتأكد ويلزم أن يكون كالواقع بالفعل المخبر عن وقوعه وكقوله تعالى:{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ} [البقرة: 233]،وقوله{وَالْمُطَلَّقَ ـاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ}[البقرة: 228]. فالمراد الأمر بالإرضاع، والتربص وقد عبّر عنه بصيغة خبريّة لما ذكرنا، كما هو معروف في فن المعاني." [429]ففي الرفث والفسوق والجدال نفي الجنس مبالغة في النهي عنها وإبعادها عن الحاج، حتى جعلت كأنها قد نهي الحاج عنها فانتهي فانتفت أجناسها"[430].

وفي تفسيره لقوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[آل عمران :252]أشار الشنقيطي أن " في الآية خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم و تنويها بشأنه، وتثبيتا لقلبه،

428عبد الرحمن بودرع ، منهج السياق في فهم النص ،ص 24

429أضواء البيان، ج5، ص 13

430الطاهر بن عاشور ،التحرير والتنوير ، ج2 ، ص 229

وتعريضا بالمنكرين رسالته. وتأكيد الجملة بإن للاهتمام بهذا الخبر، وجيء بقوله:{مِنَ الْمُرْسَلِينَ}دون أن يقول: "وإنك لرسول الله"، للرد على المنكرين بتذكيرهم أنه ما كان بدعا من الرسل، وأنه أرسله كما أرسل من قبله، وليس في حالة ما ينقص عن أحوالهم. [431] وقد أشار الشنقيطي إلى أنّه " يفهم من تأكيده هنا بأنّ واللام أنّ الكفار ينكرون رسالته كما تقرّر في فن المعاني، وقد صرّح بهذا المفهوم في قوله:{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً}[الرعد :43] " [432]

استنبط الشنقيطي من مجيء الآية على نمط التأكيد؛ أنها جاءت للرد على من أنكر رسالته . لأن الإكثار من أدوات التوكيد دليل على إنكار المخاطب .

قوله تعالى:﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[الحجر :3] ،

هدّد الله تعالى الكفار في هذه الآية الكريمة بأمره نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتركهم يأكلون ويتمتعون فسوف يعلمون حقيقة ما يؤول إليه الأمر من شدة تعذيبهم وإهانتهم وهددهم هذا النوع من التهديد في مواضع أُخر،كقوله:{قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ}[إبراهيم: 30] ،وقوله:{كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ}[المرسلات : 46]، وقوله: {قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}[غافر : 8]، وقوله: {فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}[المعارج: 42]،وقوله{فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ}[الذاريات :45]، إلى غير ذلك من الآيات.وقد تقرّر في فن المعاني وفي مبحث الأمر عند الأصوليين أنّ من المعاني التي تأتي لها صيغة أفعل التهديد، كما في الآية المذكورة، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة:{ذَرْهُمْ} ، يعني اتركهم، وهذا الفعل لم يستعمل منه إلاّ الأمر والمضارع، فماضية ترك، ومصدره الترك، واسم الفاعل منه تارك، واسم المفعول منه متروك"[433].

قوله تعالى:﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾[الحجر:85]، ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنّ الساعة آتية، وأكّد ذلك بحرف التوكيد الذي هو {إنَّ}، وبلام الابتداء التي تزحلقها إن المكسورة عن المبتدأ إلى الخبر، وذلك يدل على أمرين، أحدهما: إتيان الساعة لا محالة،والثاني: أن إتيانها أنكره الكفار؛ لأن تعدد التوكيد يدل على إنكار الخبر، كما تقرر في فن المعاني."[434]

قوله تعالى :﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾[المائدة:91] أكّد النهي عنها بأن أورده بصيغة الاستفهام في قوله:{فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}، فهو أبلغ في الزجر من صيغة الأمر التي هي "انتهوا"، وقد تقرّر في فن المعاني: أنّ من معاني صيغة الاستفهام

431الطاهر بن عاشور ،التحرير والتنوير ، ج2 ، ص 481

432أضواء البيان ،ج1 ص ،154

433أضواء البيان، ج2، ص 253

434المرجع نفسه، ج2 ص313

التي ترد لها الأمر؛ كقوله: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}، وقوله: {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ...}[آل عمران: 165] [435]

لقد استعمل الشنقيطي ما تقرر عند البلاغيين من أن صيغة الاستفهام ترد لمعان كثيرة،من أشهرها صيغة الأمر كما هو محقق من دلالة الآية الكريمة .

قال الله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾[الأنبياء : 36]والاستفهام في قوله {أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ}قال فيه أبو حيّان في البحر: إنّه للإنكار والتعجيب." [436] والظاهر عند الشنقيطي "أنّهم يريدون بالاستفهام المذكور التحقير بالنَّبي صلى الله عليه وسلم، كما تدلَّ عليه قرينة قوله {إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً}. وقد تقرّر في فن المعاني: أنّ من الأغراض التي تؤدي بالاستفهام التحقير"[437]

المطلب الثاني :السياق البلاغي وأثره في توجيه دلالة الأفعال.

إن مجيء الأفعال في السياق القرآني كثيراً ما يخرج عن النمط المألوف للغة من حيث التصرف في أزمنة الفعل، وذلك كالتعبير عن الحدث الماضي بالمضارع والتعبير عن الحدث المستقبل بالزمن الماضي، وكثيراً ما نجد السياق القرآني لا يجري على نمط واحد فيالمطابقة الزمنية بين الأفعال، إذ يحصل تصرف في التحول الداخلي للسياق نفسه بالمخالفة في أزمنة الأفعال، كأن يرد في السياق ذكر الفعل المضارع ثم ينكسر النسق السياقي بمجيء الفعل الماضي في السياق نفسه أو العكس، مما يثير التساؤل عن معرفة سبب ذلك التحول ودلالته التعبيريّة في السياق القرآني. وقد اعتنى الشنقيطي بهذا النوع نذكر طرفا منه .

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحج : 63]طرح الإمام الشنقيطي تساؤلا وأجاب عنه " فإن قيل ما حكمة عطف المضارع في قوله:{فَتُصْبِحُ}على الماضي الذي هو أنزل؟ فالجواب :أنّ النكتة في المضارع هي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان كما تقول: أنعم عليَّ فلان عام كذا وكذا، فأروح وأغدو شاكراً له، ولو قلت: فغدوت ورحت، لم يقع ذلك الموقع، هكذا أجاب به الزمخشري وأن التعبير بالمضارع يفيد استحضار الهيأة التي اتصفت بها الأرض بعد نزول المطر، والماضي لا يفيد دوام استحضارها لأنه يفيد انقطاع الشيء"[438]فالسياق هو الذي أضفى على الفعل المضارع

في هذه الحالة دلالة زمنية معينة، وذلك منعطف الفعل المضارع على الفعل الماضي،إذ يقتضي السياق بموجب المطابقة الزمنية أنتجري الأفعال الواردة فيه على نسق واحد،يقول السيوطي: "وما عطف على حال أو مستقبل أو ماضٍ أو عطف عليه ذلك فهو مثله؛ لاشتراط اتحاد الزمان في الفعلينالمتعاطفين"{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ

435المرجع نفسه،ج2، ص405
436أبو حيّان ، البحر المحيط ، ج8 ، ص 168
437أضواء البيان ، ج4 ،ص 148
438المرجع السابق ، ج5 ، ص 295

السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ }.[439]فالدلالة السياقيّة تقتضي مضيّه والدلالة النحويّة للصيغة تقتضي استحضاره، فيجمع بين الدلالتين ليقال: إنّه الماضي الحاضر أو بعبارة (فندريس) هو"المضارع التاريخي "

و قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَانُ مَدّاً ﴾[مريم : 75]من المفسرين من يرى أن صيغة الطلب وهى{فَلْيَمْدُدْ }على بابها ،ويكون المقصود بالآية الدعاء على الضال من الفريقين بالازدياد من الضلال .قد رجّح هذا التفسير الإمامان ؛ ابن جرير وتبعه ابـن كـثير عليه حيث قال " قال تعالى -{قُلْ }يا محمد ل -هؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل{ مَن كَانَ فِي الضلالة}أي منا ومنكم{ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً } فليدعه الله في طغيانه هكذا ،قرّر ذلك أبو جعفر بن جرير وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه كما ذكر - تعالى – مبـاهلة اليهود والنصارى .ومع وجاهة التفسيرين لم ـــعنى{ فَلْيَمْدُدْ لَهُ . . . }إلا أنا نميل إلى الرأي الأول وهو أن صيغة الطلب يراد بها الإخبار عن سنة الله - تعالى - في الضالين ،لأنه هو المتبادر من معنى الآية الكريمة ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك { وَيَزِيدُ الله الذين اهتدوا هُدًى } يؤيّد هذا الرأي " .[440]قال صاحب «الكشاف» : يزيد معطوف على موضع فليمدد لأنه واقع موقع الخبر وتقديره من كان في الضلالة يمد له الرحمن مداً ويزيد أي يزيد في ضلال الضلال بخذلانه بذلك المد ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه [441].

وقد ذكر الشنقيطي أن من الأوجه التي ذكرها العلماء "أن صيغة الطلب فيقوله:{فَلْيَمْدُدْ} يراد به الاخبار عن سنة الله في الضالين. وعليه فالمعنى: أن الله أجرىالعادة بـأنه يمهلبها

الإخبار الضال ويملي له فيستدرجه بذلك حتى يرى ما يوعده، وهو في غفلة وكفر وضلال فإن قيل على هذا الوجه. ما النكتة في إطلاق صيغة الطلب في معنى الخبر؟ فـالجواب - أن الزمخشري أجاب في كشافه عن ذلك. قال في تفسير قـوله تعالى:{فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَانُ مَدّاً}أي: مد له الرحمن، يعني أمهله وأملى له في العمر. فـأخرج عـلى لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك، وأنه مفعول لا محالة، كالمأمور به الممتثل لتنقطع معاذير الضال، ويقال له يوم القيامة: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ}[فاطر :37]، ا هـ محل الغرض منه".[442]

وقوله: في هذه الآية الكريمة **:﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾**[مريم : 30] ،أبان المفسرون أنه قال ذلك وهو لم يؤت بعد الكتاب ولم ينبأ لكن لما كان تنبيهه أمرا محققا وتنزيل الكتاب عليه أمرا محققا عبر عنه بلفظ الماضي وكأنه حصل لأن كل ما يخبر الله به أنه سيكون فلابد أن يكون كما أخبر الله فإذا عبر عنه بالماضي فالمراد إفادة تحقق هذا الذي أخبر الله عنه وقد انتصر الشنقيطي لهذا القول ذلك ": أنه عبّر

439جلال الدين السيوطي ، همع الهوامع شرح جمع الجوامع ، ج1 ، ص 42
440محمد سيد طنطاوي ، الوسيط ، ج3، ص 166
441الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج10، ص337
442أضواء البيان ، ج3 ، ص 488

بالماضي عما سيقع في المستقبل تنزيلاً لتحقق الوقوع منزلة الوقوع ونظائره في القرآن كثيرة. كقوله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل: 1]،وقوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنبيين والشهداء وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق وهم لا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ} [الزمر:68]- إلى قوله-: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا} ،وقوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ} فهذه الأفعال الماضية المذكورة في الآيات بمعنى المستقبل. تنزيلاً لتحقق وقوعه منزلة الوقوع بالفعل، ونظائرها كثيرة في القرآن. وهذا الذي ذكرنا ـ من أن الأفعال الماضية في قوله تعالى: {آتَانِيَ الْكِتَابَ} الخ، بمعنى المستقبل هو الصواب إن شاء الله."[443]

إن الخروج عن مقتضى الظاهر، و التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، والغرض من هذا التعبير للدلالة على تحقق الوقوع، وهو كثير في القرآن المجيد.ومن روائعه ما كان على سبيل اقتطاع أحداث المستقبل التي سيتحقّق وقوعها حتماً، وتقديمها في صورة أحداثٍ تمَّ وقوعُها.[444]

443أضواء البيان ، ج3 ، ص 416

444عبد الرحمن الميداني ،البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ، ج1 ، ص 402

الفصـــــل الثَّالث

السياق غير اللغوي وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

المبحـــث الأوَّل: .سياق السنّة وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

المبحث الثّـــاني: سياق الموقف وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

المبحث الثَّالـــث: السياق الثقافي وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

المبحث الرَّابـــع: سياق لسان العرب وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

المبحث الخامس:سياق الثقافة الأصولية وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

المبحث السَّادس:السياق العاطفي وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

المبـــحث الأوّل

سياق السنّة وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

المبحث الأول :سياق السنّة وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

أوّل من أظهر تفسير القرآن وبيّن للنّاس معانيَه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان أعلم الناس بمعاني كتاب الله ،وإدراك أسراره، ومعرفة مقاصده. بل هو الذي وجّه إليه الله كلامه حيث قال :{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}[النحل: 84] ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا التبس عليهم فهم آية من الآيات، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، فيوضّح لهم ما غمض عليهم فهمه وإدراكه. إذ يعتبر النبي صلّى الله عليه وسلم من أعلم الناس بكتاب الله تعالى جملة وتفصيلا ،حيث كان ما يشكل عليه من فهم كلام الله تعالى يراجع فيه جبريل عليه السلام فيجيبه جبريل بما بلّغه عن ربّه سبحانه وتعالى.

المطلب الأول: سياق السنّة وأثره في إيضاح المفردة القرآنيّة.

اعتمد المفسّر الشنقيطي عند تفسيره للآيات التي يتوقّف بيانها على معرفة الكلمة القرآنيّة التي يدور عليها المعنى غالبا ، اعتمد بيان السنّة النبويّة الشريفة، وكان حريصا كلّ الحرص على ذلك ،خاصّة إذا كانت تلك الكلمة القرآنيّة ممّا يكثر ذكرها في القرآن ،وتحمل معان عدّة بحسب مواضعها في الآيات القرآنيّة ،أوْلا يوجد لها البيان الوافي من القرآن الكريم، عندها يلجأ إلى البيان بالسنّة ،ويوضِّح بها المراد وقد اعتمد هذا اللون من البيان وركّزعليه كثيرا وذكره في مواضع عدّة خاصة عندما تتكرَّر معه الكلمة القرآنيّة المفسِّرة نفسها. "فالسنة تفسّر القرآن الكريم وتبينه وتوضح معانيه، ولا تحتاج إلى إيضاح من القرآن، لأنها واضحة المعاني والعبارات" [445]

فعند تفسيره **لقوله تعالى:﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كبائر الْأِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾**[النجم:32].إنّ قوله "إلا اللمم" يرى جمهور العلماء أن الاستثناء هنا منقطع، وأن اللمم هو الذنوب الصغيرة"[446]

وقد أيّد الشنقيطي هذا القول بسياق السنة حيثأوضح دلالة "اللمم"مستظهرا أنّ المراد باللّمم صغائر الذنوب، ومن أوضح الآيات القرآنيّة في ذلك قوله تعالى:{إِنْ تَجْتَنِبُوا كبائر مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ}[النساء: 31],فدلّت على أنّ اجتناب الكبائر سبب لغفران الصغائر، وخير ما يُفسَّر به القرآن، القرآن. ويدلّ لهذا حديث ابن عباس الثابت في الصّحيح: قال ما رأيت شيئا أشبه باللّمم ممّا قال أبو هريرة عن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: " إنّ الله كتب على ابن آدم حظّه من الزّنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النّظر وزنا اللسان المنطق والنّفس تُمنّي وتشتهي والفرج يُصدّق ذلك أو يكذّبه" [447].

واختار هذا القول الطبري، إذ رأى أنّ "إلاّ" بمعنى الاستثناء المنقطع، ووجّه معنى الكلام{ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إلا اللَّمَمَ}بما دون كبائر الإثم، ودون الفواحش الموجبة للحدود في الدنيا، والعذاب في الآخرة، فإن ذلك معفوّ لهم عنه،

445عبد الرحمن بودرع ، منهج السياق في فهم النص ،ص 20

446محمد أبوزهرة ، تفسير الوسيط ، ج7 ، ص 222

447أضواء البيان ، ج5 ، ص 510

وذلك عنده نظير قوله جلّ ثناؤه:(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلا كَرِيمًا) "[448]

ومن العلماء من يرى أن الاستثناء هنا متصل"[449] ، وأنّ المراد باللمم ارتكاب شيء من الفواحش ، ثم التوبة منها توبة صادقة نصوحا، ويبدو لنا أنّ الرأي الأول أقرب إلى الصواب لأن العلماء قسموا الذنوب إلى كبائر وصغائر ، وأنّ اللمم من النوع الثانيالذي لا يدخل تحت كبائر الإثم والفواحش .

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾[الأنعام:82] أشار المفسّر إلى أنّ"المراد بالظلم هنا الشرك كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري وغيره من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقد بيّنه قوله تعالى:{إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: 13]، وقوله:{وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة:254]، وقوله: {وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ}[يونس : 106].[450] والذي يلاحظ هنا أن قوله(بِظُلْمٍ) هنا" نكرة في سياق النفي (لَمْ يَلْبِسُوا)، وهذا يدل على عموم أنواع الظلم.أي تدل على العموم؛ لكن عموم مُرادٌ به الخصوص، وهو خصوص أحد أنواع الظلم؛ وهو الشرك،فيصير العموم في أنواع الشرك، لا في أنواع الظلم كلها؛ لأن من أنواع الظلم ما هو منجهة ظلم العبد نفسه بالمعاصي، ومن جهة ظلم العبد غيره بأنواع التعديات، ومنه ما هوظلم من جهة حق الله جل وعلا بالشرك، فهذا هو المراد بهذا العموم، فيكون عموما فيأنواع الشرك".[451]

فالحديث أيّد دلالة الآية على الشرك ،فهي مسوقة لبيان فضل الموحدين وما ترتب من آثار التوحيد من الاهتداء التام والأمن التام .

قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾[النحل:99]إن كلمة " اليقين" ممّا تعددّت فيها أقوال المفسرين فدلالتها محتملة "يحتمل أن يكون المعنى { حتى يأتيك اليقين } في النصر الذي وعدته"[452] أي: الحق الذي لا ريب فيه من نصرك على أعدائك"[453] .وقالت جماعة من أهل العلم، منهم سالم بن عبد الله بن عمر، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم: اليقين: الموت، وهذا القول الثاني هو الذي نصره الشنقيطي لأن سياق السنة أوضحه أتم إيضاح وأبانه أتم بيان "ويدلّ لذلك

---

448 أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ،جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر بيروت – لبنان 1995م ، تحقيق صدقي العطار. ، ج 22 ، ص 534

449ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ج6 ، ص 230

450أضواء البيان ،ج 1 ،ص 486

451صالح آل الشيخ ،التمهيد لشرح كتاب التوحيد الطبعة : الأولى الناشر : دار التوحيد تاريخ النشر : 1424هـ،ص 123

452ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ج4 ، ص 147

453ا الماوردي ، النكت والعيون ،ج2 ، ص 362

قوله تعالى: {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ}[القيامة: 43-44-45-46-47]،وهو الموت.ويؤيّد هذا ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أم العلاء، امرأة من الأنصار، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت أُمُّ العلاء: رحمة الله عليك أبا السَّائب؟ فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وما يُدريك أنّ الله قد أكرمه"؟ فقالت: بأبي وأمّي يا رسول الله! فمن يكرمه الله!؟ فقال: "أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير..." الحديث. وهذا الحديث الصحيح يدلّ على أنّ اليقين الموت"[454] وقال أهل النار"وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين" واليقين ههنا هو الموت بإجماع أهل التفسير"[455] وقال الله تعالى "واعبد ربك حتى يأتيك اليقين" وهو الموت بإجماع أهل العلم كلّهم قال الحسن: لم يجعل الله لعباده المؤمنين أجلا دون الموت "[456] .

إنّ مفهوم اليقين الصحيح كان رداً على غلاة الصوفية الذين زعموا أن اليقين منزلةٌ من بلغها سقطت عنه العبادة .

وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[الأنبياء:75]إنّ للمفسرين أقوالا في بيان معنى "رحمتنا " قيل أنّ الرحمة هي النبوة. وقيل: الإسلام. وقيل: الجنّة. وقيل: عنى بالرحمة إنجاءه من قومه" [457] إلا أنّ الشنقيطي جعلها عامّة "شاملة لنجاته من عذابهم الذي أصابهم، وشاملة لإدخاله إياه في رحمته التي هي الجنة، كما في الحديث الصحيح: "تحاجَّت النَّار والجنة" . الحديث. وفيه: "فقال للجنّة أنت رَحْمَتِي أرحم بها من أشَاء من عبَادِي".[458] وقد سمّى الله الجنة رحمة إذ كانت أثر الرحمة."[459]

وقد وافق الشنقيطي الإمام "البخاري" في صحيحه في كتاب التوحيد في باب ما جاء في قوله تعالى: {إنّ رحمة الله قريب من المحسنين } و"مسلم" في صفة النار عن الأعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ـ {تحاجّت النار والجنّة فقالت النّار أوثرت بالمتكبرين والمتجبّرين وقالت الجنّة فمالي لا يدخلني إلا ضعفاء النّاس وسَقطهم فقال الله تعالى للجنّة أنت رحمتي أرحم بها من أشاء من عبادي وقال للنّار أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها} ومما يتأيّد به من سياق النّص القرآني قوله تعالى: { فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ

454أضواء البيان ،ج2، ص 324

455ابن القيم ، التفسير القيم ، ج1 ، ص 90

456ابن القيم ، مدارج السالكين ، ، ج3 ، ص 316

457 محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر ، بيروت – لبنان، 1993م ،ج11، ص 306

458أضواء البيان ،ج4 ، ص 169

459أبوحيّان ، البحر المحيط ، ج8 ، ص 187

} ، وهي الجنّة، كما ثبت في الصحيح أنّ الله قال للجنّة: "أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء".[460]

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[مريم:39]اختلف المفسّرون في بيان قوله:"إذ قضي الأمر" فقال بعضهم:"قُضِيَ الأمرُ ببيان الدَّلائل ، وشرح أمر الثَّواب والعقاب .وثانيها: إذ قضي الأمرُ يوم الحسرة بفناء الدُّنيا ، وزوال التَّكليف ، والأوّل أقرب؛ لقوله :{ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }"[461].بعضهم ورجّح دلالة الآية بدلالة ما لحق بعدها حتى يلتئم أولها بآخرها فينتظم معناها.

أمّا الشنقيطي فقد فسّر قوله "قضي الأمر" الوارد في الآية الكريمة ،بما يتفق مع بيان السنة وماجاء في الأحاديث الصحاح الدالّة "على أنّ المراد بقوله: هنا{إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ} ، أي: ذبح الموت.قال البخاري رحمه الله في صحيحه: "باب قوله: عز وجل: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ}عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤتى بالموت كالهيئة كبش أملح فينادي مناد: يا أهل الجنّة فيشرئبّون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه. ثم ينادى يا أهل النار فيشرئبّون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه. فيُذْبَح. ثم يقول يا أهل الجنّة خُلُود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت" ثم قرأ{وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ}، وهؤلاء في غفلة الدنيا وهم لا يؤمنون، والحديث مشهور متفّق عليه، وقراءة النَّبي صلى الله عليه وسلم الآية بعد ذكره ذبح الموت تدلّ على أنّ المراد بقوله: {إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ}أي: ذبح الموت."[462] واختاره ابن جرير؛ إذ جعل الأمر مقصودا به في الآية "إذ فُرِغَ من الحكم لأهل النار بالخلود فيها، ولأهل الجنة بمقام الأبد فيها، بذبح الموت."[463]

وذلك التوجيه الذي ارتضاه الشنقيطي هو الذي يتماشى مع سياق لغة العرب إذ "قولهم : قضى الأمر ، إذا أتمه وأحكمه ."[464] ولايكون هذا إلا إذا "فُرِغَ من الحساب وأدخل أهل الجنَّة الجنَّة ، وأهلُ النَّار النَّار ، وذُبح الموتُ "[465] وقد جاء سياق السنّة قاطعا للنّزاع ومبيّنا للمعنى المراد .

و قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾[الحجر :87] اختلف المفسّرون في بيان قوله تعالى : {وَلَقَدْ ءاتيناك سَبْعًا} فقيل "هي الفاتحةُ، وعليه عمرُ وعليٌّ وابنُ مسعود وأبو هريرة رضي الله تعالى عنهم ، والحسنُ وأبو العالية

460ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، ج 7 ، ص 272
461ابن عادل الحنبلي ، اللباب في علوم الكتاب ، ج11 ، ص 80
462المرجع نفسه ،ج 2، ص 422- 423
463 أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ،جامع البيان دار الفكر بيروت1995مصدقي العطار ،ج18، ص 202
464ابن عادل الحنبلي ، اللباب في علوم الكتاب ، ج2 ، ص 62
465المرجع نفسه ، ج11 ، ص 80

ومجاهدٌ والضحاكُ وسعيدُ بن جبير وقَتادة رحمهم الله تعالى . وقيل: سبعُ سورٍ وهي الطوالُ التي سابعتُها الأنفالُ والتوبة فإنهما في حكم سورةٍ واحدة ، ولذلك لم يُفصَلْ بينهما بالتسمية . وقيل : يونسُ أو الحواميم السبعُ . وقيل : الصحائفُ السبعُ وهي الأسباع ."[466]

أمّا الشنقيطي ففي مقام تضارب أقوال المفسرين، لجأ إلى سياق السنّة الشريفة حيث حسم النّزاع وأوضح المراد،فأشار إلى" أنّ النَّبي صلّى الله عليه وسلّم بيّن في الحديث الصّحيح: أنّ المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم في هذه الآية الكريمة، هو: فاتحة الكتاب. ففاتحة الكتاب مُبيِّنة للمراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم، وإنّما بيّنت ذلك بإيضاح النَّبي صلّى الله عليه وسلّم لذلك في الحديث الصحيح.قال البخاري في صحيحه في تفسير هذه الآية الكريمة: عن أبي سعيد بن المعلّى قال: مرَّ بي النَّبي صلى الله عليه وسلم وأنا أُصلّي، فدعاني فلم آته حتَّى صلَّيت، ثمَّ أتيت فقال: "ما منعك أن تأتيني" ؟ فقلت: كنت أُصلّي، فقال: "ألم يقل الله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ}، ثمَّ قال: "ألا أعلّمك أعظم سورةٍ في القرآن قبل أن أخرج من المسجد، فذهب النَّبي صلى الله عليه وسلم ليخرج فذكرته فقال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ،هي السَّبع المثاني والقرآن العظيم الَّذي أُوتيه". عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمُّ القُرآنِ هِي السَّبع المثاني والقرآن العظيم".فهذا نص صحيح من النَّبي صلى الله عليه وسلم أنّ المراد بالسّبع المثاني والقرآن العظيم: فاتحة الكتاب."[467]

وقال الله تعالى: ﴿ **فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا** ﴾[طه:124. اختلف الأئمة والمفسرون في بيانقوله"معيشة ضنكا"فعن ابن عباس:{ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا }قال: الشقاء.وقال العوفي، عن ابن عباس:{فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا }قال: كلّ مال أعطيته عبدًا من عبادي، قلّ أو كثر، لا يتقيني فيه، فلا خير فيه، وهو الضنك في المعيشة. ويقال: إنّ قومًا ضُلّالا أعرضوا عن الحق، وكانوا في سعة من الدنيا متكبّرين، فكانت معيشتهم ضنكا؛ و ذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس مخلقًا لهم معايشهم، من سوء ظنّهم بالله والتكذيب، فإذا كان العبد يكذّب بالله، ويسيء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيشته، فذلك الضنك.وقال الضحّاك: هو العمل السيّئ، والرزق الخبيث، وكذا قال عكرمة، ومالك بن دينار [468]." وقد استظهر القاسمي دلالة الآية على الضنك في الدنيا " لمقابلته بالوعيد الأخروي ".[469]

لكنّ الشنقيطي رجّح قولا واحدا، اعتمد فيه على ما صحّ من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، أن الضنك مقصود به عذاب القبر، فـ"قد جاء عن النَّبي صلى الله عليه

466أبو السعود، إرشاد العقل السليم ، ج4، ص 89

467أضواء البيان ، ج 2 ، ص 315

468ابن كثير ،تفسير القرآن العظيم،ط.2. المحقق: سامي بن محمد السلامة، الناشر: دار طيبة، سنة النشر: 1420 – 1999، ج5، ص 323

469القاسمي ، محاسن التأويل ، ج3 ، ص 122

وسلم من حديث أبي هريرة: أنّ المعيشة الضّنك في الآية: عذاب القبر. ولا ينافي ذلك شمول المعيشة الضّنك لمعيشته في الدنيا. وطعام الضريع والزَّقُّوم. فتكون معيشته ضنكاً في الدنيا والبرزخ والآخرة ".وصحّحه القرطبي أي أن المقصود بالضنك"عذاب القبر؛ قاله أبو سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود، ورواه أبو هريرة مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أبو هريرة: يُضيِّق على الكافر قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، وهو المعيشة الضنك. {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}"[470]

وعند تفسيره **لقوله تعالى :**﴿لِتَشْقَى﴾[طه:2] أرجع المفسّر دلالة أصل الشقاء في لغة العرب: العناء والتعب، ومنه قول أبي الطيب:

ذو العقل يبقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة يلعب

فالشقاوة هنا بمعنى: العناء والتعب، إن قوله تعالى: ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه:117]،"أريد بذلك العناء والتعب في دار الدنيا. فإن كان المنطوق إرادة نفي الشقاء بنزول القرآن؛ فالمفهوم إرادة السعادة؛."وقد استند المفسّر إلى دلا لة مفهوم المخالفة فاستنبط من الآية الكريمة أنّ الله أنزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم " ليسعد؛ كما يدل له الحديث الصحيح: "مَن يُرد الله به خيراً يفقّهه في الدين" , وقد روي الطبراني عن ثعلبة بن الحكم رضي الله عنه، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم: "أن الله يقول للعلماء يوم القيامة": "إنّي لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أُبالي"[471]

المطلب الثاني: سياق السنّة وأثره في إيضاح التركيب القرآني .

إنّ المفسّر كانت له عناية فائقة واهتمام بالغ ببيان الآيات القرآنيّة بالمصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي ألا وهو السنّة المطهّرة, وكان من منهجه أن لا يلجأ لذلك إلا إذا كان البيان بالقرآن غير كاف ولا مستوف عندها فقط يعمد إلى البيان بالسنّة ،وقد كان له في إيضاح الآية بالسنّة منهج متميِّز، طبّقه في كتابه حيث جعل سياق السنّة النبويّة رافدا أساسا في بيان كلام الله تبارك وتعالى وإيضاحه، نذكر طرفا ممّا استعمله المفسر في كتابه.

فعند تفسيره لقوله تعالى:﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ** ﴾[الأنعام:59] حكى أصحاب التفسير وجهان في المقصود من "مفاتح الغيب" أحدهما : خزائن غيب السموات والأرض والأرزاق والأقدار وهو معنى قول ابن عباس.والثاني : الوصول إلى العلم بالغيب." [472] وقد رجّح الشوكاني القول الأول؛ أي أنه تعالى عنده علم بمخازن الغيب،مستندا فيه إلى سياق المقطع حيث " جعل للأمور الغيبية مفاتح

---

470 محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر ، لبنان، 1993م، ج11 ،259

471أضواء البيان ،ج4، ص 4

472الماوردي ، النكت والعيون ،ج1 ، ص 411

يتوصل بها إلى ما في المخازن منها على طريق الاستعارة أيضاً ، ويؤيد أنها جمع مفتح بالكسر قراءة ابن السميفع « وَعِندَهُ مَفَاتِيح الغيب » فإن المفاتيح جمع مفتاحويندرج تحت هذه الآية علم ما يستعجله الكفار من العذاب كما يرشد إليه السياق اندراجاً أوّلياً"[473]

أمّا الشنقيطي فكانت رؤيته التفسيريّة قد اقتصرت في بيان المعنى وإيضاحه على ما وجد عنده من أحاديث مشتهرة في هذا الباب أشارت بمنطوقها وملفوظها على معناها ؛ حيث ركن أولا إلى سياق النص القرآني موضّحا أنّ"المراد بمفاتح الغيب قوله: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[لقمان: 34]، فقد أخرج البخاري وأحمد وغيرهما عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أن المراد بمفاتح الغيب الخمس المذكورة في الآية المذكورة."ولفظه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غد، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، وما يدري أحد متى يجيء المطر » ".[474] فكان هذا الحديث نصا في المسألة موضّحا دلالتها.

و قوله تعالى:﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾[المائدة:33]ذهب أكثر المفسّرين كما قال الطبرسي، وعليه جملة الفقهاء إلى أنّها نزلت في قطّاع الطريق "[475] خلافا لما قاله الضحّاك من أنّها "نزلت في قوم من أهل الكتاب ، كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأفسدوا في الأرض ."[476]

وقد انتصر الشنقيطي لقول جماهير المفسرين وسوادهم الأعظم ، لكون السياق القرآني هو الذي عضده ولأنّ "هذا هو الذي يدل عليه ظاهر القرآن وهي أنها نزلت في " قطّاع الطريق من المسلمين، كما قاله جماعة من الفقهاء بدليل قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ}[المائدة: 34] الآية، فإنّها ليست في الكافرين قطعاً. لأنّ الكافر تقبل توبته بعد القدرة عليه، كما تقبل قبلها إجماعاً لقوله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} [الأنفال: 38]، وليست في المرتدين، لأنّ المرتد يقتل بردته وكفره، ولا يقطع لقوله صلى الله عليه وسلم عاطفاً على ما يوجب القتل: "والتارك لدينه المفارق للجماعة" ، وقوله: "من بدّل دينه فاقتلوه"، فيتعيّن أنّها

473الشوكاني ، فتح القدير، ج2 ، ص 422
474أضواء البيان ،ج4 ،ص4 2
475الألوسي ، روح المعاني ، ج4 ، ص 462
476الثعلبي ، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج1 ، ص 737

في المحاربين من المسلمين "[477] فسياق الحديث النبوي هو الذي يحدّد المعنى ويبيّنه بدقة داخل النص .

وفي قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[آل عمران:110].أشار المفسّر إلى أنّ هذه الأمّة هي خير الأمم، مدّعما ما مال إليه وما قرّره بسياق السنّة في توجيه دلالة النّص القرآني "فـ: {خَيْرَ} صيغة تفضيل والآية نصّ صريح في أنّهم خير من جميع الأمم، بني إسرائيل وغيرهم.وممّا يزيد ذلك إيضاحا حديث معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم قال في أمته: "أنتم تُوَفُّون سبعين أمّة أنتم خيرها وأكرمها على الله", وقد رواه عنه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وهو حديث مشهور."[478]

وقوله تعالى:﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ﴾[الفرقان:89]،" أي: كفرًا لنعمة من أنزل عليهم المطر، وذلك بقولهم: مطرنا بنوء كذا.وهذا المعنى الذي دلّت عليه هذه الآية الكريمة، أشار له جلّ وعلا في سورة "الواقعة"، في قوله تعالى:{وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}[الواقعة :82]، فقوله:{رِزْقَكُمْ}،أي: المطر؛ كما قال تعالى:{وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً}،وقوله: {أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}،أي:بقولكم:مطرنا بنوء كذا وقد زاد الشنقيطي الآية إيضاحا وبيانا بـ"الحديث الثابت في صحيح مسلم، وهو أنّه صلىّ الله عليه وسلم قال لأصحابه يومًا علىأثر سماء أصابتهم من الليل: "أتدرون ماذا قال ربّكم" ؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم، قال: "قال: أصبح عبادي مؤمن بي وكافر، فأمّا من قال: مطرنا بفضل اللّه ورحمته، فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأمّا من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب "[479].

قوله تعالى :﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الذي باركنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾[الإسراء:1] اختلف العلماء: هل رأى محمد عليه الصلاة والسلام ربه بعين رأسه أو بعين قلبه، فمذهب ابن عباس وطائفة أنه رآه بعين رأسه، ورجّح هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية وقال: قد تدبّرنا عامة ما صنّفه المسلمون في هذه المسألة، وما تلقّوه فيها قريباً من مائة مصنف، فلم أجد أحداً يروي بإسناد ثابت ولا صحيح، بل ولا عن صاحب ولا عن إمام أنه رآه بعين رأسه.

والإمام الشنقيطي - رحمه الله - ممن يرجّح الرؤية القلبية حيث أن "التحقيق الذي دلّت عليه نصوص الشرع: أنّه صلى الله عليه وسلم لم يره بعين رأسه. وما جاء عن بعض السلف من أنّه رآه؛ فالمراد به الرؤية بالقلب. كما في صحيح مسلم: أنّه رآه بفؤاده مرتين لا بعين الرأس "ثم زاد الأمر بيانا بما" جاءفي السنّة وهي" أنّ أبا ذر رضي الله عنه "وهو من هو في صدق اللهجة" سأل النّبي صلى الله عليه وسلم عن هذه المسألة بعينها. فأفتاه بما مقتضاه: أنه لم يره. أخرج مسلم عن عبد الله بن شقيق،

477أضواء البيان ،ج1، ص 401
478المرجع السابق ،ج7 ، ص 198
479أضواء البيان ،ج 6 ،ص63

عن أبي ذر قال:" سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟ قال: "نور! أنّى أراه" [480] وإلى هذا مال جماعة من الأئمة قديما وحديثا اعتمادًا على هذا الحديث، واتباعًا لقول عائشة -رضي الله عنها - قالوا: هذا مشهور عنها، ولم يعرف لها مخالف من الصحابة .

وفي**قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾**[التوبة:5]،فَهم المفسّر من دلالة مفهوم الشرط ،أنّهم إن لم يقيموها لم يخل سبيلهم وهو كذلك.لأنّ الله تعالى في الآية اشترط في تخلية سبيلهم إقامتهم الصلاة.وقد أيّد الشنقيطي ما فهمه من دلالات الألفاظ؛من جهة التعريض والتلويح لا من جهة النطق والتصريح (هذا بما"رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألاّ إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا ذلك عصموا منيّ دماءهم وأموالهم إلا بحقّها" ا هـ. فهذا الحديث الصحيح يدلّ على أنّهم لا تُعصَم دماؤهم ولا أموالهم إلا بإقامة الصلاة كما ترى".[481]

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾[الروم :30] لقد ارتضى الشنقيطي أن تكون دلالة "الفطرة " في الآية مرادا بها "دين الله" استنادا إلى سياق السنّة في قوله صلى الله عليه وسلم "كل مولود يولد على الفطرة " فجاءت الآية الكريمة آمرة بلزوم الفطرة التي فطر - سبحانه - الناس عليها ، والذي يقتضيه السياق القرآني أن ما جاء بعدها هو نهي عن مخالفة هذه الفطرة وهذا هو الذي أيده المفسّر في أن قوله:{لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}، "خبر أريد به الإنشاء إيذانا بأنّه لا ينبغي إلّا أن يمتثل، حتّى كأنّه خبر واقع بالفعل لا محالة، ونظيره قوله تعالى:{فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ}[البقرة: 197] الآية ، أي: لا ترفثوا، ولا تفسقوا، فقد أبان المصنّف أنّ كلام الله يرد الأسلوب فيه على صورة الإخبار، وتكون دلالته الإنشاء، مؤيدا كلامه بما جاء في السنّة و"ما ثبت في "الصحيحين" من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "كلّ مولود يُولد على الفطرة فأبواه يُهَوِّدانه، أو يُنَصّرانه، أويُمَجّسانه، كما تُولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تجدون فيها من جَدْعاء"،وما رواه مسلم في "صحيحه" عن عياض بن حمار بن أبي حمار التميمي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّي خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمّت عليهم ما أحللت لهم" [482]

480 أضواء البيان ، ،ج3 ،ص09
481المرجع نفسه ،ج3، ص 449
482أضواء البيان ،ج1، ص309

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾يرى بعض المفسرين أن المراد بالبينة : الكتب السماوية السابقة .فيكون المعنى : أو لم يكف هؤلاء الجاهلين أنّ الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل قد بشّرت بك وبيّنت نعوتك وصفاتك ، وهم معترفون بصدقها ، فكيف لا يقرون بنبوتك ".[483] وقد استظهر الشنقيطي معنى آخر للبيّنة أوضحته السنّة النبويّة "وهي أنّ الكفار اقترحوا على عادتهم في التعنّت آية على النبوّة كالعصا واليد من آيات موسى، وكناقة صالح، واقتراحهم لذلك بحرف

التحضيض الدال على شدّة الحضّ في طلب ذلك في قوله:{لَوْلا يَأْتِينَا}أي: هلا يأتينا محمد بآية: كناقة صالح، وعصا موسى، أي: نطلب ذلك منه بحضّ وحثّ. فأجابهم الله بقوله: {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى} وهي هذا القرآن العظيم هو معنى قـوله في "طه" : {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى}[طه: 133]. ويزيد ذلك إيضاحاً الحديث المتفق عليه"ما من نبّي مِنَ الأنبياءِ إلا أُوتي ما آمَنَ البشر على مِثْلِه، وإنّما كان الذي أُوتيتُه وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يومَ القيامةِ "[484]

وقد أشار المفسّر إلى أنّ هناك أقوالا أخرى لم يذكرها لأنّ سياق السنّة على خلافها وعلى كلا التفسيرين فالآية الكريمة شهادة من الله - تعالى - بصدق النبيّ - صلىّ الله عليه وسلم - فيما بلغه عنه ، وردّ مبطل لشبهات الكافرين ولأقوالهم الباطلة ، وإن كان تفسير البيّنة هنا بالقرآن أظهر وأوضح .

قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[النحل:08]،أنّه يخلق ما لا يعلم المخاطبون وقت نزولهاوأبهم ذلك الذي يخلقه لتعبيره عنه بالموصول، ولم يصرّح هنا بشيء منه، ولكن قرينة ذكر ذلك في معرض الامتنان بالمركوبات تدلّ على أنّ منه ما هو من المركوبات، وقد شوهد ذلك في إنعام الله على عباده بمركوبات لم تكن معلومة وقت نزول الآية، كالطائرات، والقطارات، والسيارات" وقد دعم الشنقيطي استنباطه لهذا المعنى بـ"إشارة النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلى ذلك في الحديث الصحيح، قال مسلم بن الحجّاج رحمه الله في صحيحه: عن أبي هريرة، أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والله لينزلنّ ابن مريم حَكماً عادلا فليَكسرنّ الصليب، وليَقتُلنّ الخنزير، وليَضَعنّ الجزية، ولتتركنّ القِلاص فلا يسعى عليها، ولتذهبنّ الشحناء والتباغض والتحاسد، وليَدعُونّ إلى المال فلا يقبله أحد" اهـ ومحل الشاهد من هذا الحديث الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: "ولتتركنّ القِلاص فلا يسعى عليها" فإنّه قسم من النَّبي صلى الله عليه وسلم أنّه ستترك الإبل فلا يسعى عليها، وهذا مشاهد الآن للاستغناء عن ركوبها بالمراكب المذكورة."[485]

483محمد أبوزهرة ، تفسير الوسيط ، ج5 ، ص 111

484أضواء البيان ،ج 4، ص 131

485أضواء البيان ،ج2، ص 335

قوله تعالى:﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾[البقرة:203] فسّر الشنقيطي الاثم المنفي في الآية بأنّ المقصود به " في الموضعين: أنّ الحاج يغفر جميع ذنوبه، فلا يبقى عليه إثم، فغفران جمع ذنوبه هذا الذي دلّ عليه هذا التفسير من أكبر المنافع المذكورة في قوله: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ}[الحج: 28]وعليه فقد بيّنت آية البقرة هذه بعض ما دلّت عليه آية الحج، وقد أوضحت السنّة هذا البيان بالأحاديث الصحيحة التي ذكرنا كحديث "من حجّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه" وحديث "الحجّ المبرور ليس له جزاء إلا الجنة"[486] قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى بعد ذكره لجملة من الأقوال في الآية" وأولى هذه الأقوال بالصحة قول من قال :تأويل ذلك : فمن تعجّل في يومين من أيام منى الثلاثة فنفر في اليوم الثاني فلا إثم عليه , لحطّ الله ذنوبه , إن كان قد اتقى الله في حجّه فاجتنب فيه ما أمره الله باجتنابه ، وفعل فيه ما أمره الله بفعله وأطاعه بأدائه على ما كلفه من حدوده .ومن تأخر إلى اليوم الثالث منهن فلم ينفر إلى النفر الثاني حتى نفر من غد النفر الأول , فلا إثم عليه لتكفير الله له ما سلف من آثامه وأجرامه , وإن كان اتقى الله في حجه بأدائه بحدوده وإنما قلنا إن ذلك أولى تأويلاته لتظاهر الأخبار عن رسول الله أنه قال من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وأنه قال صلى الله عليه وسلم تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة"[487]

قوله تعالى:﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾[النحل:98]ذكر الشنقيطي أنّ"أن ترتيبه جل وعلا الأمر بالتسبيح والسجود على ضيق صدره صلى الله عليه وسلم بسبب ما يقولون له من السوء دليل على أنّ الصلاة والتسبيح سبب لزوال ذلك المكروه، ولذا كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة، وقال تعالى:{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ...} [البقرة:45] الآية .ويؤيّد هذا ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي من حديث نعيم بن همّار رضي الله عنه، أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله تعالى: يا ابن آدم، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره"[488]

المطلب الثالث : سياق السنّة وأثره في توجيه الحكم الفقهي .

من منهج المفسّر أنّه يعتمد على السنّة النبويّة في بيان أحكام زائدة عن الذي جاء في الآية الموضّحة، وهذا الجانب من البيان كثير ومشهور؛ لأنّ السنّة إمّا تبيّن ما في القرآن بالتّفصيل،أو تتعرّض لأحكام لم يرد فيها نص قرآنيٌّ.

فعند تفسيره لقوله تعالى: **﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾**[النساء:25]قرّر المفسّر أنّ الحكم المذكور في هذه الآية

486المرجع نفسه،ج5، ص 113

487الطبري ، جامع البيان ، ج2 ، ص 309

488 أضواء البيان ،ج2، ص 323

الكريمة هو حكم الأمة المحصَنة فقط ولم تتعرّض الآية لحكم الأمة غير المحصَنة ، حينها لجأ الشنقيطي إلى بيان مالم تتعرّض له الآية ببيان سياق السنّة المطهّرة فقال :"ولكن السنّة الصحيحة دلّت على أنّ غير المحصنة من الإماء كذلك، لا فرق بينها وبين المحصَنة، والحكمة في التعبير بخصوص المحصنة دفع توهّم أنّها ترجم كالحرّة، فقد أخرج الشيخان في "صحيحيهما" عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما قالا: سئل النبي صلّى الله عليه وسلم عن الأمة إذا زنت ولم تحصن، قال: "إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بضفير"[489]

قوله تعالى:﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فمن اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[الأنعام :145] أشار الإمام الشنقيطي إلى أن الآية قد دلّت" بدلالة المطابقة دلالة صريحة على إباحة لحوم الحمر الأهليّة؛ لصراحة الحصر بالنّفي والإثبات في الآية في ذلك. فإذا صرّح النَّبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يوم خيبر في حديث صحيح "بأنّ لحوم الحمر الأهلية غير مباحة"، فلا معارضة البتة بين ذلك الحديث الصحيح وبين تلك الآية النازلة قبله بسنين؛ لأنّ الحديث دلّ على تحريم جديد، والآية ما نفت تجدد شيء في المستقبل، كما هو واضح."[490]فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة "المائدة"، وفي الأحاديث الواردة، رافعًا لمفهوم هذه الآية."[491]

وبالجملة فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات كما يدلّ عليه السياق ويفيده الاستثناء ، فيضم إليه كل ما ورد بعده في الكتاب أو السنة مما يدل على تحريم شيء من الحيوانات . وإن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شيء حرّمه الله من حيوان وغيره ، فإنه يضمّ إليه كل ما ورد بعده مما فيه تحريم شيء من الأشياء"[492]

قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾[البقرة:234] ظاهر هذه الآية الكريمة أنّ كلّ مُتَوفّى عنها تعتدّ بأربعة أشهر وعشر، ولكنّه بيّن في موضع آخر أنّ محلّ ذلك ما لم تكن حاملا، فإن كانت حاملا كانت عدتها وضع حملها،وذلك في قـــوله تعالى:{وَأُولاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}[الطلاق:4] و يزيده إيضاحاما ثبت في الحديث المتفق عليه من إذن النبي صلّى الله عليه وسلم لسُبيعة الأسلمية في الزواج بوضع حملها بعد وفاة زوجها بأيّام، وكون عدّةالحامل المتوفّى عنها بوضع حملها هو الحق، كما ثبت عنه صلى الله عليه

489أضواء البيان ، ج1 ،ص 288
490أضواء البيان ،ج2، ص 452
491ابن كثير،تفسير القرآن العظيم ، ج3 ، ص 352
492الشوكاني ، فتح القدير ، ج 2 ، ص 490

وسلم خلافا لمن قال: تعتدّ بأقصى الأجلين. ويروى عن علي وابن عباس." [493]فبين الآيتين عموم وخصوص وجهي، كل واحدة أعم من الأخرى من وجه، فآية البقرة خاصة بمن سبب عدتها الـوفاة.
وعامة في الحوامل وغير الحوامل، وآية الطلاق خاصة في الحوامل عامة في سبب وجوب العدة، فلم يقل: أجلهن من الموت أو من الطلاق، فهي عامة باعتبار سبب وجوب العدة خاصة بالحامل"[494]

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾[البقرة : 228]والقُرء من الألفاظ المشتركة بين الطهر والحيض، لذلك اختلفت كلمة العلماء في المراد به ؛فذهب الحنابلة إلى أنّه يقصد به الحيض، وذهب المالكيّة إلى أنّ المراد به الطهر."[495] فأمّا الذين قالوا القروءهي الأطهار، فاحتجّوا بقوله تعالى:{فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}][الطلاق : 1] ،قالوا: عدتهنّ المأمور بطلاقهن لها، الطهر لا الحيض كما هو صريح الآية .
وقد رجّح الشنقيطي القول القائل بأن القرء هو الطهر مستعينا بما جاء في السنّة وهي " قوله صلىّ الله عليه وسلم، في حديث ابن عمر المتفق عليه: "فإن بدا له أن يطلّقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسّها فتلك العدة كما أمر الله" ، قالوا: إنّ النبي صلى الله عليه وسلم صرّح في هذا الحديث المتفق عليه، بأنّ الطهر هو العدة التي أمر الله أن يطلّق لها النساء، مبيّنا أنّ ذلك هو معنى قوله تعالى: {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}، وهو نص من كتاب الله وسنّة نبيّه في محلّ النّزاع."[496]

قوله تعالى: ﴿فكلوا منها وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾[الحج:36] اختلف المفسرون في دلالة صيغة الأمر في الآية فذهب فريق منهم إلى أن"الأمر فى قوله{فَكُلُواْ مِنْهَا} للإباحة بناء على أن الأكل كان منهيّا عنه شرعا ، وقد قالوا : إن الأمر بعد المنع يقتضى الإباحة ويدلّ على سبق النهي قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " كنت نهيتكم عن أكل لحوم الأضاحى فكلوا منها وادخّروا ".وقيل :لأن أهل الجاهليةكانوا يتحرّجون فيه ، أو للندب على مواساة الفقراء ومساواتهم فى الأكل منها "[497].

وذهب آخرون إلى الوجوب ، ورجّحه الشنقيطي حيث رأى أن الأمر في الآية للوجوب، مستندا على سياق السنة الشريفة وقرّر أن" ممّا يؤيّد أن الأمر في الآية يدل على وجوب الأكل وتأكيده هو "أن النبي صلى الله عليه وسلم نحر مائة من الإبل فأمر بقطعة لحم من كل واحدة منها، فأكل منها وشرب من مرقها". وهو دليل واضح على أنه أراد ألا تبقى واحدة، من تلك الإبل الكثيرة إلا وقد أكل منها أو شرب من

493أضواء البيان ،ج1، ص 150
494محمد بن صالح العثيمين ،الشرح الممتع شرح زاد المستقنع ، ، دار بن الجوزي ، ط ، 1422 هـ،ج13، ص335
495 ابن قدامة المقدسي ، المغني ، ج6 ، ص 144
496أضواء البيان ،ج1، ص97
497الألوسي ، روح المعاني ، ج6 ، ص 211

مرقها، وهذا يدل على أن الأمر في قوله: {فَكُلُوا مِنْهَا} ليس لمجرد الاستحباب والتخيير، إذ لو كان كذلك لاكتفى بالأكل من بعضها، وشرب مرقه دون بعض، وكذلك الإطعام فالأظهر فيه الوجوب."[498]

المطلب الرابع : سياق السنّة وأثره في تضعيف الأقوال .

إن سنّة النبي صلى الله عليه وسلم تعتبر ميزانا يزن به المفسّر جملة الأقوال المبثوثة في كتب المفسرين، يلجأ إليها المفسر عند اختلاف أقوالهم؛ عندما تكون بعض الآراء شاذّة أو واهية ,بسبب مخالفتها لسياق السنة ,فهي الفيصل والحاكم في موارد النزاع, وقد طبّق الإمام الشنقيطي في تفسيره هذا السياق, وكان واضحا استعماله فيه, فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً**﴾[مريم:28]

فقد اختلف أهل التأويل بالتفسير في المراد بـ"هارون " فذهب فريق منهم إلى أنه هارون أخو موسى عليه السلام فنسبت إليه لأنها من ولده كما يقال يا أخا بني فلان،قاله السدي .وقيل : أنه كان أخاها لأبيها وأمها، قاله الضحاك " [499].

واستنكر الشنقيطي هذا القول وأبطله بدلالة سياق السنّة ،ورجّح أن يكون الرجل هو " رجل آخر صالح من بني إسرائيل يسمى هارون. والدليل على أنه ليس هارون أخا موسى ما رواه مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه: عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرؤون {يَا أُخْتَ هَارُونَ} ، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا. فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال: "إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم" ا هـ، هذا لفظ مسلم في الصحيح. وهو دليل على أنه رجل آخر غير هارون أخي موسى، ومعلوم أن هارون أخا موسى قبل مريم بزمن طويل.."[500]

إن المتأمل في السياق القرآني الذي وردت فيه الآية، يجد ما يدل دلالة بينة على أن هذا الوصف الذي وُصِفت به مريم ، لم يكن تسمية من القرآن الكريم وإنما جاء حكاية على لسان قومها .

قوله تعالى :﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾[الإسراء:71]للمفسرين في المراد من الإمام أقوال عديدة، ومذاهب شتّى .وشدَّ بعضهم ففسر الإمام بالأمّهات ."قال محمد بن كعب : { بإمامهم } : بأمهاتهم ، على أن إمام جمع أمّ كخف وخفاف ، وهذا بعيد جدّاً " [501] وقد أبطل الإمام الشنقيطي قول من فسّر"إمامهم "بأمّهاتهم فقال "وقول من قال: إن المراد {بإمامهم}، كمحمد بن كعب «أمهاتهم» أي يقال: يا فلان بن فلانة ـ قول باطل بلا شك. وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر

---

498 أضواء البيان , ج5 ، ص 193
499 الماوردي ، النكت والعيون ، ج 3 ،ص 18
500أضواء البيان ،ج3، ص 414
501الشوكاني ، فتح القدير ، ج4 ، ص 336

مرفوعاً: «يرفع يوم القيامة لكل غادر لواء فيقال هذه غدرة فلان بن فلان»[502] والمراد بإمامهم هنا : كتاب أعمالهم .وقد اختار هذا القول الإمام ابن كثير ورجّحه فقال : يخبر الله - تعالى - عن يوم القيامة ، أنه يحاسب كل أمة بإمامهم،وقد اختلفوا فى ذلك .

فقال مجاهد وقتادة أي : بنبيهم ، وهذا كقوله - تعالى - : { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط } وقال ابن زيد : بإمامهم أي بكتابهم الذى أنزل على نبيهم من التشريع ، واختاره ابن جرير . . .وروى العوفي عن ابن عباس في قوله : {يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ }أي: بكتاب أعمالهم.وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى: {وَكُلَّ شيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ في إِمَامٍ مُّبِينٍ }وقال- تعالى -:{ وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ}ويحتمل أن المراد بإمامهم : أن كل قوم بمن يأتمون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء - عليهم السلام - ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم في الكفر . . .وفى الصحيحين : " لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت . . . " الحديث . . .ثم قال - رحمه الله - ولكن المراد ههنا بالإمام ، هو كتاب الأعمال ".[503]

و قوله تعالى:﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مّن قَبْلِ أن يَتَمَاسَّا ﴾[المجادلة:3]

وقد اختلف العلماء في معنى قوله تعالى:{ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ } .فمنهم من يرى أنّ المراد بهذه الجملة تكرار لفظ الظهار، "فإن كرّر اللفظ كان عودا وإن لم يكرّر لم يكن عودا. وهو قول أبي العالية ، وظاهر الآية يشهد له ، وهو قوله : ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا أي إلى ما قالوا [504]، "وبه قال أهل الظاهر وكأنّ أصحاب هذا القول يرون أنّ الكفّارة لا تكون إلا بتكرار ألفاظ الظهار. وقد أشار الإمام الشنقيطي إلى القول مبطلا له مستعينا في رده بسياق السنّة فأومأ إلى "أن ما رجّحه ابن حزم من قول داود الظاهري، وحكاه ابن عبد البرّ عن بكير بن الأشجّ والفراء وفرقة من أهل الكلام، وقال به شعبة: من أنّ معنى: {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا} هو عودهم إلى لفظ الظهار، فيكرّرونه مرة أخرى قول باطل، بدليل أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يستفصل المرأة التي نزلت فيها آية الظهار" [505] وهو قول لا يؤيّده دليل، لأنّه لم يثبت أنّ خولة - أو غيرها - كرّر عليها زوجها لفظ الظهار أكثر من مرة ، بل الثابت أنّه عندما قال لها:أنت عليّ كظهر أمي، ذهبت إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقصت عليه ما جرى بينها بين زوجها" [506]

المطلب الخامس: سياق السنّة وأثره في الترجيح الدلالي.

لقد رسم الإمام الشّنقيطي منهجا متبّعا ضمن تفسيره المبارك ،وذلك بأن يُرجِّح في أغلب المواضع التفسيرية بين الأقوال المتباينة ،وقد اعتمد في ذلك على

---

502 أضواء البيان ، ج3 ، ص 176
503ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج2 ، ص 350
504الثعلبي ، الكشف والبيان ، ج9 ، ص 255
505المرجع نفسه ،ج6 ، ص 190
506محمد أبوزهرة ، الوسيط ، ج4 ، ص 265

مرجّحات عدّة لكن الذي نتعرّض له هنا بالدراسة هو ما كان بالسنّة المطهّرة لا غير ، قال رحمه الله " ومن أنواع البيان التي تضمنّها الكتاب المبارك أنّه إذا بيّنا قرآنا بقرآن في مسألة يخالفنا فيها غيرنا، ويدّعي أنّ مذهبه المخالف لنا يدلّ عليه قرآن أيضا فإنّا نبيّن بالسنّة الصحيحة صحّة بياننا وبطلان بيانه فيكون استدلالنا بكتاب وسنّة" [507]

وقد أشار المفسّر إلى نماذج كثيرة في تفسيره نقتصر على بعضها منها :

قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾اختلف العلماء في وقت هذه الزلزلة المذكورة هنا، هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة، أو هي عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من القبور؟فذهب جمع من المفسرين إلى أنها قبل قيام الناس من قبورهم .قال الحسن : وهذا يدل على أن الزلزلة تكون في الدنيا؛ لأن بعد البعث لا يكون حبل" [508] وأمّا حجّة أهل القول الآخر القائلين: بأنّ الزلزلة المذكورة كائنة يوم القيامة بعد البعث من القبور، فهي ما ثبت في الصحيح عن النّبي صلى الله عليه وسلم من تصريحه بذلك. وقد رجّح الشنقيطي هذا القول لأنّ سياق السنة يدلّ عليه وجعله " هو الصواب كما لا يخفى.قال البخاري رحمه الله في صحيحه في التفسير في باب قوله {وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى} عن أبي سعيد الخدري، قال: قال النّبي صلى الله عليه وسلم: "يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدمُ، فيقول: لبّيك ربَّنا وسعديك، فَيُنادى بصوت: إنّ الله يأمرك أن تُخرج من ذريتك بَعْثاً إلى النار، قال: يا ربِّ، وما بَعْث النَّار؟ قال: من كل ألف أراه، قال تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويَشِيب الوليد، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكنّ عذاب الله شديد".وفيه تصريح النّبي صلى الله عليه وسلم بأنّ الوقت الذي تضع فيه الحامل حملها، وترى النّاس سكارى، وما هم بسكارى: هو يوم القيامة لا آخر الدنيا"[509]

قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾[البقرة:193]فسر الشنقيطي دلالة " الفتنة "على الشرك "وهذا التفسير الصحيح، دلَّ عليه الكتاب والسنّة.فذكر الكتاب ثم عطف عليه بالسنّة قائلا :"وأمّا السنّة: ففي قوله صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلاّ اللّه" ، الحديث. فقد جعل صلّى الله عليه وسلم الغاية التي ينتهي إليها قتاله للناس، هي شهادة ألا إله إلاّ اللّه، وأنّ محمّداً رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، وهو واضح في أنّ معنى: {لا تَكُونَ فِتْنَةٌ} : لا يبقى شرك، فالآية والحديث كلاهما دالّ على أنّ الغاية التي ينتهي إليها قتال الكفّار هي ألّا يبقى في الأرض شرك، إلاّ أنّه تعالى في الآية عبّر عن هذا المعنى بقوله:{حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ}، وقد عبّر صلى الله عليه وسلم عنه بقوله: "حتى يشهدوا ألا إله إلاّ اللّه " ، فالغاية في الآية والحديث واحدة في المعنى، كما ترى." [510] فقوله تعالى : { وَيَكُونَ

507أضواء البيان، ج2، ص 7

508عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي ، اللباب في علوم الكتاب ، ج 11 ، ص 375

509أضواء البيان ،ج4 ،ص258- 259

510المرجع نفسه ،ج6، ص 118

الدين للَّهِ } يدل على حمل الفتنة على الشرك ، لأنه ليس بين الشرك وبين أن يكون الدين كله لله واسطة والمراد منه أن يكون تعالى هو المعبود المطاع دون سائر ما يعبد ويطاع غيره ، فصار التقدير كأنه تعالى قال : وقاتلوهم حتى يزول الكفر ويثبت الإسلام ، وحتى يزول ما يؤدي إلى العقاب ويحصل ما يؤدي إلى الثواب ،ونظيره قوله تعالى:{تقاتلونهم أوْ يُسْلِمُونَ } [الفتح : 16] وفي ذلك بيان أنه تعالى إنما أمر بالقتال لهذا المقصود." [511] وقد أيّد الألوسي هذا القول بتوجيه وهو "أن مشركي العرب ليس في حقهم إلا الإسلام أو السيف لقوله سبحانه تقاتلونهم أو يسلمون"[512]

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾[ق:193] تحتمل "هل " في الآية " أن تكون جحداً مجازه ما من مزيد ،وتحتمل أن تكون استفهاماً، بمعنى هل من مزيد،فأزاده وإنّما صلُح{ هَلْ } للوجهين جميعاً ، لأنّ في الاستفهام ضرباً من الجحد،وطرفاً من النفي "[513] ولذا قالوا:" إنّ معنى{هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} ،لا مزيد لأني قد امتلأت فليس في محل للمزيد، وأما القول الآخر، فهو أن المراد بالاستفهام في قول النار:{هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}؟ هوطلبها للزيادة وأنها لا تزال كذلك حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط أي كفاني قد امتلأت، ورجّح الشنقيطي هذا الأخير "لما ثبت في الصحيحين، وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أنّ جهنّم لا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع ربّ العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط" ، لأنّ في هذا الحديث المتفّق عليه التصريح بقولها "قط قط" ، أي كفاني قد امتلأت، وأن قولها قبل ذلك هل من مزيد لطلب الزيادة"[514] "فعلى هذا يكون السؤال وهو قوله : هل امتلأت؟ قبل دخول جميع أهلها فيها "[515].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِيالْأَرْضِ فَسَاداً﴾[المائدة:193]

اختلف فيمن نزلت فيه هذه الآية على ثلاثة أقاويل :أحدها : أنّها نزلت في قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين النبّي صلى الله عليه وسلم عهد وميثاق فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض ، فعرّف الله نبيّه الحكم فيهم ، وهذا قول ابن عباس .الثاني : أنّها نزلت في العُرَنِيِّينَ ارتدّوا عن الإسلام وقتلوا راعي النبي صلى الله عليه وسلم واستاقوا إبله ، وهذا قول أنس بن مالك ، وقتادة .والثالث : أنها نزلت إخباراً من الله تعالى بحكم من حارب الله ورسوله ، وسعى في الأرض فساداً "[516].

---

511 الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج3 ، ص 147
512الألوسي ، روح المعاني ، ج2 ، ص76
513الثعلبي ،الكشف والبيان ، ج، ص 516
514 أضواء البيان ،ج7 ، ص 430
515الخازن ، لباب التأويل ، ج4 ، ص 189
516الماوردي ،النكت والعيون ، ج1 ،ص 358

وقد شهّر الشنقيطي" ما تضافرت به الروايات في الصحاح، وغيرها، أنّها نزلت في قوم "عرينة"، و "عكل"، الذين قدّموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتووا المدينة، فأمر لهم صلى الله عليه وسلم بلقاح، وأمرهم أن يشربوا من أبوالها، وألبانها فانطلقوا، فلما صحّوا وسمنوا، قتلوا راعي النبي صلى الله عليه وسلم، واستاقوا اللّقاح، فبلغه صلى الله عليه وسلم خبرهم، فأرسل في أثرهم سريّة فجاءوا بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسملت أعينهم، وألقوا في الحرّة يستسقون، فلا يسقون حتى ماتوا.وعلى هذا القول، فهي نازلة في قوم سرقوا، وقتلوا، وكفروا بعد إيمانهم"[517]

517أضواء البيان ،ج1، ص 401

المبـــحث الثّاني

سياق الموقف وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

المبحث الثاني : سياق الموقف وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

إنّ فصل النص عن سياقه التاريخي الذي وجد فيه هو بمثابة قطع شريان الحياة عنهفكل النصوص كتبت بلغة خاصة واهتمت بعناصر ثقافية معينة، وذلك لأنّ اللغة بحد ذاتها؛هي عنصر من عناصر الثقافة لدى الأمم، ولهذا؛ فمن أجل فهم نص معين؛ لزم معرفة ثقافة البلد الذي نما وتطور فيه هذا النص، والإلمام الكامل بمفاصل اللغة التي هي بمثابة أحد أغصان شجرة الثقافة؛ هذا الغصن الذي نضج عليه النص كما تنضج الثمار على الأشجار، وفي غير ذلك فمن الصعب فهم النص بشكل صحيح."[518] فسياق الموقف هو توالى الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي وكانت ذات علاقة بالاتصال "[519].ويتمثّل سياق الموقف عند المفسرين فيما عُرِفَ " بأسباب النزول "، فقد اعتنوا بمعرفة أسباب النزول لآيات النص القرآني؛ لأنّها تعينهم على فهم معانيه"[520]

سياق سبب النزول وأثره في توجيه الخطاب القرآني .

تمهيد

إنّ علم أسباب النّزول يدرس تطابق النّص اللغوي(الآية أو مجموعة الآيات مع الوقائع / الأسباب الخارجية التي استدعت نزولها وكانت سببا فيه فأسباب النزول جزء من سياق القول وهذه الأسباب كما يمكن الوصول إليها من خارج النصّ ، يمكن كذلك الوصول إليها من داخل النص ، سواء في بنيتها الخاصة ، أو في علاقته بالأجزاء الأخرى من النّص العام " [521] ومن المعروف أنّ القرآن قد نزل نجوما على بضع وعشرين عاما ، وأنّ كل آية أومجموعة آيات قد احتفظت لها التصانيف التي انشغلت بأسباب النزول بسبب أو أكثر استوجب نزوله ، وأنّ الآيات التي نزلت دون سبب محدّد تتسم بندرة واضحة "[522]

إن أسباب النّزول تمثّل السّياق الاجتماعي و التّاريخي الحاف بالنّص ، بها ومن خلالها يُدرَك المعنى وتُدقّق الدّلالة ، دون أن يعني ذلك ارتباط الدّلالة المحدّدة بالحدث المحدّد ، ولكن ذلك إجراء مرحليّ تتمكّن الدلالة من خلاله من الانفلات من

---

518 فهم النص في سياقه التاريخي ،مجلة البصائر، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية حوزة الامام القائم العلمية

519محمد سالم صالح ، أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية ، ص1

520 المرجع السابق، ص13

521د . نصر أبو زيد ، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن ، ط (1) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1990 ص 126

522السيوطي ، أسباب النزول ، دار الفضيلة القاهرة 2005 ، ص 221

أسْر الواقع وقيوده إلى وقائع أخرى وأزمنة أخرى ، وبهذا يمكننا فهم تجدد هذا النّص الكريم وصلاحيته لكل زمان ومكان" [523]

المطلب الأول: سياق سبب النزول وأثره في الترجيح الفقهي .

إنّ لسبب النزول دورا كبيرا في توجيه الأقوال المتعارضة،فقد استعان الشنقيطي بهذه الآلية العظيمة من آليات علم التفسير فوجّه بها كثيرا من النصوص القرآنية، وخاصة إذا تعلق الأمر بالآيات التي ينبني عليها حكم فقهي أو ما تسمى بـ"آيات الأحكام" فتكون الأداة المساعدة على التوجيه والترجيح، سياق سبب النزول.نذكر طرفا من الآيات التي استعمل فيها الشنقيطي سبب النزول لترجيح حكم فقهي .

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾[النساء:24]اختلف المفسّرون في المقصود من قوله "المحصنات" فقيل أن المراد بها هنا أعمّ من العفائف والحرائر والمتزوجات، وقيل أن المحصنات في الآية الحرائر، واستدلوا بقوله تعالى{ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ}[النور: 4] يعني الحرائر ألا ترى أنه لو قذف غير حر لم يجلد ثمانين وكذلك قوله {فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ} [النساء : 25]يعني الحرائر" [524] وقال بعض العلماء: المراد بالمحصنات: المتزوّجات، وهذا القول الأخير هو الذي ارتضاه الشنقيطي وأيّده بسياق سبب النزول "وعليه فمعنى الآية وحُرِّمَت عليكم المتزوجات؛ لأنّ ذات الزوج لا تَحِلّ لغيره إلا ما ملكت أيمانكم بالسّبي من الكفّار، فإنّ السّبي يرفع حكم الزوجيّة الأولى في الكفر وهذا القول هو الصحيح، وهو الذي يدلّ القرآن لصحتّه؛ وكذلك الوجه الثاني غير ظاهر؛ لأنّ المعنى عليه: وحُرمّت عليكم الحرائر إلا ما ملكت أيمانكم، وهذا خلاف الظاهر من معنى لفظ الآية كما ترى.وصرّح ابن القيم، بأنّ هذا القول مردود لفظا ومعنى، فظهر أنّ سياق الآية يدلّ على المعنى الذي اخترنا، كما دلّت عليه الآيات الأخر التي ذكرنا، ويؤيّده سبب النّزول؛ لأنّ سبب نزولها كما أخرجه مسلم في "صحيحه" وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أصبنا سبيا من سبي أوطاس ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن ولهنّ أزواج، فسألنا النبي صلّى الله عليه وسلّم فنزلت هذه الآية: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [النساء: 24]، فاستحللنا فروجهنّ."[525]

ثم إن سياق الآية يدل على أن المحصنات هنّ المتزوجات ؛ لأنه تعالى "عطف المحصنات على المحرّمات فلا بد وأن يكون الإحصان سببا للحرمة ومعلوم أن

523محمد عبد الباسط عيد ، النص والخطاب قراءة في علوم القرن ط1 القاهرة : مكتبة الآداب 2009 ص 94

524الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج 10 ، ص32

525أضواء البيان ،ج1 ، ص 234

الحريّة والعفاف والاسلام لا تأثير له في ذلك فوجب أن يكون المراد منه المزوجة لأن كون المرأة ذات زوج له تأثير في كونها محرّمة على الغير"[526]

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[الأعراف:31]لقد استنبط المصنف من هذه الآية حكما شرعيا استندعلى مقدمتين توصّل من خلالهما إلى القول بـ "وجوب ستر العورة للطواف،الذي يدلّ عليه كتاب الله في قوله تعالى في سورة الأعراف:{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} . وإيضاح دلالة هذه الآية الكريمة على ستر العورة للطواف، يتوقّف أولاً على مقدمتين. الأولى منهما: أن تعلم أنّ المقرّر في علوم الحديث، أنّ تفسير الصحابي إذا كان له تعلق بسبب النزول، أنّ له حكم الرفع كما أوضحناه في سورة البقرة.المقدمة الثانية: هي أن تعلم أنّ صورة سبب النزول قطعيّة الدخول عند جماهير الأصوليين، وهو الصواب إن شاء الله تعالى.فإذا علمت ذلك: فاعلم أنّ سبب نزول قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} أنّهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، فكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عُريَانة، فتقول: من يعيرني ثوباً تجعله على فرجها، وتقول ضباعة بنت عامر:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فنزلت هذه الآية في هذا السبب {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} .ومن زينتهم التي أمروا بأخذها عند كل مسجد: لبسهم الثياب عند المسجد الحرام للطواف، لأنّه هو صورة سبب النّزول. فدخولها في حكم الآية قطعيّ عند الجمهور، فالأمر في: خذوا شامل لستر العورة للطواف، وهو أمر حتم أوجبه الله مخاطباً به بني آدم، وهو السبب الذي نزل فيه الأمر. "[527]

وقوله تعالى:﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة: 196]نقل الشنقيطي أن العلماء "متفقون على لزوم الفدية في استعمال الطيب، ولا دليل من كتاب ولا سنة، على أنّ من استعمل الطّيب، وهو مُحْرِم يلزمه فدية، ولكنّهم قاسوا الطّيب على حلق الرأس المنصوص على الفدية فيه، إن وقع لعذر في آية {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ}[البقرة:196].وأظهر أقوال أهل العلم: أنّ الفدية اللازمة كفدية الأذى وهي على التخيير المذكور في الآية، لأنّها هي حكم الأصل المقيس عليه، والمقرر في الأصول أنّه لا بدّ من اتفّاق الفرع المقيس، والأصل المقيس عليه في الحكم وذلك هو مذهب أبي حنيفة، إن كان التطيّب، أو اللبس لعذر، لأنّ الآية نزلت في العذر؟"[528]

المطلب الثاني: سياق سبب النزول وأثره في الترجيح الدلالي .

526 الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج 10 ، ص 33
527المرجع نفسه ،ج4، ص401
528أضواء البيان ،ج5 ، ص 73

أفاد المفسرون كثيرا من سبب النزول ، في إيضاح معاني المفردات والتراكيب القرآنية،فسبب النزول يعتبر عندهم أداة مهمة من أدوات التحليل التفسيري ، فقد تتعدد المعاني المعجمية للمفردة ، فيرجع إلى سياق سبب النزول فيرجّح المعنى الذي يقتضيه سبب النزول وقد لجأ الشنقيطي إليه كثيرا في انتصاره لتوجيه دون آخر .

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾[الأنفال:19] للمفسرين في مفردة "الفتح " قولان، قال قوم: معناه إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء، وقال آخرون إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وقد جاء التفسير بالمعنيين جميعاً "[529].

إلا أن الشنقيطي اختار القول الذي يبيّن أنّ المراد بالفتح هنا في هذه الآية: الحُكْم، كما هو قول جمهور العلماء مستندا في ذلك إلى سياق الموقف "وذلك أنّ قريشاً لمّا أرادوا الخروج إلى غزوة بدر تعلّقوا بأستار الكعبة، وزعموا أنّهم قُطّان بيت الله الحرام، وأنّهم يسقون الحجيج، ونحو ذلك، وأنّ محمّداً صلىّ الله عليه وسلم فرَّق الجماعة، وقطع الرحم، وسفّه الآباء، وعاب الدين، ثم سألوا الله أن يحكم بينهم، وبيّن النَّبي صلى الله عليه وسلم، بأنّ يُهلك الظالم منهم، وينصر المحق، فحكم الله بذلك وأهلكهم، ونصره، وأنزل الآية"[530] ومما يؤيّد توجيه الشنقيطي قول بعضهم :

ألا أبلِغْ بني عُصْمٍ رسولاً فإنّي عن فُتَاحَتِكُم غَنِيٌّ

معناه عن محاكمتكم. ومن ذلك قول اللّه جلّ وعزّ: " ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ " أي اقض بيننا،قال ابن قتيبة :« إنّا فَتَحْنا لك فتحاً مُبيناً » أي:قَضَيْنا لك قضاءً عظيماً ، ويقال للقاضي : الفتّاح".[531]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾[البقرة:158]بيّن الشنقيطي أن السعي المذكور قد بيّنته السنّة بما جاء "في صحيح مسلم، من حديث ابن عمر: "فأتى الصفا، فطاف بالصفا والمروة سبعة أطواف" والروايات بسعيه صلى الله عليه وسلم سبعاً بين الصفا والمروة كثيرة معروفة. وأما كون ذلك السعي بياناً لآية {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} . فهو أمر لا شك فيه، ويدل عليه أمران: أحدهما: سبب نزول الآية، لأنه ثبت في الصحيحين أنها نزلت في سؤالهم عن السعي بين الصفا والمروة، وإذا كانت نازلة جواباً عن سؤالهم عن حكم السعي، بين الصفا والمروة، فسعى النَّبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها بيانا لها".[532]

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾[المائدة:41]، وقع في الآية إجمال لأنّ المشار إليه بقوله:{هَذَا}،ومفسّر الضمير في قوله:{فَخُذُوهُ}،وقوله:{لَمْ تُؤْتَوْهُ}، لم يصرّح به في الآية ولكنّ الله أشار له هنا،قيل نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلاً وقالوا تعالوا نتحاكم إلى محمد. فإن حكم بالدية

529سيد طنطاوي ، تفسير الوسيط ، ج6 ، ص 210
530أضواء البيان، ج2، ص 51
531ابن الجوزي ، زاد المسير ، ج5 ، ص 382
532المرجع نفسه ،ج4 ،ص 418

فاقبلوه .وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه". [533] فتكون الإشارة بهذا إلى قبول الدية في أمر القتل."[534]

إلا أنّ الإمام الشنقيطي أبان مرجعه وأوضحه بسياق النزول الصحيح للآية حيث أنّها "نزلت في اليهوديّ واليهوديّة الذين زنيا بعد الإحصان، وكان اليهود قد بدّلوا حكم الرجم في التوراة، فتعمّدوا تحريف كتاب الله، واصطلحوا فيما بينهم على أنّ الزاني المحصن الذي يعلمون أنّ حدّه في كتاب الله "التوراة" الرّجم أنّهم يجلدونه ويفضحونه بتسويد الوجه والإركاب على حمار، فلما زنى المذكوران قالوا فيما بينهم تعالوا نتحاكم إلى محمّد صلّى الله عليه وسلّم في شأن حدّهما، فإنّ حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه ذلك واجعلوه حجّة بينكم وبين الله تعالى ويكون نبيّ من أنبياء الله قد حكم فيهما بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه " [535] فقد أوضح "أنّ المراد بقوله: {هَذَا}، وقوله: {فَخُذُوهُ}،وقوله: {وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ}، هو الحكم المحرّف الذي هو الجلد والتحميم كما بيّنا، وأشار إلى ذلك هنا بقوله: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا}, يعني المحرّف والمبدّل الذي هو الجلد والتحميم فخذوه: {وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ}، بأنّ حكم بالحق الذي هو الرّجم: {فَاحْذَرُوا} أن تقبلوه."[536]

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ ﴾[النساء:22]اختلف المفسرون في قوله تعالى: {مَا نَكَحَ } هل"ما" في الآية مصدريّة أو موصوليّة ، فذهب طائفة إلى أنها مصدريّة ، فيكون المعنى أي نكاح آبائكم الفاسد المخالف لدين الله؛ إذ الله قد أحكم وجه النكاح وفصل شروطه. وهو اختيار الطبري. فـ "من" متعلقة بـ "تنكحوا" و"ما نكح" مصدر. قال: ولو كان معناه ولا تنكحوا النساء اللاتي نكح آباؤكم لوجب أن يكون موضع "ما" "من". فالنهي على هذا إنما وقع على ألا ينكحوا مثل نكاح آبائهم الفاسد." [537]

واختار الإمام الطبري إبقاء المصدر على مصدريته ويكون المراد النهي عن كل نكاح كان لهم فاسد أي لا تنكحوا مثل نكاح آبائكم وليس بالوجيه "[538].وقد رجّح أبو حيّان كونها موصوليّة لأنّ "المتبادر إلى الذهن أنها مفعوله ، وأنّها واقعة على النوع كهي في قوله تعالى: {فانكحوا ما طاب لكم من النساء} أي: ولا تنكحوا النوع الذي نكح آباؤكم". [539]

وقد استظهر الشنقيطي هذا القول الذي يجعل "ما "موصولة ونسبه إلى التحقيق ورجّحه بقرينة خارجيّة فقال: {مَا} موصولة واقعة على النساء التي نكحها الآباء،

---

533 القاسمي ، محاسن التأويل ، ج 3 ، ص 222
534أبوحيّان ، البحر المحيط ، ج3 ، 88
535المرجع نفسه ،ج 3 ، ص69
536أضواء البيان ج1، ص 401
537القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج5 ، ص 103
538الألوسي ، روح المعاني ، ج 3 ، ص 491
539أبوحيّان ، البحر المحيط ، ج4 ، ص 79

كقوله تعالى:{فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ} [3/4]، ووجه ذلك؛ لأنهم كانوا ينكحون نساء آبائهم كما يدل له سبب النزول، فقد نقل ابن كثير عن أبي حاتم أن سبب نزولها أنه لما توفي أبو قيس بن الأسلت خطب ابنه امرأته، فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، فقال: "ارجعي إلى بيتك" ، فنزلت: {وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ} الآية." [540]فلذلك حسن وقع ما عوض من لأن من تكثر في الموصول المعلوم، على أن البيان بقوله {من النساء} سوى بين {ما} ومن فرجحت ما لخفتها، والبيان أيضا يعين أن تكون ما موصولة". [541]

المطلب الثالث: سياق سبب النزول وأثره في تضعيف الأقوال .

قد يقع كثير من الناس في الوهم والخطأ عندما يعمدون إلى تفسير بعض الآيات بالظاهر تفسيرا يتعارض وحقيقة ما أنزلت بسببه" [542] لذلك يلجأ كثير من المفسّرين إلى جعل سبب النزول وسيلة من وسائل الترجيح، ومعيارا قويا وميزانا صحيحا يُحتاج إليه للتمييز بين الأقوال الراجحة والمرجوحة، والصحيحة والواهية،وهذا الأمر هو صنيع الإمام الشنقيطي في تفسيره، نذكر طرفا مما استند فيه إلى سبب النزول.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾[البقرة:196] إنّ المراد بالإحصار في الآية الكريمة، قد اختلف فيه العلماء على قولين:أحدهما : أنه كل حابس من عدوّ، أو مرض، أو عذر، وهو قول مجاهد، وقتادة، وعطاء، وأبي حنيفة.والثاني: أنه الإحصار بالعدوّ، دون المرض، وهو قول ابن عباس، وابن عمر، وأنس بن مالك، والشافعي". [543]

وقد رجّح الشنقيطي دلالة "الإحصار"بصد العدو المحرم، وضعّف قول من رأى أنّ "المراد بالإحصار أنه ما كان من المرض ونحوه خاصة، دون ما كان من العدو. وقد قدّم أنّه المنقول عن أكثر أهل اللغة، وإنما جاز التحلّل من إحصار العدو عند من قال بهذا القول؛ لأنّه من إلغاء الفارق وأخذ حكم المسكوت عنه من المنطوق به، فإحصار العدو عندهم ملحق بإحصار المرض بنفي الفارق. ولا يخفى سقوط هذا القول لأن الآية الكريمة نزلت في إحصار العدو عام الحديبية، وأنّ صورة سبب النزول قطعية الدخول، كما عليه الجمهور وهو الحق." [544] فهي قد نزلت في صد المشركين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم محرمون بعمرة عام الحديبية عام ست بإطباق العلماء."[545]

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾[الأنفال:196]قال قتادة -رحمه الله تعالى-: إن آية {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ} الآية، ناسخة لآية{وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى

540أضواء البيان ، ج1 ، ص230
541الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير ، ج 4 ، ص 74
542عبد الرحمن بودرع ،منهج السياق في فهم النص ،ص 43
543الماوردي ، النكت والعيون ، ج1 ، ص 140
544أضواء البيان، ج1 ،ص80
545المرجع نفسه ،ج1 ، ص 77

رَسُولِهِ}الآية، فقد جعل الشنقيطي قول قتادة باطلا بسياق النزول حيث ذكر أنّ "هذا القول الذي ذهب إليه ـ رحمه الله ـ باطلا بلا شك، ولم يلجىء قتادة ـ رحمه الله ـ إلى هذا القول إلا دعواه اتحاد الفيء والغنيمة، فلو فرّق بينهما كما فعل غيره لعلم أن آية "الأنفال" في الغنيمة، وآية "الحشر" في الفيء، ولا إشكال، ووجه بطلان القول المذكور أن آية: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ} الآية، نزلت بعد وقعة بدر، قبل قسم غنيمة بدر بدليل حديث علي الثابت في "صحيح مسلم"، الدال على أنّ غنائم بدر خمّست، وآية التخميس التي شرعه الله بها هي هذه، وأمّا آية "الحشر" فهي نازلة في غزوة بني النضير بإطباق العلماء، وغزوة بني النضير بعد غزوة بدر بإجماع المسلمين، ولا منازعة فيه البتة، فظهر من هذا عدم صحّة قول قتادة رحمه الله تعالى" [546]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾[الفتح:1]يرى بعض المفسرين : أن المراد بالفتح هنا فتح مكة ، والتعبير عنه بالماضي في قوله:{ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً } لتحقق الوقوع،فهو من قبيل قوله ـ تعالى ـ :{أَتَى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ } [547]وقد استدلوا بأدلة على أنه فتح مكة. قالوا: لأنه مناسب لآخر السورة التي قبلها من وجوه :أحدهما: أنه تعالى لما قال:{هَاأَنتُمْ هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله }إلى أن قال:{ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ } وبين تعالى أنه فَتَحَ لهم مكة ، وغَنِموا ديارهم ، وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا؛ ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم .وثانيها : لما قال :« واللهُ مَعكُمْ » وقال :«وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ » بيّن برهانه بفتح مكة فإنهم كانوا هم الأعلون .وثالثها : لما قال تعالى :{ فَلاَ تَهِنُواْ وتدعوا إِلَى السلم }وكان معناه لا تسألوا الفتح بل اصبروا فإنكم تسألون الصلح كما كان يوم الحديبية فكان المراد فتح مكة حيث أتوا صَنَادِيدَ قُرَيْشٍ مستأمنين ومؤمنين ومسلمين ومستسلمين ."[548]

ورجّح الأكثرون أن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية لوجود الآثار الصحيحة التى تشهد لذلك ، ولأن هذا الصلح قد ترتب عليه من المنافع للدعوة الإسلامية ما يجعله من أعظم الفتوح ، إن لم يكن أعظمها .

إنّ الإمام الشنقيطي رأى أن " التحقيق الذي عليه الجمهور أنّ المراد بهذا الفتح صلح الحديبية، لأنّه فتح عظيم. وإيضاح ذلك أن الصلح المذكور هو السبب الذي تهيأ به للمسلمين أن يجتمعوا بالكفار فيدعوهم إلى الإسلام وبينوا لهم محاسنه, فدخل كثير من قبائل العرب بسبب ذلك في الإسلام. وممّا يوضّح ذلك أن الذين شهدوا صلح الحديبية مع النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة عام ست كانوا ألفا وأربعمائة.ولما أراد النبي صلى الله عليه وسلم غزو مكة حين نقض الكفار العهد، كان خروجه إلى مكة في رمضان عام ثمان.وكان معه عشرة آلاف مقاتل، وذلك يوضح أن الصلح المذكور من أعظم الفتوح لكونه سببا لقوة المسلمين وكثرة

546أضواء البيان ،ج2 ،ص 55

547 محمد سيد، طنطاوي ، تفسير الوسيط ، ج1 ، ص 332

548ابن عادل الحنبلي ، اللباب في علوم الكتاب ، ج14 ، ص 265

عددهم.وليس المراد بالفتح المذكور فتح مكة، وإن قال بذلك جماعة من أهل العلم.وإنما قلنا ذلك لأن أكثر أهل العلم على ما قلنا, ولأن ظاهر القرآن يدل عليه لأن سورة الفتح هذه نزلت بعد صلح الحديبية في طريقه صلى الله عليه وسلم راجعا إلى المدينة".[549]

المطلب الرابع: سياق المكي والمدني وأثره في توجيه الخطاب القرآني .

تمهيد:

لقد اختلف الخطاب المَكّيُّ عن المدني، لاختلاف المخاطبين في كلٍّ منهما، وهذا ما استشعره الرعيل الأول من الصحابة، الذين كثرت إشاراتهم إلى المقومات الأسلوبية والبنيوية المختلفة للخطاب في مرحلتيه الكبيرتين، ففي تعريف «المكي» و «المدني» ينسب «الزركشي» إلى «ابن عباس» قوله: «المكيُّ ما وقع خطابًا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة، لأن الغالب على أهل مكة الكفر فخوطبوا لذلك بقوله تعالى: (يأيها النَّاس) وإن كان غيرهم داخلاً فيها، والغالب على أهل المدينة الإيمان فخوطبوا: (يأيُّها الذينَ ءامَنوا) وإن كان غيرهم داخلاً فيهم» ويبدو أن هذه الإشارة لـ«ابن عباس» قد وجهت الباحثين – قديماً وحديثاً- إلى خصوصية هذا المعطى الأسلوبي الذي به تفترق المرحلتان المكية والمدنية، فالسياق في هذه الرؤية أكبر من مجرد وسيط مادي يقتصر دوره على توضيح النص فقط، أو على توطئة للفهم، وهذا التفات غاية في الدقة. وإذا كان السياق في الدرس الحديث ظل لفترة غير قصيرة يقوم بوظيفة مزدوجة: «يَحْصِر مجال التأويلات الممكنة ..... ويُدَعِّم التأويل المقصود». فإنّ السياق في علوم القرآن يتجاوز مجرد حصر التأويلات الممكنة أو تدعيم بعضها، إنه لا يلي النص ولا يوازيه، ولكنه يرافقه يتدخل في تشكيل البنية وتوجيه الخطاب."[550]

إنّ معرفة المكيّ والمدنيّ من أهمّ علوم القرآن فالسيوطي في الإتقان يجعله العلم الأوّل الذي يجب على الباحث في القرآن معرفته والإلمام به. ثم إنّ معرفته " تستوعب المقولة البلاغية الذائعة، التي جعلت الفصاحة رهنا بالتطابق بين الكلام ومقتضى الحال ،فمن الضروري أن يتغيّر القول تبعا لتغيّر المقام والحال .ولكن معرفة المكي والمدني تبدو أشمل ممّا عناه البلاغيون إنّها تستوعب ما يطلق عليه المحدثون السياق الثقافي ،الذي يشمل شبكة التقاليد الاجتماعية والاقتصادية والمؤسساتية التي تحكم الثقافة الواحدة . خصوصا عندما تتدخل هذه بسياقات أقوال معينة. فكل خطاب له سياق ثقافي يؤثر على التراكيب اللغوية المستخدمة ، فالبناء التركيبي بمستوياته اللغوية المختلفة يوظف ـ بشكل أو بآخر ـ لخدمة أيديولوجيا النّص التي تعضد بدورها أو تعارض أيديولوجيا خارج النّص. فهذا السياق يمكننا من تبين علاقة خطاب معيّن بغيره من الخطابات الأخرى داخل سياق ثقافي محدد "[551]

549أضواء البيان ،ج7 ، ص 393

550 د محمد عبد الباسط عيد : النص والخطاب ، قراءة في علوم القرآن ، مكتبة الآداب، ط1 ،القاهرة 2009،ص 80

551عفاف البطاينة ، النصوص وسياقاتها دراسة في الأدبية ، الأيدلوجيا والخطاب ، فصول ع، ص 57

قوله تعالى:﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾[الأنبياء:34].

قال بعض أهل العلم: كان المشركون ينكرون نبوته صلى الله عليه وسلم ويقولون: هو شاعر يتربَّص به ريب المنون، ولعله يموت كما مات شاعر بني فلان ، فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء من قبلك، وتولى دينه بالنصر والحياطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك "[552] فهم قد تمنوا موته ليشمتوا به ، وهذا أنسب لما بعده" [553] وقال بعض أهل العلم: لما نعى جبريل إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم نفسه قال: "فَمَنْ لأُمتي" ؟ فنزلت {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ}وقد استظهر الشنقيطي القول الأول. "لأنّ السورة مكية: ومعنى الآية: أن الله لم يجعل لبشر قبل نبيه الخلد. أي دوام البقاء في الدنيا، بل كلهم يموت."[554]

قوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف:31]

استعان المفسرون في بيان مدلول كلمة "رجل" وكلمة "القريتين" بسياق التنزيل الذي وردت فيه، حيث " ذكر أهل التفسير أنّ الآية نزلت جوابا للوليد بن المغيرة حين قال فيما أخبر الله عنه{وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف: 31] اهـ. يعنون بذلك الوليد بن المغيرة من أهل مكة وعروة بن مسعود الثقفي من أهل الطائف. وهما المراد بالقريتين.وتبعه الزمخشري وابن عطية."[555] يعنون بالقريتين:مكة والطائف، وبالرجلين من القريتين: الوليد بن المغيرة في مكة، وعروة بن مسعود في الطائف زاعمين أنهما أحق بالنبوة منه."[556]

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾[الحجر:87]أشار الشنقيطي إلى أنّ السبع المثاني هي الفاتحة، كما جاء بذلك الحديث الصحيح إلاّ أنّه اعترض على من فسرّها بالسبع الطوال وضعّف قوله "وممّا يدلّ على عدم صحّة ذلك القول: أنّ آية الحجر هذه مكّية، وأنّ السبع الطوال ما أنزلت إلا بالمدينة [557] "وقد روي عن بعض السلف تفسير السبع بالسور الطوال الأول ، وهذا لم يقصد به ، إلا أنّ اللفظ الكريم يتناولها ، لا أنها هي المعنيّة . كيف لا وهذه السورة مكيّة وتلك مدنيّات ؟ كالقول بأنها الفاتحة سواء . وأما حديث : "الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته " عند الشيخين ؛ فمعناه أنها من السبع ، لعطف

---

552 محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر ، بيروت – لبنان، 1993م ، ج11 ، ص 287

553 محمد بن أحمد بن جزي الكلبي أبو القاسم ، التسهيل لعلوم التنزيل، المحقق: محمد سالم هاشم; الناشر: دار الكتب العلمية; سنة النشر: 1415،ج ،ص 107

554 أضواء البيان،ج4، ص 145

555الطاهر بن عاشور ،التحرير والتنوير، ، ج 20، ص 95

556أضواء البيان ،ج6 ،ص 337

557أضواء البيان ، ج2 ،ص 315

قوله : والقرآن العظيم الذي أوتيته ولو كان القصر على بابه ، لناقضه لمعطوف ؛ لاقتضائه أنها هو لا غيره . وبداهة بطلانه لا تخفى ".[558]

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ ﴾[هود:114]. قال ابن كثير: يحتمل أنّ الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس، وكان الواجب قبلها صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، وقيام الليل، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس،وعلى هذا فالمراد بطرفي النهار بالصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، والمراد بزلف من الليل قيام الليل"[559]

وقد ضعّف الشنقيطي قول ابن كثير بدلالة سياق النزول حيث جعل "أقرب الأقوال في الآية أنّه أشار بطرفي النّهار إلى صلاة الصبح أوله وصلاة الظهر والعصر آخره أي: في النصف الأخير منه وأشار بزلف من الليل إلى صلاة المغرب والعشاء.
واستبعد الشنقيطي هذا الاحتمال الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- "لأنّ الآية نزلت في أبي اليسر في المدينة بعد فرض الصلوات بزمن فهي على التحقيق مشيرة لأوقات الصّلاة، وهي آية مدنيّة في سورة مكيّة."[560]

قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾.[الحج:30]ذكر الإمام الشنقيطي أنّ الآية الكريمة لم يبيّن فيها " الذي يتلى عليهم المستثنى من حِلّيّة الأنعام، ولكنّه بيّنه بقوله في سورة الأنعام:{قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ}[الأنعام:145] ، وقد اعترض الشنقيطي على طائفة من المفسرين فقال: أمّا ما قاله جماعات من أهل التفسير من أنّ الآية التي بيّنت الإجمال في قوله تعالى هنا:{إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} أنّها قوله تعالى في المائدة:{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ}[المائدة : 3] فهو غلط،لأنّ المائدة من آخر ما نزل من القرآن وآية الحجّ هذه نازلة قبل نزول المائدة بكثير، فلا يصحّ أن يُحال البيان عليها في قوله:{إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} بل المبيّن لذلك الإجمال آية الأنعام التي ذكرنا لأنّها نازلة بمكة، فيصحّ أن تكون مبيّنة لآية الحج المذكورة كما نبّه عليه غير واحد."[561]

وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ [فصلت: 6-7]ممّا فسّر به المفسّرون لفظ الزكاة الوارد في الآية هي الطهارة من الآثام والأدناس وقد استدل لهذا القول بقرائن منها " أنّ هذه السورة مكيّة بلا خلاف، والزكاة إنّما فرضت بالمدينة كما هو معلوم . فدلّ على أنّ قوله{وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} نزل قبل فرض

---

558 القاسمي ، محاسن التأويل ، ج2 ، ص 333
559 ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج 3 ، ص212
560أضواء البيان ،ج1 ص 280
561المرجع نفسه ،ج5، ص 254

زكاة الأموال المعروفة فدلّ على أنّ المراد به غيرها " [562] وقال قتادة : يمنعون زكاة أموالهم ، واختاره ابن جرير . . وفيه نظر ، لأنّ إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة ، وهذه الآية مكيّة .اللهم إلا أن يقال : لا يبعد أن يكون أصل الزكاة - وهو الصدقة - كان مأمورا به فى ابتداء البعثة ، كقوله - تعالى: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ } فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها فى المدينة ، ويكون هذا جمعا بين القولين " [563]

قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾[النحل:9] قد استدل بهذه الآية ، القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بأن التعليل بالركوب والزينة يدل على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها "[564]

وقد اعترض الشنقيطي على هذا القول بأن جمهور أهل العلم ردّ "الاستدلال بالآية الكريمة. بأن آية النحل نزلت في مكة اتفاقاً، والإذن في أكل الخيل يوم خيبر كان بعد الهجرة من مكة بأكثر من ست سنين، فلو فهم النبي صلى الله عليه وسلم المنع من الآية لما أذن في الأكل، وأيضاً آية النحل ليست صريحة في منع أكل الخيل، بل فهم من التعليل، وحديث جابر، وحديث أسماء بنت أبي بكر المتفق عليهما. كلاهما صريح في جواز أكل الخيل. والمنطوق مقدم على المفهوم كما تقرر في الأصول".[565]

ولما كان نص الآية يقتضى أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة ، وكان الأكل مسكوتا عنه ، ودار الأمر فيه على الإباحة والتحريم ، وردت السنة النبوية بإباحة لحوم الخيل ، وبتحريم لحوم البغال والحمير فوجب الأخذ بما جاء فى السنة التى هى بيان للكتاب"[566]

---

562 أضواء البيان،ج5 ص308
563ا سيد طنطاوي، الوسيط ، ج5 ، ص 222
564 أبو زهرة ، التفسير الوسيط ، ج4 ، ص 122
565أضواء البيان ،ج1 ، ص 521
566الوسيط ، ج 3 ، ص 222

المبـــحث الثَّالث

السياق الثقافي وأثره في توجيه الخطاب القرآني

المبحث الثالث:السياق الثقافي و أثره في توجيه الخطاب القرآني .

تمهيد

نزل القرآن باللغة العربيّة؛ واللغة في حدّ ذاتها هي أهم عنصر في ثقافة المجتمعات،وعلى هذا الأساس يجب معرفة ثقافة العرب في الفترة التاريخية لنزول القرآن حتى يمكن الوصول إلى دقائق هذه اللغة، فمعرفة القواعد اللغوية، ومشتقات الكلمات والاصطلاحات في اللغة العربية في الوسط الثقافي لعصر النزول؛ من الأمور المهمة والضرورية لفهم القرآن ويعتقد البعض أنّ فهم أيّة لغة يرتبط بالتقاليد والأعراف التي كانت قائمة في زمانها، ولو أردنا أن نفصل اللغة عن زمانها وعن الأعراف والتقاليد المرتبطة بها فإنّها سوف تفقد معناها .

ولهذا السبب فإنّ ابن عباس والمفسّرين الذين جاؤوا بعده كانوا يهتمّون بالشعر الجاهلي بشكل خاص ويعتبرون أنّ فهم هذا الشعر يساعد بشكل كبير على الفهم الصحيح للقرآن الكريم، وقد نقل عن ابن عباس أنه متى ما عجز الإنسان عن فهم شيء من القرآن فعليه أن يرجع إلى الشعر؛ وذلك لأنّ الشعر هو ديوان العرب. وقد أخذ نافع يسأل ابن عباس في إحدى المرات عن تفسير بعض آيات القرآن، وكلما سمع منه جواباً سأل عن دليله،وكان ابن عباس يستدل بالشعر العربي فبلغت مائتي مرة. وقد نقل هذا في كتاب الإتقان للسيوطي بشكل كامل"[567]

المطلب الأول : سياق الموروث الجاهلي وأثره في توجيه الخطاب القرآني

لابد للمفسّر من إلمام ومعرفة لحياة العرب في الجاهلية ،حتى يستطيع بذلك أن يتفهّم كلام الله تعالى. والشنقيطي قد أورد شيئا من هذا في تفسيره نذكر نبذا منها .

في قوله جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة :﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً..**﴾ [النحل:72] عند تفسيره لهذه الآية ، تناول الشنقيطي قضيّة اجتماعية في الآية، ردّ على العرب التي" كانت تعتقد أنّها كانت تُزوَّج الجنّ وتُباضِعها؛ حتى روي أنّ عمرو بن يُربوع بن حنظلة بن مالك تزوج سَعْلاة منهم، وكانيُخَبِّؤُهَا عن سنا البرق لئلا تراه فتنفر، فلما كان في بعض الليالي لمع البرق وعاينته السَّعْلاة، فقالت: عمرو! ونفرت، فلم يرها أبداً. ولذا قال عِلباء بن أرقم يهجو أولاد عمرو المذكور:

أَلَا لَحَى اللَّهُ بَنِي السَّعْلَاةْ عَمْرَو بْنَ يَرْبُوعٍ لِئَامَ النَّاتْ

---

567 فهم النص في سياقه التاريخي ، مجلة البصائر، مركز البحوث والدراسات الاسلامية ،حوزة الامام القائم العلمية

لَيْسُوا بأعْفافٍ وَلَا أكيَاتْ

وقوله: "النات" أصله "الناس" أبدلت فيه السين تاء."[568]

قوله تعالى: ﴿**لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً**﴾[النحل:8]استعمل الشنقيطي السياق الثقافي في بيان هذه الآية؛ فالله قد امتن على عباده بما خلق لهم من الخيل والبغال ,وأنّ هذه المخلوقات من جملة المركوبات ومن جملة الزينة ،حيث أشار المفسّر عند تفسيره لقوله" زينة " بأن بيّن أنّ العرب "كانت تفتخر بالخيل والإبل ونحو ذلك؛ كالسّلاح، ولا تفتخر بالبقر والغنم، ويدلّ لذلك قول العباس بن مرداس يفتخر بمآثر قبيلته بني سليم:

وَاذْكُرْ بَـــلَاءَ سُلَيْـمٍ فِي مَوَاطِنِهَا فَفِي سُلَيْمٍ لِأَهْلِ الْفَخْـرِ مُفْتَخَـرُ
قَوْمٌ هُـــمْ نَصَرُواالرَّحْمَنَ وَاتَّبَعُوا دِينَ الرَّسُولِ وَأَمْرُ النَّاسِ مُشْتَجِرُ
لَا يَغْرِسُونَ فَسِيلَ النَّخْلِ وَسَطَهُمْ وَلَا تَخَـاوَرُ فِي مَشْتَـاهُمُ الْبَقَـرُ
إِلَّا سَوَابِـحَ كالعقبـان مُقْرَبَـــةً فِي دَارَةٍ حَوْلَهَا الْأَخْطَارُ وَالْـعَكَرُ

وقول الآخر:

لَعَمْرِي لَقَوْمٌ قَدْ تَرَى أَمْسِ فِيهِمُ مَرَابِطَ لِلْأَمْهَارِ وَالْعَكَرِ الدَّثْـرْ
أَحَبُّ إِلَيْنَا مِـنْ أُنَـاسٍ بِقِنَّـــةٍ يَرُوحُ عَلَى آثَـارِ شَائِهُمُ النَّمِـرْ

وقوله: العَكَر الدَّثْر، أي: المال الكثير من الإبل. "[569]

قوله تعالى: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً**﴾[مريم:68] أخبر الله تعالى أنه يحضر هؤلاء المنكرين للبعث مع الشياطين فيجثون حول جهنم وهي قعدة الخائف الذليل على ركبتيه كالأسير" [570]. قال ابن عباس (رضي الله عنهما) جاثية مجتمعة مرتقبة لما يعمل بها .قال الزمخشري وقرىء : جاذيّة بالذال المعجمة قال : والجَذْوُ أشد من الجَثْوِ ، لأن الجَاذِي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه ، وهو أشد استيفازاً من الجاثِي". [571] وقد ذكر الشنقيطي أن الجثّي عند العرب هو الجلوس على الركبتين أو القيام على أطراف الأصابع "والعادة عند العرب: أنهم إذا كانوا في موقف ضَنكٍ وأمر شديد، جثوا على رُكَبِهم، ومنه قول بعضهم:

فمن للحماةِ ومن للكماةإذاما الكمـــاةُ جثـوا للرُّكَبْ
إذا قيل مـــات أبو مـــلك فتى المكرمات قريع العربْ"[572]

وكون معنى قوله: {جِثِيّاً} في هذه الآية، وقوله: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً} الآية[28/45] أنّه جثيّهم على ركبهم وهو الظاهر،وهو قول الأكثر،وهو الإطلاق المشهور في اللغة؛ ومنه قول الكميت:

568أضواء البيان ،ج2 ، ص 413
569أضواء البيان ، ج3 ، 475
570ابن عطيّة ، المحرر الوجيز، ج4 ، ص 344
571ابن عادل الحنبلي ، اللباب في علوم الكتاب ، ج 2 ، ص 222
572أضواء البيان ،ج3 ،ص 475

هُمْ تَرَكُوا سَرَاتَهُمْ جِثِيًّا وَهُمْ دُونَ السَّرَاةِ مُقَرَّنِينَا[573]

لأنّ البارك على ركبتيه صورته صورة الذليل أو صورته صورة العاجز.

قوله تعالى:﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام:59]لقد ذكر الشنقيطي في معرض بيانه لحقيقة الآية أنّ علم الغيب من جملة ما اختص به الله جلّ وعلا عن سائر خلقه، ثم أبان أنّ العرب كانوا أهل عيافة وهو الخط والزجر والكهانة، بل إنّ ديدنهم "عيافة الطير وزجرها، والتطير ببارحها، ونعيق غربانها."[574]

وأنّ" أشدّهم عيافة بنو لِهب حتّى قال فيهم الشاعر:

خَبيرٌ بَنُو لَهَبٍ فَلَا تَكُ مُلْغِيًا مَقَالَةَ لَهَبي إِذَا الطَّيْرُ مَرَّتِ

وَلَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ :

لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي الضَّوَارِبُ بِالْحَصَى وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللَّهُ صَانِعُ "[575]

وفي قوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾[الأعراف:157] أشار الشنقيطي أثناء تفسيره لهذه الآية، أنّ حشرات الأرض ؛كالفأرة، والحيات، والأفاعي، والعقارب، والخنفساء: والعظاية، والضفادع،والجرذان،والوزغ، والصراصير، والعناكب، وسام أبرص، والجعلانوبنات وردان، والديدان، وحمار قبان ، هذه خبائث لا يكاد طبع سليم يستسيغها، فضلاً عن أن يستطيبها، ثم أضاف أنّ "الذين يأكلون مثل هذه الحشرات من العرب، إنما يدعوهم لذلك شدّة الجوع، كما قال أحد شعرائهم:

أَكَلْنَا الرُّبَى يَا أُمَّ عَمْرٍو وَمَنْ يَكُنْ غَرِيبًا لَدَيْكُمْ يَأْكُلُ الْحَشَرَاتِ"[576]

والربى جمع ربية وهي الفأرة."[577]

وفي سياق ذكره لجملة الخبائث أشار أنّ" بعض العرب يزعمون أنّ الضّب من الأمم التي مُسخت، كما يدلّ له قول الراجز:

قَالَتْ وَكُنْتُ رَجُلًا فَطِينًا هَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ إِسْرَائِينَا

فإنّ هذه المرأة العربيّة أقسمت على أنّ الضّب إسرائيلي مُسِخ."[578]

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[النحل:58] أوضح الشنقيطي دلالة الآية التي تشير إلى أن العرب يكرهون البنات حيث أبان أنّ "بغضهم للبنات مشهور معروف في أشعارهم؛ ولمّا خطبت إلى عَقِيل بن عُلْفة المري ابنته الجرباء قال:

إِنِّي وَإِنْ سِيقَ إِلَيَّ الْمَهْرُ أَلْفٌ وَعَبْدَانِ وَذَوْدُ عُشْرِ

573أضواء البيان ،ج3 ، ص 475

574 الرازي، فخر الدين محمد بن عمر ،مفاتيح الغيب. ط1. دار الكتب العلمية، 1411هـ،ج7 ، ص 223

575أضواء البيان ،ج1 ، ص 484

576أضواء البيان ،ج1 ، ص 535

577القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج7 ، ص 120

578أضواء البيان ،ج1 ، ص 538

أَحَبُّ أَصْهَارِي إِلَيَّ الْقَبْرُ

ويروى لعبد الله بن طاهر قوله:

لِكُلِّ أَبِي بِنْتٍ يُرَاعَى شُؤُونَهَا ثَلَاثَةُ أَصْهَارٍ إِذَا حُمِدَ الصِّهْرُ
فَبَعْلٌ يُرَاعِيهَا وَخِدْرٌ يُكِنُّهَا وَقَبْرٌ يُوَارِيهَا وَخَيْرُهُمُ الْقَبْرُ

وهم يزعمون أنّ موجب رغبتهم في موتهنّ، وشدّة كراهيتهم لولادتهنّ: الخوف من العاروتزوّج غير الأكفاء، وأن تهان بناتهم بعد موتهم؛ كما قال الشاعر في ابنة له تسمى مودّة:

مَــوَدَّةُ تَهْوَى عُمْرَ شَيْخٍ يَسُرُّهُ لَهَا الْمَوْتُ قَبْلَ اللَّيْلِ لَوْ أَنَّهَا تَدْرِي
يَخَافُ عَلَيْهَا جَفْوَةَ النَّاسِ بَعْدَهُ وَلَا خِتْنَ يُرْجَى أَوَدُّ مِنَ الْقَبْرِ"[579]

قوله تعالى:﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾

[الإسراء:33] معلومة حالة العرب في الجاهليّة من التسرع إلى قتل النفوس فكان حفظ النفوس من أعظم القواعد الكلية للشريعة الإسلامية. ولذلك كان النهي عن قتل النفس من أهم الوصايا التي أوصى بها الإسلام أتباعه"[580].

لكن المفسّر حاول أن يبيّن مدلول قوله تعالى" فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ "فاستعان بحالة العرب في الجاهلية وما كانوا عليه من اعتداء وإسراف وجعل هذا الإسراف في القتل هنا شاملا لثلاث صور:

الأولى: أن يقتل اثنين أو أكثر بواحد، كما كانت العرب تفعله في الجاهليّة. كقول مهلهل بن ربيعة لما قُتل بجير بن الحارث بن عبّاد في حرب البسوس المشهورة: بِشَسْع نعل كليب. فغضب الحارث بن عبّاد، وقال قصيدته المشهورة:

قَــرِّبَا مَرْبَطَ النَّعَامَةِ مِنِّي لَقِحَتْ حَــرْبُ وَائِلٍ عَنْ حِيَالِ
قَــرِّبَا مَرْبَطَ النَّعَامَــةِ مِنِّي إِنَّ بَيْعَ الْكِرَامِ بِالشَّسْعِ غَالِـــي

وقال مهلهل أيضاً:

كُلُّ قَتِيلٍ فِي كُلَيْبٍ غَــرَّهُ حَتَّى يَنَــالَ الْقَتْــلَ آلُ مُــرَّهْ

ومعلوم أنّ قتل جماعة بواحد لم يشتركوا في قتله: إسراف في القتل داخل في النّهي المذكور في الآية الكريمة.

الثانية: أن يُقتل بالقتيل واحداً فقط ولكنّه غير القاتل. لأن قَتْل البريء بذنب غيره إسراف في القتل، منهيّ عنه في الآية أيضاً.

الثالثة: أن يُقْتَل نفس القاتل ويُمثَّل به. فإنّ زيادة الْمثلة إسراف في القتل أيضاً".[581]

قوله تعالى: ﴿وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[النساء:22]استعان الشنقيطي بحالة العرب في بيان الجرم الذي كان يفعله الجاهليون من "نكاح زوجات الآباء وممّن فعل ذلك أبو قيس بن الأسلت المذكور، فقد

579أضواء البيان ،ج2، ص 389
580الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير ،ج 14 ، ص 73
581أضواء البيان ،ج3 ، ص 87- 88

تزوّج أم عبيد الله وكانت تحت الأسلت أبيه،وتزوّج الأسود بن خلف ابنة أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار وكانت تحت أبيه خلف، وتزوج صفوان بن أمية فاختة ابنة الأسود بن المطلب بن أسد، وكانت تحت أبيه أميّة"[582]

استعانالمفسّر بـالحالة الاجتماعية باعتبارها قرائن حالية، يمكن أن توضح معنى النصالقرآني لوتأملنا النص القرآني نجد أن بعض المعاني يمكن إدراكها حال سماعها ، وبعضها نصل إلى معناها بعد الإستعانة بما يوصل إلى المعنى من مثل : الوقوف على بيئة الخطاب كالحال في مثل هذه الآية .

582أضواء البيان ،ج1، ص 231

المبحث الرابع

سياق لسان العرب وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

المبحث الرابع: سياق لسان العرب وأثره في توجيه الخطاب القرآني .

تمهيد :

نزل القرآن الكريم على محمّد صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين .قال تعالى:{وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً}[طه:113]وقال أيضا:{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[يوسف: 2]وقد أنزل الله القرآن بالعربية لأنّها اللسان الذي يفهمه العرب.قال تعالى:{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ}[فصلت: 44] من هنا لا يمكن فهم النصوص الشرعية إلا بمعرفة اللغة العربية ، واتباع معهود العرب الذي نزل القرآن بلسانهم ، ومراعاة عوائدهم وطرقهم في صياغة الكلام.والقول بضرورة فهم النصوص الشرعية وفق معهود لغة العرب في لغتها ، لا يكون فقط بالحرص على أن تحمل معاني الألفاظ على ما تعارف عليه العرب من معاني لها، بل في معرفة ماتوا ضع عليه العرب من الأساليب والمعاني ومعرفة عاداتهم وتقاليدهم،ومخزونهم الثقافي .قال الدكتور الجابري :" ولابد من الأخذ بالاعتبار أن "لسان القوم" ليس مجرد رموز لغوية بل هو أيضا خازن ثقافتهم ،بما فيها من عادات وأعراق ومخايل وتطلعات .. وإذن التنصيص في القرآن،مرارا وتكرارا،على كونه "نزل بلسان مبين " ليس معناه فقط أن كلماته عربية بل معناه "أنّ العربية ماهية " ... بمعنى أنّ اللغة العربية ، كأساليب في التعبير وكمخزون ثقافي ، مكون من مكونات ماهيته ، فهو قد نزل ليس فقط بكلمات عربية بل أيضا حسب معهود العرب ."[583]

المطلب الأول:سياق لسان العرب وأثره في إيضاح الدلالة القرآنية.

استعان الشنقيطي كثيرا باللسان العربي في بيان مدلول الألفاظ القرآنية ،راجعا بذلك إلى عادتهم ومألوفهم، متخذا منه منهجا متبعا في كتابه، فقلّما تخلو آية أراد تفسيرها إلا وقد أشار فيها إلى لسانهم "لأنه ممّا لاشك فيه أنّ الأداة اللغوية من الشروط المقدمة في فهم النص القرآني، أو ما اصطلح عليه " بمطلق الفهم العربي لمن حصّله ولولا المعرفة بلسان العرب لقال كل برأيه في القرآن الكريم"[584]

وسنذكر طرفا من الآيات القرآنية التي استعمل فيها اللسان العربي حاكما وموجّها للدلالات القرآنية.منها :

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[محمد:4].اختلف المفسّرون في بيان دلالة "وضع الحرب أوزارها"فقيل:أوزارها:آثامها، يعني حتى يترك أهل الحرب،وهم المشركون،شركهم ومعاصيهم ، بأن يسلموا" [585]. وقيل حتّى ينزل عيسى ابن مريم واختاره الرازيّ حيث "أن ذلك الوقت هو الوقت الذي لا يبقى فيه حزب من أحزاب الإسلام وحزب من أحزاب الكفر وقيل ذلك عند قتال الدجال

583د ، الجابري: مدخل إلى القرآن الكريم، الجزء الأول، في التعريف بالقرآن، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، سبتمبر 2006م ، ص 175.

584 عبد الرحمن بودرع ، منهج السياق في فهم النص ، سلسلة كتاب الأمة، العدد (111)، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر، السنة السادسة والعشرون ، ص 21.

585أبوحيّان ، البحر المحيط ، ج10 ، ص 76

ونزول عيسى عليه السلام ." [586] وقيل آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع ، أي تنقضي الحرب ولم يبق إلا مسلم أو مسالم"[587]
وهذا القول الأخير هو الذي استظهره الشنقيطي ، لدلالة السياق عليه ، ذلك أنّ وضع الحرب أوزارها هو وضع السلاح،" والعرب تسمي السلاح وزرا، وتطلق العرب الأوزار على آلات الحرب وما يساعد فيها كالخيل، ومنه قول الأعشى:

وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا رِمَاحًا طِوَالًا وَخَيْلًا دُكُورًا

وسمّيت آلات الحرب وأحمالها بالأوزار، لأنّ الحرب لما كانت لا تقوم إلا بها ، فكأنّها تحملها وتستقلّ بها ، فإذا انقضت الحرب فكأنّها وضعت أحمالها وانفصلت عنها"[588].

وقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾[النساء:29]فالتحرير جعل الإنسان حرا" [589]
وهو" الإخراج من الرق، وربما استعملته العرب في الإخراج من الأسر والمشقات، وتعب الدنيا ونحو ذلك، ومنه قول والدة مريم{إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً}[آل عمران: 92] ، أي من تعب أعمال الدنيا، ومنه قول الفرزدق همّام بن غالب التميمي:

أَبَنِي غُدَانَةَ إِنَّنِي حَرَّرْتُكُمْ فَوَهَبْتُكُمْ لِعَطِيَّةَ بْنِ جِعَالِ

يعني حرّرتكم من الهجاء، فلا أهجوكم."[590]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾[النساء:33]فالمولى هو النصير؛ الصديق والقريب، يقول الأصفهاني في مفرداته: " الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد " [591] وأقرب المعاني هنا "أن يكون الموالي هم الذين يخلفون الشخص في ماله وشخصه، فتكون حياتهم امتدادا لحياته، وهم الوارثون. والمعنى كما يبدو من النص الكريم"[592]
وقد أبان الامام الشنقيطي دلالة لفظ المولى في لغة العرب فأشار إلى أنّه: "يطلق على كل من انعقد بينك وبينه سبب بواليك وتواليه به. وكثيراً ما يطلق في اللغة على ابن العمّ. لأنّ ابن العمّ يوالي ابن عمّه بالقرابة العصبية.
ومنه قول طرفة بن العبد:

وَأَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ إِذَا ذَلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهُوَ ذَلِيلٌ "[593]

586الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج 4 ن ص 333
587البيضاوي ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ،ج5 ، ص 195
588 محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الطبعة الثالثة 1407 هـ 1978،ص 388.
589 الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، مفردات غريب القرآن ، ، دار المعرفة،تحقيق محمد سعيد كيلاني ج1، ص 111.
590أضواء البيان ،ج1، ص 426
591 الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، مفردات غريب القرآن ، ، ج 1 ، ص220
592محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ج3 ، ص 1664
593المرجع نفسه ،ج3، ص 365

يعني إذا ذلّت بنو عمه فهو ذليل. وقول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

مَهْلًا ابْنَ عَمِّنَا مَهْلًا مَوَالِينَا لَا تَنْبُشُوا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُونَا

وأما المولى بمعنى ابن العم فمشهور قال الله تعالى: وإني خفت الموالي من ورائي يعني بني العمّ" [594] و "ابن العم" لمّا كان أولى بالميراث ممن بعد عن نسبه وأولى بنصر ابن عمه من الأجنبي كان مولى لذلك"[595]

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا ﴾[مريم:11 يطلق الوحي على الإشارة والكتابة فيكون المعنى "فأشار إليهم أو كتب لهم دون أن ينطق بلسانه" [596] ويطلق على الكتابة كما هو القول الآخر في هذه الآية الكريمة. وقد أشار الشنقيطي إلى هذا التوجيه، مستدلا له من سياق لسان العرب حيث أنّ "إطلاق الوحي على الكتابة مشهور في كلام العرب، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلّقته:

فَمَدَافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُهَا خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الْوُحِيَّ سِلَامُهَا

فقوله:«الوُحيّ» بضم الواو وكسر الحاء وتشديد الياء، جمع وُحيّ بمعنى الكتابة. وقول عنترة:

كَوَحْيِ صَحَائِفَ مِنْ عَهْدِ كِسْرَى فَأَهْدَاهَا لِأَعْجَمَ طِمْطِمِي

وَقَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ :

سِوَى الْأَرْبَعِ الدُّهْمِ اللَّوَاتِي كَأَنَّهَا بَقِيَّةُ وُحِيٍّ فِي وَنِيِّ الصَّحَائِفِ

فيأخذ الوحي معنى الكتابة و الرّسالة وكلُّ ما ألقيته إلى غيرك، و يكون مرادفا للمكتوب والكتاب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾[السجدة:30-31]ذهب جمهور المفسرين إلى أنّ " الفتح " هو:الحكم ، وهو الذي يترتّب عليه قوله:{قل يوم الفتح }الخ ، ويضعّف قول الحسن ومجاهد:فتح مكة ، لعدم مطابقته لما بعده، لأن من آمن يوم فتح مكة ، إيمانه ينفعه ، وكذا قول من قال: يوم بدر"[597].

ورجّح الشنقيطي قول جمهور المفسرين ، تبعا لدلالة سياق لسان العرب. حيث قدّم " أنّ الفتح في هذه الآية الكريمة هو الحكم والقضاء، وأنّ الفتّاح: القاضي، وهي لغة حميرية قديمة، والفتاحة: الحكم والقضاء، ومنه قول خفاف بن ندبة:

أَلَا مِنْ مُبْلِغٍ عَمْرًا رَسُولًا بِأَنِّي عَنْ فَتَاحَتِكُمْ غَنِيُّ.[598]

ومما يؤيّد توجيهه، سياق النص القرآني بقرائنه اللفظية "ومنه قوله - تعالى - حكاية عن شعيب - عليه السلام - :{رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين }أى : "احكم بيننا وبين قومنا بالحق،وأنت خير الحاكمين" [599] .ولأنه أليق بسياق

594أبوبكر محمد بن الطيب الباقلاني ، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ، ج1 ، ص 455

595مجلة لغة العرب العراقية ،

596محمد سيد طنطاوي ، تفسير الوسيط ، ج 5، ص 222

597أبوحيّان ، البحر المحيط ، ج9 ، ص 126

598أضواء البيان ،ج6 ، ص 186

599تفسير الوسيط ، ج3 ، ص 233

الآيات،لكونه"متعلقا بقوله تعالى:{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}[السجدة : 25]"[600]

المطلب الثاني: سياق لسان العرب وأثره في توجيه الألفاظ المتضادة.

ترد ألفاظ متضادة في كلام الله تعالى، تحتمل معنيين مختلفين ، تتحدد دلالة أحدهما داخل النص القرآني، من خلال السياق الذي وردت فيه الآية القرآنية ، إضافة إلى سياق اللسان العربي، لأجل هذا استعان الشنقيطي باللسان العربي في توجيه الألفاظ المتضادة نذكر منها :

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ, مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾[إبراهيم:15-16]نقل أئمة اللغة:أن وراء تكون بمعنى خلف وأمام فهي من الأضداد " [601]ويؤيّده قراءة الجمهور لكلمة{وراءهم}وهو لفظ يطلق على الخلف وعلى الأمام ، ومعناه هنا أمامهم. وكذا قرأ ابن عباس وابن جبير. وكون{وراءهم} بمعنى أمامهم قول قتادة وأبي عبيد وابن السكّيت والزجاج ، ولا خلاف عند أهل اللغة أنّ وراء يجوز بمعنى قدام ، وجاء في التنزيل والشعر قال تعالى:{ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ}وقال{ومن ورائه عذاب غليظ }وقال{ومن ورائهم برزخ}"[602]

وقد استعان الشنقيطي على بيان أنّ " وراء بمعنى أمام في كلام العرب بما قاله لبيد:

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي لُزُومُ الْعَصَا تُحْنِي عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ

وقول الآخر:

أَتَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي وَقَوْمِي تَمِيمٌ وَالْفَلَاةُ وَرَائِيَا

فوراء بمعنى أمام في الأبيات." [603] أي من قدامه وبين يديه كما قال الزجاج. والطبري . وقطرب .وجماعة "[604]

وقد انتصر الشنقيطي لهذا الوجه وجعله هو "الظاهر لأنّ هذا الإطلاق معروف في القرآن الكريم وفي كلام العرب، فمنه في القرآن قوله تعالى {وَكَانَوَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف: 79] أي أمامهم ملك"[605]

فلفظ "وراء" حدث تطور في دلالته الأولى فأصبح يدل على المعنى وضدّه، بعد أن كان يدل على معنى شامل واحد هو المواراة والاستتار.

وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾[الكهف: 53] في هذا الظن قولان:الأول: أنّ الظن ههنا بمعنى العلم اليقين.وقيل الظن بمعنى الحسبان" [606] وقد رجّح الرازي" أن الظن على بابه حيث

600الألوسي ، روح المعاني ، ج16 ، ص 24
601 القر طبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج3 ، ص 222
602أبوحيّان ، البحر المحيط ، ج7 ، ص 492
603أضواء البيان ،ج2، ص 245
604الألوسي ، روح المعاني ، ج 9 ، ص 339
605أضواء البيان ، ج6 ، ص 333
606 ابن الجوزي ، زاد المسير ، ج4 ، ص 222

جعله وهو الأقرب ،فيكون المعنى "أن هؤلاء الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون أنّهم مواقعوها في تلك الساعة من غير تأخير ومهلة ، لشدّة ما يسمعون من تغيّظها وزفيرها"[607].فالمتيّقن أصل الدخول والمظنون الدخول حالاً"[608]

إلاّ أنّ الشنقيطي رجّح دلالة الظن على" أنّها المراد بها العلم واليقين. والعرب تطلق الظن على اليقين وعلى الشك. ومن إطلاقه على اليقين في كلام العرب قول دريد بن الصمّة:

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُمْ فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ

وقول عميرة بن طارق:

بِأَنْ تَغْتَزُوا قَوْمِي وَأَقْعُدُ فِيكُمُ وَأَجْعَلُ مِنِّي الظَّنَّ غَيْبًا مُرَجَّمَا"[609]

أي وأجعل مني اليقين غيبا مرجّما" [610]والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أنّ"الظن" في معنى اليقين أكثر من أن تحصى" [611]ولكنَّ العربَ لا تَسْتَعْمِلُ الظنَّ استعمالَ اليقين إلا فيما لم يَخْرُجْ إلى الحِسِّ والمشاهدةِ كالآيتين والبيت ،ولا تَجِدُهم يقولون في رجل مَرْئيٍّ حاضراً:أظنُّ هذا إنساناً ".[612]

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾[الفرقان:21]إنّ لفظ الرجاء مما تتعدّد دلالته إذ أنّه يطلق "على توقع الخير كالأمل وعلى الخوف وتوقع الشر وعلى مطلق التوقّع وهو في الأول حقيقة وفي الأخيرين مجاز"[613]

وقد أطلق الشنقيطي هذا المعنى وهو الخوف واستدل له بكلام العرب قال :"قال بعض العلماء:{لاَ يَرْجُونَ} أي: لا يخافون لقاءنا لعدم إيمانهم بالبعث ، والرجاء يطلق على الخوف كما يطلق على الطمع ، و قال بعض العلماء: ومنه قـــوله تعالى:{مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً} [نوح:13] قال أي: لا تخافون لله عظمة، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نَوْبٍ عَوَاسِلِ

فقوله لم يرج لسعها: أي: لم يخف لسعها، وقال بعض أهل العلم: إطلاق الرجاء على الخوف لغة تهامة"[614] وهي أيضاً من لغة هذيل؛ إذا كان مع الرجاء جحد ذهبوا به إلى معنى الخوف فيقولون : فلان لا يرجو ربّه سبحانه يريدون لا يخاف ربّه

---

607 الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج10 ، ص 223
608 الألوسي ، روح المعاني ، ج11 ، ص 286
609 المرجع نفسه ،ج3، ص 299
610ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج1 ، ص 254
611الطبري ، جامع البيان ، ج1 ، ص 18
612السمين الحلبي ،الدر المصون ، ج 1 ، ص 151
613الألوسي ، روح المعاني ، ج7 ، ص 438
614المرجع نفسه ،ج6، ص 37

سبحانه"[615] وقال الراغب في «مفرداته» : قيل مالكم لا تخافون؟ ووجه ذلك أن الرجاء والخوف يتلازمان".[616]

قوله تعالى في الأحقاف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: 13]أوضح الشنقيطي أنّ "الخوف في لغة العرب هو الغمّ من أمر مستقبل. والحزن: الغمّ من أمر ماض.وربما استعمل كل منهما في موضع الآخر, وإطلاق الخوف على العلم أسلوب عربي معروف.قال بعض العلماء: ومنه قوله تعالى:{إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ} [البقرة:229].قال معناه: إلا أن يعلما. ومنه قول أبي محجن الثقفي:

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِّي إِلَى جَنْـــبِ كَـرْمَةٍ تـُرَوِّي عِظَامِي فِي الْمَمَاتِ عُـرُوقُـهَا
وَلَا تَدْفِنَنِّي فِي الْفَلَاةِ فَإِنَّـــــنِي أَخَـافُ إِذَا مَـــا مِتُّ أَلَّا أَذُوقَـــهَـــا

فقوله أخاف: أي أعلم لأنّه لا يشكّ في أنّه لا يشربها بعد موته."[617]

المطلب الثالث :سياق لسان العرب وأثره في توجيه المسائل النحوية.

لجأ الإمام الشنقيطي في موسوعته التفسيريّة إلى استعمال لسان العرب والاستفادة منه كثيرا ، وجعله شاهدا أساسا من الشواهد التي يعتمد عليها في اختيار الأوجه النحوية،والتي قرّرها في تفسيره نذكر طرفا منها :

قال تعالى عن إبراهيم إنه قال له أبوه: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً ﴾ [مريم:46] قال الزمخشري : فإن قلت:علام عطف{واهجرني}؟ قلت : على معطوف عليه محذوف يدل عليه{لأرجمنّك }أي فاحذرني{واهجرني}لأنّ{لأرجمنّك}تهديد وتقريع." [618] وإنما احتاج إلى حذف ليناسب بين جملتي العطف والمعطوف عليه.فقوله{واهجرني}معطوف على قوله{لئن لم تنته لأرجمنّك}وكلاهما معمول للقول " [619]فيكون "اهجرني معطوف على محذوف عند من يمنع عطف الإنشائية على الخبريّة والتقدير فاحذرني واهجرني، على أنّ سيبويه يجيز عطف الجملة الخبريّة على الجملة الانشائية فليس هذا التقدير بلازم" [620]

على أن الشنقيطي لم يرتض قول الزمخشري ؛ مدعّما رأيه بسياق كلام العرب فهو يرى أن "جملة {وَاهْجُرْنِى} عطف على جملة {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ}، وذلك دليل على جواز عطف الجملة الإنشائية على الجملة الخبرية، ونظير ذلك من كلام العرب قول امرىء القيس:

وَإِنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ إِنْ سَفَحْتُهَا فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

فجملة «وإنّ شفائي» خبريّة، وجملة «وهل عند رسم» الخ إنشائية معطوفة عليها.

---

615 الألوسي ، روح المعاني ، ج14 ، ص 69
616الاصفهاني ، مفردات الراغب ، ص 190
617أضواء البيان ،ج7 ، ص140
618الزمخشري ، الكشاف ، ج4 ،ص 90
619أبو حيان ، تفسير البحر المحيط ،ج 8 ،ص 38
620محي الدين درويش ، إعراب القرآن وبيانه ، ج6 ، ص 108

وقول الآخر أيضاً:

تُنَاغِي غَزَالًا عِنْدَ بَابِ ابْنِ عَامِرٍ وَكَحِّلْ مَآقِيَكَ الْحِسَانَ بِإِثْمِدِ

وهذا هو الظاهر كما قاله أبو حيّان عن سيبويه"[621]

فيظهر من بيان الشنقيطي واستدلاله بشواهد اللسان العربي جواز عطف الجملة الإنشائية على الخبرية .

وقال تعالى:﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[الشورى:7]قرأ الجمهور برفع :{ فريق} في الموضعين،إما على أنه مبتدأ ، وخبره الجار والمجرور"،وشاع الابتداء بالنكرة ، لأن المقام مقام تفصيل،أو على أنّ الخبر مقدّر قبله ،أي: منهم فريق في الجنة ، ومنهم فريق في السعير،" [622] وقيل "مرتفع على خبر الابتداء المضمر ، كأنه قال : هم فريق في الجنة ، وفريق في السعير"[623]

وقد أوضح الشنقيطي أنّ المسوّغ للابتداء بالنكرة في قوله:{فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ}أنّه في معرض التفصيل.ونظيره من كلام العرب قول امرىء القيس:

فَلَمَّا دَنَوْتُ تَسَدَّيْتُهَا فَثَوْبًا نَسِيتُ وَثَوبًا أَجُرْ"[624]

قوله تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [مريم:62] ذكر المفسّرون أنّ في الآية الكريمة: «لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما» ثلاثة أوجه:

أ- أن يكون معناه إن كان تسليم بعضهم على بعض ،أو تسليم الملائكة لغوا فلا يسمعون لغوا إلا ذلك، وهو بهذا من وادي قول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ب- أنهم لا يسمعون فيها إلا قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة ،وهذا يتعيّن فيه الاستثناء المنقطع ج- أنّ معنى السلام هو الدعاء بالسلامة ،وهي دار السلامة وأهلها أغنياء عن الدعاء بالسلامة، فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث، لولا ما فيه من فائدة الإكرام، ففي الوجه الأول والثالث يتعيّن الاتصال في الاستثناء ،أمّا الأول فلجعل ذلك لغوا على سبيل التجوّز والفرض، وأما الثاني فواضح لأنه فيه إطلاق اللغو على السلام، وأما الثالث فلحمل الكلام على ظاهره من دون تجوز أو فرض".[625]

وقد استظهر الشنقيطي "أنّ قوله: {إِلاَّ سَلَاماً}، استثناء منقطع، أي لكن يسمعون فيها سلاماً، لأنهم يسلّم بعضهم على بعض، وتسلّم عليهم الملائكة،كما يدلّ على ذلك قوله تعالى:{تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ}[يونس:23]الآية، وقوله: {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ...}[الرعد:23]الآية.ونظير ذلك من كلام العرب في الاستثناء المنقطع قول نابغة ذبيان:

621أضواء البيان ،ج3، ص 429

622 الشوكاني ، فتح القدير ، ج6 ، 367

623ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ج4 ، ص 66

624أضواء البيان ،ج7،ص 47

625 محي الدين درويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، ج6 ، ص 124

وَقَفْتُ فِيهَا أُصَيْلَانًا أُسَائِلُهَا عَيَّتْ جَوَابًا وَمَا بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ
إِلَّا الْأَوَارِيَّ لَأْيًا مَا أُبَيِّنُهَا النُّؤْيَ كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَلَدِ

«فالأواريّ» التي هي مرابط الخيل ليست من جنس «الأحد».

وقول الفرزدق:

كَرِيمٍ قَدْ نَكَحْنَا وَلَمْ يَكُنْ لَهَا خَاطِبٌ إِلَّا السِّنَانَ وَعَامِلَهْ

وقول جِران العَوْد:

وَبَلْدَةٍ لَيْسَ بِهَا أَنِيسُ إِلَّا الْيَعَافِيرُ وَإِلَّا الْعِيسُ

«فالسنان» ليس من جنس «الخاطب» و«اليعافير والعيس» ليس واحد منهما من جنس «الأنيس». "[626]

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة :﴿**مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ** ﴾[الواقعة:8] ،وقوله:{مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ}[الواقعة: 9].استظهر الشنقيطي "في إعرابه أنّه مبتدأ وخبر على عادة العرب في تكريرهم اللفظ وقصدهم الإخبار بالثاني عن الأول، يعنون أن اللفظ المخبر عنه هو المعروف خبره الذي لا يحتاج إلى تعريف ومنه قول أبي النجم:

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي لِلَّهِ دَرِّي مَا أَجَنَّ صَدْرِي

فقوله: وشعري شعري يعني شعري هو الذي بلغك خبره، وانتهى إليك وصفه."[627]

قوله تعالى:﴿**وَأَرْجُلَكُمْ**﴾[المائدة:6]اتفق كثير من أئمة النحاة على أن الجرّ بالمجاورة ضعيف،أو ضعيف جدًا.و"جاء في "المحتسب"لابن جني -ج 2 ص297- ما نصه: "إن الخفض بالجوار-أي: بالمجاورة- في غاية الشذوذ" بل جاء في كتاب "مجمع البيان" لعلوم القرآن"-ج 3، ص335 ما نصّه:"إنّ المحققين من النحويين نفوا أن يكون الإعراب بالمجاورة جائزًا في كلامهم .."ا. هـ، أي: في كلام العرب؛وعلى هذا لا يصح القياس عليه،ولا يستعمل إلا في المسموع "كما جاء في خزانة الأدب، للبغدادي، ج2 ص324".[628]

وقد أعرض الشنقيطي عن هذه الأقوال ،وأبطلها مستعينا بسياق لسان العرب ، حيث جعل " الخفض بالمجاورة أسلوبا من أساليب اللغة العربية، فمنه في النعت قول امرىء القيس:

كَأَنَّ ثَبِيرًا فِي عِرَانِينِ وَدْقِهِ كَبِيرُ أُنَاسٍ فِي بِجَادٍ مُزَمَّلِ

بخفض "مزمل" بالمجاورة، مع أنه نعت "كبير" المرفوع بأنه خبر "كأن"

وقول ذي الرمة:

تُرِيكَ سُنَّةَ وَجْهٍ غَيْرِ مُقْرِفَةٍ مَلْسَاءَ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلَا نَدَبُ

إذ الرواية بخفض "غير"، كما قاله غير واحد للمجاورة، مع أنّه نعت "سنّة" المنصوب بالمفعولية.

ومنه في العطف قول النابغة:

626أضواء البيان ،ج3، ص 466 - 467

627أضواء البيان ،ج7، ص 514

628عباس حسن ، النحو الوافي ، ج 3 ، ص 8

لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَسِيرٌ غَيْرُ مُنْفَلِتٍ وَمُوثَقٍ فِي حِبَالِ الْقَدِّ مَجْنُوبِ "[629]

وقد"أثبت الجمهور من البصريين والكوفيين الجر بالمجاورة...". [630] ومن أمثلة الخفض بالمجاورة في القرآن في النعت قوله تعالى: {عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ} ،بخفض "مُحِيطٍ" مع أنه نعت للعذاب. وقوله تعالى: {عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} ، ومما يدل أن النعت للعذاب، وقد خفض للمجاورة، كثرة ورود الألم في القرآن نعتاً للعذاب"[631]

المطلب الرابع:سياق لسان العرب وأثره في توجيه المسائل الصرفية.

استعان الشنقيطي باللسان العربي، في تقرير كثير من القضايا الصرفية، التي تناولها اللغويين

بالبحث والتمحيص والتدقيق ، فكان يحقّق في عديد من المسائل، ويختار ما رآه موافقا للغة العرب، مستشهدا على ذلك بأمثلة من كلام العرب.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾[التوبة:81]اختلف العلماءُ في كلمة "جهنّم " ، فقال بعضهم: هي اسم علم أعجمي، ليست عربيةً مشتقة، وليس لها معنى في العربية، وأُطلقت اسماً للنار. وقال آخرون: بل هي كلمةٌ عربيةٌ مشتقَّة، جذْرُها الثلاثي (جَهْمَ).وتبعا لاختلافهم في عربيّتها وأعجميّتها اختلفوا في ميزانها الصرفي ،وقد قدّم الشنقيطي الوجه الأوّل مستدلاً له بشواهد من شعر العرب "فذهب بعض علماء العربيّة إلى أنّ وزنه "فعنل" فالنون المضعّفة زائدة، وأصل المادة: الجيم والهاء والميم؛ من تجهّم إذا عبس وجهه؛ لأنّها تلقاهم بوجه متجهّم عابس، وتتجهّم وجوههم وتعبس فيها لما يلاقون من ألم العذاب.

ومنه قوله مسلم بن الوليد الأنصاري:

شَكَوْتُ إِلَيْهَا حُبَّهَا فَتَبَسَّمَتْ وَلَمْ أَرَ شَمْسًا قَبْلَهَا تَتَبَسَّمُ

فَقُلْتُ لَهَا جُودِي فَأَبْدَتْ تَجَهُّمًا لِـتَقْتُلَنِي يَا حُسْنَهَا إِذْ تَجَهَّمُ

وتقول العرب: جهمه إذا استقبله بوجه كريه مجتمع، ومنه قول عمرو بن الفضفاض الجهني:

وَلَا تَجَهَّمِينَا أُمَّ عَمْرٍو فَإِنَّمَا بِنَا دَاءُ ظَبْيٍ لَمْ تَخُنْهُ عَوَامِلُهُ

وقال بعض العلماء جهنّم فارسيّ معرّب، والأصل كهنام وهو بلسانهم: النّار، فعرّبته العرب وأبدلوا الكاف جيماً."[632]

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾[الأنعام:94]اختلفت كلمة أهل اللغة في بيانمفرد لفظ"فرادى" فقال بعضهم "جمع فريد ، كأسير وأسارى ". [633] وقيل فرادى جمع فردان ، مثل سكران وسكارى

629المرجع نفسه ،ج1، ص 331

630 بدر الدين المرادي ،توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية بن مالك ، ج 1 ، ص 246

631أضواء البيان ، ج 6 ، ص320

632أضواء البيان ،ج2، ص 146

633القاسمي ، محاسن التأويل ، ج4 ، ص 122

، وكسلان وكسالى" [634] وذهب أبو البقاء العكبري إلى أن :"فُرَادَى":هُوَ جَمْعُ فَرْدٍ ، وَالْأَلِفُ لِلتَّأْنِيثِ،مِثْلُ كُسَالَى. [635] إلا أنّ الفراء اعترض فقال:"والوَاحِدُ : فَرَدٌ " ،بالتحريك ،" وفَرِدٌ " ككَتِفٍ ،" وفَرِيد "، كأَمِيرٍ، "وفَرْدَانُ " كسَكْرَانَ ، "ولا يَجُوزُ فَرْدٌ في هذا المعنى ، أي بفتح فسكون" [636]وكان يونس الجرْميّ، فيما ذكر عنه، يقول: فُراد جمع فرد ، كما قيل: تُؤْم وتُؤَام للجميع. ومنه: الفُرَادى، والرُّدَافى والقُرَانى."[637]

وقد وافق الشنقيطي هؤلاء المتقدمين من أهل اللغة ، عاضدا رأيه بشاهد من شواهد كلام العرب ، حيث يرى "أنّ واحد الفرادى فرْد، ويقال فيه أيضاً: فرَد بالتحريك، ومنه قول نابغة ذبيان:

مِنْ وَحْشِ وَجَرَّةٍ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ طَاوِي الْمُصَيْرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الْفَرَدِ "[638]

ويُنْشَد بيتُ النابغة بفتح الرّاءِ ، وضمّها ، وكسرها مع فتح الفاءِ ، وبضمتين [639]

وقوله تعالى:{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ}[البقرة: 173] اختلف اللغويون في أصل لام كلمة "دم " هل هي ياء أو واو، فارتضى الجوهري "أنّ أصلها واو أي " : الدم أصله دَمَوٌ بالتحريك، وإنما قالوا دَمِيَ يَدْمَى لِحالِ الكسرة التي قبل الواو كما قالوا رَضِيَ يَرْضَى وهو من الرِّضوان." [640]ورأى ابن منظور أنّ أصلها ياء لأنّه " يقال في تصريفه: دَمِيَتْ يَدي تَدْمى دَمىً، فيظهرون في دَمِيَتْ وتَدْمى الياءَ والألفَ اللتين لم يَجِدُوهُما في دَمٍ "[641]

وقد رجّح الشنقيطي هذا القو لالأخير، داعما وجهة نظره بشواهد من كلام العرب ، حيث رأى أن " الدم أصله دمي، يائي اللام ،وهو من الأسماء التي حذفت العرب لامها ولم تعوّض عنها شيئا، وأعربتها على العين، ولامه ترجع عند التصغير، فتقول دمي بإدغام ياء التصغير في ياء لام الكلمة،وترجع أيضا في جمع التكسير، فالهمزة في الدماء مبدلة من الياء التي هي لام الكلمة، وربما ثبتت أيضا في التثنية، ومنه قول سُحيم الرياحي:

وَلَوْ أَنَّا عَلَى حَجَرٍ ذُبَحْنَا جَرَى الدَّمَيَانِ بِالْخَبَرِ الْيَقِينِ

وكذلك تثبت لامه في الماضي والمضارع، والوصف في حالة الاشتقاق منه فتقول: في الماضي دميت يده كرضي، ومنه قوله:

هل أنت إلا إصبع دُمِيت وفي سبيل الله ما لقيت"[642]

---

634 ابن عطية ، المحرر الوجيز،ج3 ، ص 1

635العكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، ج1 ، ص 521

636 الزبيدي ، تاج العروس ، ج8 ، ص 484

637الطبري ، جامع البيان ، ج8 ، ص 333

638 أضواء البيان ،ج1، ص 488

639 الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ،ج8 ، ص 483

640إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار الناشر: دار العلم للملايين الطبعة: الرابعة 1990

641 ابن منظور ، لسان العرب ، ج6 ، ص 322

642أضواء البيان ،ج1، ص 60

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾[الكهف:58] قرّر الإمام الشنقيطي أن "موئلا" اسم مكان وأيّد نظرته الصرفية هذه بسياق كلام العرب حيث أثبت أن "موئلا" فعله الماضي"وأل" ومضارعه "يئل"فيكون "موئلا" اسم مكان على وزن " مَفعِل " بفتح الميم وكسر العين فحيث كان الفعل صحيح الآخر ومضارعه مكسور العين "فهو اسم مكان، "ومعلوم في فنّ الصرف أنّ واوي الفاء من الثلاثي ينقاس مصدره الميمي واسم مكانه وزمانه، على المفعل بكسر العين كما هنا، ما لم يكن معتل اللام فالقياس فيه الفتح كالمولى. والعرب تقول: لا وألت نفسه، أي لا وجدت منجى تنجو به، ومنه قول الشاعر:

لَا وَأَلَتْ نَفْسُكَ خَلَّيْتَهَا لِلْعَامِرِيَّيْنِ وَلَمْ تُكْلَـــــمِ

وقال الأعشى:

وَقَدْ أُخَالِسُ رَبَّ الْبَيْتِ غَفْلَتَهُ وَقَدْ يُحَاذِرُ مِنِّي ثُمَّ مَا يَئِلُ

أي ما ينجو".[643]

وقوله تعالى:﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾[مريم:77]. قد أثار الإمام الشنقيطي مسألة لغويّة أثناء توجيهه لمعنى الآية "ولدا "فأبان أن الولد بفتح الواو واللاّم،وبضم الواو وإسكان اللاّم، كما قرئ به أيضًا يطلقان على المفرد تارة، وعلى الجمع أخرى، ،قرأ هذا الحرف حمزة والكسائي {وَوَلَدًا} بضم الواو الثانية وسكون اللام. وقرأه الباقون بفتح الواو واللام معاً، وهما لغتان معناهما واحد كالعَرَب والعُرْب، والعَدَم والعُدْم. ومن إطلاق العرب الوُلْد بضم الواو وسكون اللام كقراءة حمزة والكسائي قول الحارث بن حِلِزّة:

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَعَاشِرًا قَدْ ثَمَّــرُوا مَالًا وَوُلْـــدَا

وقول رؤبة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَزِيزِ فَرْدَا لَمْ يَتَّخِذْ مِنْ وُلْدِ شَيْءٍ وُلْدَا

وقد استنكر الشنقيطي ما ذهب إليه بعض أهل اللغة من جعلهم كلمة " الوُلد " جمع "وَلَد" فقال :" وزعم بعض علماء العربيّة: أن الوَلَد بفتح الواو واللام مفرد. وأن الوُلْد بضم الواو وسكون اللام جمع له. كأسد بالفتح يجمع على أُسْد بضم فسكون. وقد استظهر عدم صحة هذا الرأي فقال:".ومما يدلّ على أن «الوُلْد» بالضم ليس بجمع قول الشاعر:

فَلَيْتَ فُلَانًا كَانَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَلَيْتَ فُلَانًا كَانَ وُلْدَ حِمَار

لأن «الوُلْد» في هذا البيت بضم الواو وسكون اللام وهو مفرد قطعاً كما ترى."[644]

المطلب الخامس: سياق لسان العرب وأثره في دفع الإشكال .

قرّر الإمام الشنقيطي في تفسيره كثيرا من المسائل المختلف فيها بين المفسّرين ، سواء أكانت متعلقة بمسائل الاعتقاد ،أم بمسائل الأحكام، فكان يجنح فيها إلى

643أضواء البيان ،ج3، ص 317

644 المرجع نفسه ،ج3 ،ص 491

الاستدلال ، بشاهد من كلام العرب ،ينصر به المسألة التي يرجّحها ،فيدفع بها الإشكال الوارد على المعاني التي يثبتها ففي :

وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾[الإسراء: 1]قد فرّق أهل اللغة بين "الرؤيا" و"الرؤية": فخصوافخصّوا الأولى بما يراه الإنسان في النوم، والثانية بما يراه بحاسة البصر في اليقظة، فقالوا: رأى في المنام رؤيا حسنة، ورأى بعينه في اليقظة رؤية، الأولى بالبصيرة، والثانية بالبصر.قال أبو البقاء: "الرؤيا كالرؤية، غير أنّها مختصة بما يكون في النوم؛ فرقاً بينهما.. ورأى رؤيا: اختص بالمنام، ورؤية: بالعين"

وقد مال الشنقيطي إلى أنّ الرؤية الواردة في الآية هي رؤية يقظة "ويؤيّد ما ذكره من كونها رؤيا عين يقظة قوله تعالى هنا: {لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا}، وقوله {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى }[النجم: 17-18]، ثم عقّب على "ما زعمه بعض أهل العلم من أن الرؤيا لا تطلق بهذا اللفظ لغة إلا على رؤيا المنام، مردود. بل التحقيق: أن لفظ الرؤيا يطلق في لغة العرب على رؤية العين يقظة أيضاً؛ومنه قول الراعي وهو عربي قحّ:

فَكَبَّرَ لِلرُّؤْيَا وَهَشَّ فُؤَادُهُ وَبَشَّرَ نَفْسًا كَانَ قَبْلُ يَلُومُهَا

فإنه يعني رؤية صائد بعينه.

ومنه أيضاً قول أبي الطيب:

وَرُؤْيَاكَ أَحْلَى فِي الْعُيُونِ مِنَ الْغَمْضِ "[645]

وقد روى الإمام أحمد والبخاري وغيرهما عن ابن عباس في تفسير هذه الآية :هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به إلى بيت المقدس ، وليست برؤيا منام ، وفي لفظ : شيء أريه النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة ، رآه بعينه حين دُهب به إلى بيت المقدس. وليس أصرح من هذا نص ولا أقوى منه حجة ؛ لأن ابن عباس - وهو ترجمان القرآن - يفسر به الآية، ويرى أن الإسراء كان في اليقظة ، وينقل - وهو العربي القرشي الهاشمي الفصيح – أنكلمة الرؤيا تكون وهي لغة القرآن بمعنى الرؤية .

في قوله تعالى:﴿**ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً**﴾[الحج:5]قد تساءل الشنقيطي عن وجه الإفراد في قوله "طفلا " مع أنّ المعنى نخرجكم أطفالاً. فذكر للعلماء أجوبة وأبان عن عدم اتجاهها؛ منها ما ذكره ابن جرير الطّبري قال: ووحّد الطفل وهو صفة للجمع، لأنّه مصدر مثل "عدل وزور" وتبعه غيره في ذلك. ومنها قول من قال {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً} أي نخرج كل واحد منكم طفلاً"[646]

لكن الذي يؤيّده سياق لسان العرب ، وتكرر كثيرا في كلامهم ، هو ما استظهره الشنقيطي "من استقراء اللغة العربية التي نزل بها القرآن، هو أنّ من أساليبها أنّ المفرد إذا كان اسم جنس يكثر إطلاقه مراداً به الجمع مع تنكيره كما في هذه الآية،

645أضواء البيان ،ج3، ص 4

646تفسير الطبري ، جامع البيان ، ج6 ، ص 145

وتعريفه بالألف واللام، وبالإضافة ،ومن أمثلة ذلك مع التنكير في كلام العرب قول عقيل بن علفة المري:

وَكَـــانَ بَنُو فَزَارَةَ شَرَّ عَمٍّ وَكُنْتَ لَهُمْ كَشَرٍّ بَنِي الْأَخِينَا

يعني شرّ أعمام: وقول قعنب ابن أمّ صاحب:

مَا بَالُ قَوْمٍ صَدِيقٍ ثُمَّ لَيْسَ لَهُمْ دِينٌ وَلَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ إِذَا ائْتُمِنُوا

يعني ما بال قوم أصدقاء

وهذا الذي أطلقه المفسّر هو "من الأساليب العربية المعهودة ، أن الاسم المفرد إذا كان اسم جنس . يكثر إطلاقه على الجمع ، ومن ذلك قوله - تعالى - : { واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً } أى: أئمة ، وقوله - سبحانه - { فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً . . } أى : أنفسا[647]

وقوله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ**﴾[النحل:33]

من المعروف في علم العربيّة والذي قرّره أئمتها أنّ صيغة التفضيل تقتضي المشاركة بين المفضّل والمفضّل عليه فيما فيه التفضيل، إلّا أنّ المفضَّل أكثر فيه وأفضل من المفضَّل عليه، ومعلوم أنّ المفضَّل عليه في الآيات المذكورة الذي هو عذاب النار لا خير فيه البتّة، وعلى هذا فصيغة التفضيل فيها إشكال.

فأجاب الشنقيطي عن هذا الإشكال من وجهين :"لأول: أنّ صيغة التفضيل قد تُطلق في القرآن، وفي اللغة مراداً بها مطلق الاتصّاف، لا تفضيل شيء على شيء. الثاني :أنّ من أساليب اللغة العربيّة أنّهم إذا أرادوا تخصيص شيء بالفضيلة، دون غيره جاءوا بصيغة التفضيل، يريدون بها خُصوص ذلك الشيء بالفضل، كقول حسّان بن ثابت رضي الله عنه:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

وكقول العرب: الشّقاءأحبّ إليك، أم السعادة؟ وقوله تعالى: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ}[يوسف:33] الآية."[648]

وقوله تعالى:﴿**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً**﴾[مريم:62] استشكل الإمام الشنقيطي "وجه ذكر البكرة والعشي، مع أن الجنّة ضياء دائم ولا دليل فيها. فأجاب بأجوبة الأول: أنّ المراد بالبكرة والعشي قدر ذلك من الزمن، كقوله:{غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ}}[سبأ:12] ،أي قدر شهر.وروي معنى هذا عن ابن عباس، وابن جريج وغيرهما. الجواب الثاني: أنّ العرب كانت في زمنها ترى أنّ من وجد غداءً وعشاءً فذلك الناعم، فنزلت الآية مرغّبة لهم وإن كان في الجنة أكثر من ذلك. ويروى هذا عن قتادة، والحسن، ويحيى بن أبي كثير.الجواب الثالث: أنّ العرب تعبّر عن الدوام بالبكرة والعشي، والمساء والصباح، كما يقول الرجل:أنا عند فلان صباحاً ومساءً، وبكرة وعشياً. يريد الديمومة ولا يقصد الوقتين المعلومين.الجواب الرابع: أن تكون

647تفسير الوسيط ، ج4 ، ص 333

648أضواء البيان ،ج6، ص 30

البكرة هي الوقت الذي قبل اشتغالهم بلذاتهم. والعشي: هو الوقت الذي بعد فراغهم من لذاتهم، لأنه يتخللها فترات انتقال من حال إلى حال. وهذا يرجع معناه إلى الجواب الأول"[649]لقد وجه الشنقيطي الآية بعدة أجوبة مستقاة من سياق لسان العرب ،وذكرها جميعها ولم يرجح واحدا لأن مجموعها متفق في إيضاح دلالة الآية .

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[المؤمنون:85] في هذه القراءة التي هي قراءة الجمهور سؤال معروف: وهو أن يقال: ما وجه الإتيان بلام الجر، مع أن السؤال لا يستوجب الجوابها،لأن قول:{مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِالسَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [المؤمنون:86]

فأجاب الإمام الشنقيطي بأن "الظاهر أن يقال في جوابه: ربهما الله، وإذا يشكل وجه الإتيان بلام الجر. والجواب عن هذا السؤال معروف واضح، لأن قوله تعالى: {مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ} [المؤمنون: 86] وقوله:{مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ}[المؤمنون: 88] فيه معنى من هو مالك السموات والأرض، والعرش، وكل شيء فيحسن الجواب بأن يقال: لله: أي كل ذلك ملك لله، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر:

إِذَا قِيلَ مَنْ رَبُّ الْمَزَالِفِ وَالْقُرَى وَرَبُّ الْجِيَادِ الْجُرْدِ قُلْتُ لِخَالِدِ

لأنّ قوله: من رب المزالف فيه معنى من هو مالكها، فحسن الجواب باللام: أي هي لخالد"[650]

المطلب السادس: سياق لسان العرب وأثره في توجيه الأساليب التعبيرية.

إنّ اللغة التي ينبغي أن تعدّ مرجعا في تفسير القرآن الكريم واستنباط الأحكام منه، هي اللغة التي كانت متداولة في عصر التنزيل، دون الالتفات إلى اللغة الحادثة وما طرأ عليها في العصور التالية من تطور في دلالات الألفاظ، مما لا ينبغي تحكيمه في فهم القرآن الكريم،وبعيدا عن الرواسب الفكرية التي يحملها المفسّر فيسقطها على القرآن بما يخرج النص عن بلاغته وأصالته، ومعنى ذلك أن لغة التنزيل ترافق سياق التنزيل وتلازمها ولا تحيد عنها[651]

وقد اعتمد الشنقيطي على اللسان العربي كثيرا في إبراز معنى كلام الله وإيضاحه منها :

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[البقرة:53] اختلف المفسرون في المقصود من " الفرقان " فذهب الكسائي إلى أن الواو مقحمة ، أي زائدة ، وهو نعت للكتاب وضعّف قوله أبوحيان [652] وجعل الواو عاطفة ، لأجل هذا استظهر الشنقيطي: أنّ الفرقان هو الكتاب الذي أوتيه موسى، وإنما عطف على نفسه؛ تنزيلا لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات؛ لأنّ ذلك الكتاب الذي هو التوراة

649المرجع نفسه ،ج3، ص 470
650أضواء البيان ،ج5، ص 351
651عبد الرحمن بودرع ، منهج السياق في فهم النص ، ص 22
652أبو حيّان ، البحر المحيط ، ج1 ، ص257

موصوف بأمرين:أحدهما: أنّه مكتوب كتبه الله لنبيّه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.والثاني: أنّه فرقان أي فارق بين الحق والباطل، فعطف الفرقان على الكتاب، مع أنّه هو نفسه نظرا لتغاير الصفتين، كقول الشاعر:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهُمَامِ وَلَيْثِ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُزْدَحِمِ

بل ربما عطفت العرب الشيء على نفسه مع اختلاف اللفظ فقط، فاكتفوا بالمغايرة في اللفظ. كقول الشاعر:

إِنِّي لَأَعْظُمُ فِي صَدْرِ الْكَمِيِّ عَلَى مَا كَانَ فِيَّ مِنَ التَّجْدِيرِ وَالْقِصَرِ

القصر: هو التجدير بعينه"[653]

فالفرقان هو الكتاب بعينه، فتغايرا مفهوما واتحدا مصداقا، وهذا التغاير في المفهوم سوغ العطف .فهو تغاير في الصفات مع اتحاد الذات.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾[ص:75].استظهر المفسرون في قوله : ألاّ تسجد " أنّ لا زائدة تفيد التوكيد، والتحقيق كهي في قوله "لئلا يعلم" أي لأن يعلم وكأنه قيل ليتحقّق علم أهل الكتاب وما منعك أن تحقّق السجود وتلزمه نفسك إذ أمرتك ويدلّ على زيادتها قوله تعالى:{ما منعك أن تسجد} وسقوطها في هذا دليل على زيادتها في { ألا تسجد} [654]، وقد استند الشيخ الشنقيطي في تقرير هذا الوجه إلى سياق لسان العرب حيث أشار إلى ".أن زيادة لفظة "لا" لتوكيد الكلام وتقويته أسلوب من أساليب اللغة العربية، وهو في الكلام الذي فيه معنى الجحد أغلب مع أن ذلك مسموع في غيره. وأنشد الأصمعي لزيادة "لا" قول ساعدة الهذلي:

أَفْعَنْكَ لَا بَرْقٌ كَأَنَّ وَمِيضَهُ غَابٌ تَسَنَّمَهُ ضِرَامٌ مُثْقَبُ

ويروى "أفمنك" بدل "أفعنك" و"تشيمه" بدل "تسنمه" يعني أعنك برق بـ"لا" زائدة للتوكيد والكلام ليس فيه معنى الجحد. ونظيره قول الآخر:

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى فَاعْتَرَتْنِي صَبَابَةٌ وَكَادَ صَمِيمُ الْقَلْبِ لَا يَتَقَطَّعُ

يعني كاد يتقطع. وأنشد الجوهري لزيادة "لا" قول العجاج:

فِي بِئْرِ لَا حُورٍ سَرَى وَمَا شَعَرْ بِإِفْكِهِ حَتَّى رَأَى الصُّبْحَ جَشَرْ "

والحور الهلكة. يعني في بئر هلكة ولا زائدة للتوكيد. قاله أبو عبيدة وغيره."[655]

653أضواء البيان ،ج1، ص 37

654أبو حيّان ، البحر المحيط ، ج5 ، ص 325

655المرجع نفسه ،ج4، ص 90

المبحث الخامس

سياق الثقافة الأصولية وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

المبحث الخامس: سياق الثقافة الأصولية وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

تمهيد :

لقد حدّد المفسّر لنفسه هدفا عظيما في تفسيره: وهو بيان كتاب الله العزيز الحميد وتيسير معانيه، وبيان ما فيه من هداية للتي هي أقوم في الدنيا والدين وتقريب ذلك لأبناء الأمة حتى يستقيموا ويلتزموا به وقد سخّر كل العلوم والمعارف ومنها المسائل الأصولية،وقد ذكر في مقدمة تفسيره" [656] أنّه سيضمّنه ما يحتاج إليه من مسائل الأصول لخدمة ذلك الهدف العظيم وما يتعلق به ، وعلى هذا فإنّ غرضه هو بيان كتاب الله – تبارك وتعالى – وقد كان يذكر هذه المسائل للتحقيق والتدقيق ،وردّها إلى الأصلين العظيمين الكتاب والسنّة، ويُذكّرها كذلك لتقوية الدليل وقد ذكر مسائل أصولية متعلّقة بتفسير الآية ،في بعض المواضع التفسيرية .

لقد أبان الشيخ كلام الله جلّ وعلا ، ووجّه دلالته من خلال استناده إلى قواعد أصولية تداولها علماء أصول الفقه .

فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ**﴾[الواقعة: 73]أي أنّ النار متاع للمقوين:المنتفعين أو المسافرين وخص الله المسافرين لأن نفع المسافر بذلك أعظم من غيره"[657] أي منفعة للنازلين بالقَواء من الأرض، وهو الخلاء والفلاة التي ليس بها أحد، وهم المسافرون، لأنّهم ينتفعون بالنار انتفاعا عظيما في الاستدفاء بها والاستضاءة وإصلاح الزاد.[658] وقد قرر الشنقيطي أن " المقوين " ليس لها مفهوم حتى يخرج بهاغيرهم لما "تقرّر في الأصول أنّ من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون اللفظ واردا للامتنان. وبه تعلم أنّه لا يعتبر مفهوما للمُقوين، لأنّه جيء به للامتنان أي وهي متاع أيضا لغير المقوين من الحاضرين بالعمران،."[659]

وقالتعالى:﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾[البقرة:229]اختلف الأئمة في أنه: هل يجوز للرجل أن يفاديَ المرأة بأكثر مما أعطاها؟ فال جمع من الفقهاء على أنه "لا يزيد على ما أعطاها؛ لأن قوله: {فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ} عائد على ما سبق؛ لأنه قال: {وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ} أي: مما آتيتموهن فقط"[660]

أمّا الجمهور فذهبوا إلى جواز ذلك، لعموم قوله تعالى:{ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ} "[661] وبه أخذ الشنقيطي مستدلا بدلالة ألفاظ الأسماء الموصولة ، وهي أنها

656المرجع نفسه ، ج 1، ص 4

657 عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي ،تيسير الكريم الرحمن المحقق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر : مؤسسة الرسالة ،الطبعة : الأولى 1420هـ -2000 م، ص 835

658أضواء البيان ، ج7 ، ص 536

659أضواء البيان ،ج7 ،ص 536

660محمد بن صالح العثيمين ، الشرح الممتع على زاد المستقنع،ج5 ، ص 223

661ابن كثير ،تفسير القرآن العظيم ، ج 1 ، ص 320

موضوعة في اللغة وضعاً حقيقياً للدلالة على استغراق جميع أفراده ا،حيث رأى أنّ "ظاهر هذه الآية الكريمة أنّ الخُلع يجوز بأكثر من الصداق؛ وذلك لأنّه تعالى عبّر بما الموصولة في قوله:{فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ}، وقد تقرّر في الأصول أنّ الموصولات من صيغ العموم؛ لأنّها تعمّ كل ما تشمله صلاتها " [662]وما رجّحه هو الأليق بسياق النص؛ لأن دلالة الأسماء الموصولة على العموم هو الظاهر من اللسان العربي.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾[البقرة:282] اختلف المفسرون في حكم الإشهاد على البيع، فنقل ابن جرير الطبري أن "أولى الأقوال في ذلك بالصواب: أنّ الإشهاد على كل مَبيع ومُشترَي، حقٌّ واجبٌ وفرضٌ لازم" [663] إلا أنّ جمهور أهل العلم حملوه على الإرشاد والندب،لا على الوجوب"[664]

وإليه مال الإمام الشنقيطي مستندا في اختياره إلى سياق علم الأصول، مستعملا قاعدة حمل المطلق على المقيد، التي توصّل من خلالها إلى أنّ"أنّ الإشهاد والكتابة مندوب إليهما لا فرضان واجبان كما قاله ابن جرير وغيره، ولم يُبَيّن الله تعالى في هذه الآية أعني: قوله جل وعلا: {وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ}، اشتراط العدالة في الشهود، ولكنّه بيّنه في مواضع أخر كقوله:{مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ}[البقرة: 282]،وقوله:{وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ}[الطلاق:2].وقد تقرّر في الأصول أنّ المطلق يُحمل على المقيّ"[665]

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾[النساء:176]أراد بنتين فصاعداً وهو أن من مات وترك أختين أو أخوات فلهن الثلثان مما ترك الميت" [666] أشار الشنقيطي إلى هذا التفسير المعتمد عند عامّة المفسرين، وأورد قول ابن عباس، رضي الله عنهما، الذي خالف به النص القرآني متعقّبا قوله حيث " أنّه قال: للبنتين النصف؛ لأنّ الله تعالى، قال : {فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ}[النساء:176]. فصرّح بأنّ الثلثين إنّما هما لما فوق الاثنتين فيه أمور.الأول:أنّه مردود بمثله؛لأنّ اللهقال أيضا:{وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ}[النساء:11]، فصرّح بأنّ النصف للواحدة جاعلا كونها واحدة شرطا مُعلّقا عليه فرض النصف. وقد تقرّر في الأصول أنّ المفاهيم إذا تعارضت قدّم الأقوى منها، ومعلوم أنّ مفهوم الشرط أقوى من مفهوم الظرف.وبهذا تعلم أنّ مفهوم الشرط في قوله: {وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ} ، أقوى من مفهوم الـظرف فيقوله: {فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ} [667]

662أضواء البيان ،ج1 ، ص 143
663الطبري ،جامع البيان ، ج6 ، ص 84
664ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج 1 ، ص 272
665أضواء البيان ،ج1، ص 187- 188
666الخازن ،لباب التأويل في معاني التنزيل، ج2 ، ص 220
667أضواء البيان ،ج1 ،ص 226

وقوله تعالى :﴿وَلاَ تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البغآء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً ﴾[النور:11]إنّ ما أشارت إليه الآية الكريمة هو أنه" ليس المقصود منه أنّهن إن لم يردن التحصن يكرهنّ على ذلك ، وإنّما المراد منه بيان الواقع الذى نزلت من أجله الآية ، وهو إكرامهم لإمائهم على الزنا مع نفورهن منه . ولأنّ الإكراه لا يتصور عند رضاهن بالزنا واختيارهن له ، وإنما يتصور عند كراهتهن له، وعدم رضاهن عنه"[668]"

وقد أشار الشنقيطي إلى أن قوله " إن أردن تحصنا " لا مفهوم له لأنه " قد تقرّر في الأصول أنّ من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون المنطوق نازلا على حادثة واقعة، ولذا لم يعتبر مفهوم المخالفة في قوله: {إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً}، ولا في قوله:{لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران:28]؛ لأنّ كلاً منهما نزل على حادثة واقعة:فالأول: نزل في إكراه ابن أبي جواريه على الزنا، وهنّ يردن التحصن من ذلك.والثاني: نزل في قوم من الأنصار وَالْوْا اليهود من دون المؤمنين، فنزَل القرآن في كل منهما ناهيا عن الصّورة الواقعة من غير إرادة التخصيص بها"[669]

المطلب الثاني: سياق الثقافة الأصولية وأثره في إزالة الإشكال القرآني .

إنّ لعلم أصول أثرا بالغا في إزالة كثير من الإشكالات الواردة على كلام الله ،فهو يعتبر أداة من أدوات تحليل الخطاب التفسيري، ووسيلة من وسائل استنباط الأحكام الشرعية،وقد أفاد الشنقيطي كثيرا منه في كتابه هذا ؛ حيث أثقله بالمسائل الأصولية لتحقيق المسائل التي اختلفت فيها نظرة المفسرين ، فاعتمد عليها لتقرير معاني كلام الله وتوجيهه الوجهة الصائبة.

وقوله تعالى:﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الأحقاف:31].قد اتفق العلماء على أن الجنّ يحاسبون وكفارهم وعصاتهم معذّبون بالنار، كما قال تعالى: "ولكن حقّ القول منّي لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين"[السجدة: 13]، فهم يدخلون النار كالإنس، واختلف العلماء في دخولهم الجنة . لأجل هذا استشكل الشنقيطي آية الأحقاف التي" نصّ فيها على الغُفران، والإجَارة من العذاب، ولم يُتعرَّض فيها لدخول الجنة، بنفي ولا إثبات، وآية الرحمن نُصّ فيها على دخولهم الجنّة، لأنّه تعالى قال فيها: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} .فرجح أن مؤمنيهم من أهل الجنة وفنّد حجج المخالفين بقوله:"وبهذا يعلم أن ما ذهب إليه بعض العلماء، أنه يفهم من قوله ـ تعالى:{ياقومنآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ الله وَآمِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } أن المؤمنين من الجن لا يدخلون الجنة ، وأن جزاء إيمانهم، وإجابتهم داعى الله، هو الغفران وإجارتهم من

668 سيد طنطاوي ، الوسيط ،ج3 ، ص 307
669أضواء البيان ،ج1 ،264

العذاب الأليم فقط . هذا الفهم إنما هو خلاف التحقيق ، وأن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة "[670]

فدعم الشنقيطي إجابته السابقة بسياق علم الأصول ، من أنّه "قد تقرّر في الأصول أنّ الموصولات من صيغ العموم، فقوله: {وَلِمَنْ خَافَ}، يعمّ كل خائف مقام ربه، ثم صرّح بشمول ذلك الجنّ والإنس معا بقوله: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}فبيّن أنّ الوعد بالجنّتين لمن خاف مقام ربه من آلائه، أي نعمه على الإنس والجنّ، فلا تعارض بين الآيتين، لأنّ إحداهما بيّنت ما لم تعرض له الأخرى.ولو سلّمنا أنّ قوله: {يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}، يُفْهم منه عدم دخولهم الجنّة، فإنّه إنّما يدل عليه بالمفهوم، وقوله: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}يدلّ على دخولهم الجنّة بعموم المنطوق. والمنطوق مقدّم على المفهوم كما تقرّر في الأصول."[671]

فظهر بذلك أن الجن يثابون على أعمالهم, ويدخلون الجنة, ويصيبون من نعيمها، وذلك لأن ظواهر الآيات الواردة في جزاء الجن في الآخرة تقتضي ذلك. لأنها جاءت عامة في استحقاق المحسنين لجزاء أعمالهم، ولم يرد دليل يخصصها، فتبقى على عمومها .

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ** ﴾[الأنبياء:47]اختلف العلماء في الميزان هل هو واحد أو متعدد على قولين، وذلك لأنّ النصوص جاءت بالنسبة للميزان مرة بالإفراد، ومرة بالجمع، مثال الجمع قوله تعالى: {ونضع الموازين القسط}، وكذلك في قوله: {فمن ثقلت موازينه}، ومثال الإفراد قوله صلى الله عليه وسلم: "كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان".فقد نقل ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: الأكثر على أنّه إنّما هو ميزان واحد، وإنمّا جمع باعتبار تعددّ الأعمال الموزونة فيه "[672]
والشنقيطي رجّح أن الميزان متعدد استنادا إلى قرينة خارجيّة مستمّدة من علم الأصول وزاد سياق اللسان العربي " إذ ظاهر كلام الله جاء فيه ذكر "الميزان " على سبيل الجمع. لإثبات تعدّد الموازين لكل شخص، لقوله: {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ}، وقوله: {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ} فظاهر القرآن يدلّ على أنّ للعامل الواحد موازين يُوزَن بكلّ واحد منها صنفٌ من أعماله، والقاعدة المقرّرة في الأصول: أنّ ظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا بدليل يجب الرّجوع إليه"[673]

---

670 سيد طنطاوي ، تفسير الوسيط ،ج 1 ، ص 3876
671أضواء البيان ،ج7، ص 237
672 ابن كثير ،تفسير القرآن العظيم،ط.2. المحقق: سامي بن محمد السلامة، الناشر: دار طيبة; سنة النشر: 1420 – 1999،ج5، ص345
673أضواء البيان ،ج4، ص 159

المطلب الثالث: سياق الثقافة الأصولية وأثره في توجيه الحكم الفقهي.

لقدكانت عناية الشنقيطي بأصول الفقه كبيرة في تقرير الأحكام الفقهية ؛حيث أن هذا العلم يعتبر وسيلة من وسائل الوصول إلى الدلالة في بيان الحكم الشرعي وإيضاحه قد أفاد منه كثيرا في تفسيره حيث أنه :

مال الشنقيطي إلى أنه لا مفهوم مخالفة لقوله **تعالى :** ﴿**وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا**﴾[فاطر:12]، فلا يقال: يفهم من التقييد بكونه طرياً أن اليابس كالقديد مما في البحر لا يجوز أكله؛ بل يجوز أكل القديد مما في البحر بإجماع العلماء. وقد تقرّر في الأصول أنّ من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون النص مسوقاً للامتنان، فإنّه إنما قُيّد بالطري لأنه أحسن من غيره، فالامتنان به أتم."[674]

بل إن وصف اللحم بالطري هو امتنان من الله عز وجل على عباده، لإظهار فضله عليهم بتسخيره لهم ما طرى من لحم البحر.

وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ **[النور:27]**دلّت الآية " بظاهرها على أنّ دخول الإنسان بيت غيره بدون الاستئذان والسلام لا يجوز لأن قوله: {لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ}[النور: 27] الآية. نهي صريح، والنهي المتجرد عن القرائن يفيد التحريم على الأصح، كما تقرر في الأصول."[675]

إن ماقرره الشنقيطي في هذه الآية الكريمة من حرمة الدخول بدون استئذان قد استنبطه من قرينة أصولية وهي أن النهي المطلق يقتضي الحرمة مالم تكن هناك قرينة صارفة للفظ من الحرمة إلى الكراهة .

---

674 المرجع نفسه ،ج2، ص344

675المرجع نفسه ، ج5 ، ص 493

المبحث السادس

السياق العاطفي وأثره في توجيه الخطاب القرآني.

المبحث السادس: السياق العاطفي وأثره في توجيه الخطاب القرآني .

تمهيد:

ترد مفردات في الاستعمال اللغوي، يفرّق بين قوة معناها وضعفه، وبين شدته ونزوله،من خلال السياق الانفعالي الذي جاءت فيه ، وقد جاء النص القرآني مليئا بهذا النوع من السياقات، وخاصة في الحوار الذي يكون جاريا وواقعا بين الأنبياء وأقوامهم ،فتجد التعنت والشدة والغلظة والعنف المتمثل في مخاطبة الأنبياء بسيئ الألفاظ ومواجهتهم بقبيح الفعال وقد ظهر هذا جليا في استعمال الخطاب القرآني لألفاظ ذات نبر قوي ووقع شديد تبيّن شدة الصراع الذي تواجهه دعوة الأنبياء. فقد فسّر الشنقيطي آيات كثيرة منها :

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾[الحج:15] والمعنى: فليعقد رأس الحبل في خشبة السقف {ثُمَّ لْيَقْطَعْ} أي ليختنق بالحبل، فيشده في عنقه، ويتدلى مع الحبل المعلق في السقف حتى يموت، وقد أبان الشنقيطي سبب إطلاق القطع على الاختناق،" لأن الاختناق يقطع النفس بسبب حبس مجاريه، ولذا قيل للبهر وهو تتابع النفس: قطع، فلينظر إذا اختنق {هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ} أي هل يذهب فعله ذلك ما يغيظه من نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم، في الدنيا والآخرة." [676]والمراد بالاختناق هنا ما يفعله من اشتد غيظه وحسرته، أو طمع فيما لا يصل إليه، كقوله للحسود: مت كمداً، أو اختنق؛ فإنك لا تقدر على غير ذلك"[677]

إنّ جريان لفظ "القطع" في مثل هذا السياق القرآني أضفى عليها معنى آخر وهو شدة الغم والكراهيّة التي يجدها المعاند والمكابر ، فوجودها في هذا السياق أكسب التعبير القرآني ، إيحاء خاصاً، فضلاً عن معناهما الأساس "المعجمي"

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾[غافر:18]إنّ دلالة لفظ {الآزفة}القريبة يقال: أزف الشخوص إذا قرب وضاق وقته" [678] وقد وردت هذه اللفظة القرآنية في سياق التخويف والإنذار بقرب عذاب الله ، والعرب يستعملون التأنيث دلالة على المبالغة في النوع, حيث تتنزل هذه الجملة من التي قبلها منزلة البيان للإنذار الذي تضمنه قوله {هَذَا نَذِيرٌ}[لنجم: 56]."[679]

676أضواء البيان ،ج4 ،ص 287
677ابن جزي ، التسهيل لعلوم التنزيل ، ج 3، ص163
678 الألوسي ، روح المعاني ، ج18، ص68
679التحرير والتنوير ، ج27 ، ص 156

وقد أوضح الشنقيطي أنّ الاستعمال القرآني "عبّر عن القيامة بالآزفة لأجل أزوفها أي قربها، والعرب تقول: أزف الترحل بكسر الزاي: قرب وقته وحان وقوعه، ومنه قول نابغة ذبيان:

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا لَمَّا تَزَلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنْ قَدِ."[680]

أي أنّه سمّى ذلك اليوم يوم الآزفة ، أي يوم القرب من عذابه لمن ابتلي بالذنب العظيم ،لأنّه إذا قرب زمان عقوبته كان في أقصى غايات الخوف ، حتى قيل إنّ تلك الغموم والهموم أعظم في الإيحاش من عين تلك العقوبة"[681]

وقوله تعالى: ﴿**فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً** ﴾وأصل الضرب فى كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم ، بظاهر جسم آخر بشدة"[682] .فكلمة الضرب توحي هنا "بمعنى الوضع، كما يقال: ضرب عليه حجابا، ومنه قوله تعالى:{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ}[البقرة: 61]"[683] قال أبوحيّان في البحر في قوله: {فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ} عبّر بالضربليدلّ على قوة المباشرة واللصوق واللزوم، ومنه {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ}وضرب الجزية وضرب البعث."[684]

منهنا نج دإنمايحدد معن ىلفظة"ضرب"فيالآياتالقرآنيةهوالسياقفهوالقرينة التيتشخصالدلالة وتفرضقيمةواحدةبعينها علىاللفظة.

فنلحظأنمعنى "ضربنا"في النص القرآنيهناهوالنومفهيبمعنىأنامهمسبحانهبقدرته،وذلكبدلالةاستعمال"الأذن"التيتدلعلىأن هملميكونواليسمعواشيئاالأنهمنائمون .

وقوله تعالى : ﴿**ثَانِيَ عِطْفِهِ**﴾[الحج:9]وذلك عبارة عن التنكر والإعراض نحو لوى شدقه ونأى بجانبه"[685] ثَنْيَ العطفِ كنايةٌ عن التَّكبُّر"[686] . وأصل العطف الجانب، وعطفا الرجل: جانباه من لدن رأسه إلى وركيه، تقول العرب: ثنى فلان عنك عطفه: تعني أعرض عنك. وإنّما عبّر العلماء هنا بالعنق فقالوا: ثاني عطفه: لاوي عنقه: مع أنّ العطف يشمل العنق وغيرها، لأنّ أول ما يظهر فيه الصدود عنق الإنسان، يلويها، ويصرف وجهه عن الشيء بليها."[687]

680أضواء البيان ،ج،6 ،ص 380

681الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، التفسير الكبير. ط1. د.م: دار الكتب العلمية ، 1411هـ ، ج 13، 321

682التفسير الوسيط ، ج6 ، ص 69

683التحرير والتنوير ، ج15 ، ص 26

684أضواء البيان ،ج3،ص 208

685 الأصفهاني ، مفردات غريب القرآن ، ج1 ص 82

686 أبو السعود محمد بن محمد العمادي ،إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار النشر : دار إحياء التراث العربي. مدينة النشر : بيروت، ج4 ، ص 452

687أضواء البيان ،ج4، ص 280

وبهذانجدأنمقتضىالسياقالدلاليهوالذي أ ناط ل فظ"العطف"وحتّموجودهابالنص القرآني،أوجبكلهذاأنترد لفظة"العطف" هي الأليق والأنسب بمثل هذا المقام

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ** ﴾[إبراهيم:42]،وقد أوضح الشنقيطي أنّ " معنى شخوص الأبصار أنّها تبقى منفتحة لا تغمض من الهول وشدة الخوف."[688] وهذا قول الفراء"[689] وفي «البحر» شَخَص البَصَر أحَدّ النظر ولم يستقر مكانه[690] فأبصارهم لا تقرّ في أماكنها من هول ما ترى" [691] فدلالة الشخوص توحي بشدة خوفهم وهلعهم الشديد .

وقوله تعالى:﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾[الحج:5]أصل المادة التي منها ربت: الزيادة، والظاهر أنّ معنى الزيادة الحاصلة في الأرض: هي أنّ النبات لما كان نابتاً فيها متصلاً بها صار كأنّه زيادة حصلت في نفس الأرض. وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة: والاهتزاز: الحركة على سرور، فلا يكاد يقال: اهتز فلان لكيت وكيت، إلاّ إذا كان الأمر من المحاسن والمنافع ـ "[692]

والاهتزاز أصله: شدة الحركة: ومنه قوله:
تَثني إذا قامتْ وتهتزُّ إن مشت كما اهتّز غصْنُ البانِ في وَرَقٍ خُضْرْ"[693]
وقوله تعالى:﴿**وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** ﴾**[الأحزاب: 10]**يقال زاغ البصر يزيغ زيغا وزَيَغانا إذا مال وانحرف . ويقال ـ أيضا : زاغ البصر ، إذا ملّ وتعب بسبب استدامة شخوصه من شدة الهول ." [694] وقد أشار الشنقيطي إلى أنّ "الدوران والزيغوغة المذكوران يُعلم بهما معنى تقلب الأبصار، وإن كانا مذكورين في الخوف من المكروه في الدنيا."[695]

إن التعبير القرآني قد استعملهذا التركيب ليصور لنا"أثر الموقف في النّفوس :{وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر} وهو تعبير مصور لحالة الخوف والكربة والضيق،يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب {وتظنون بالله الظنونا}ولا يفصل

688المرجع نفسه ،ج2، ص249
689أبو إسحاق أحمد المعروف بالإمام الثعلبي، الكشف والبيان ، تحقيق ابن عاشور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى 2002، ج5 ،ص 324
690 محمود الآلوسي ، روح المعاني : روح المعاني في تفسر القرآن ، دار الفكر ، بيروت، طبعة 1997م ، تحقيق محمد حسين عرب، ج9 ص 404
691 الزمخشري، محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. بيروت: دار المعرفة1391هـ،ج3، ص 291
692الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، التفسير الكبير. ط1. د.م: دار الكتب العلمية، 1411هـ ،ج23 ،ص 9
693أضواء البيان ،ج4، ص 279
694تفسير الوسيط ، ج4 ، ص 102
695المرجع نفسه ، ج 5 ، ص 549

هذه الظنون . ويدعها مجملة ترسم حالة الاضطراب في المشاعر والخوالج، وذهابها كل مذهب،واختلاف التصورات في شتى القلوب".[696]

إن هذا التركيب من خلال السياق الذي وردت فيه الجملة،قد أكسب التعبير القرآني هنا تصويرا رائعا يمثل حالة نفسية قوية.

وقوله تعالى فيهذه الآية الكريمة: ﴿**كَاظِمِينَ**﴾معناه مكروبين ممتلئين خوفاً وغماً وحزناً. والكظم: تردد الخوف والغيظ والحزن في القلب حتى يمتلئ منه، ويضيق به. والعرب تقول: كظمت السقاء إذا ملأته ماء، وشددته عليه.وقول بعضهم {كَاظِمِينَ} ، أي ساكتين، لا ينافي ما ذكرنا، لأن الخوف والغم الذي ملأ قلوبهم يمنعهم من الكلام، فلا يقدرون عليه،ومن إطلاق الكظم على السكوت" [697] فالغيظ انفعال بشري تصاحبه أو تلاحقه فورة في الدم;فهو إحدى دفعات التكوين البشري وإحدى ضروراته "[698]

وقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾[الصف: 3-4]لقد ذمّ الله أناسا يقولون مالا يفعلون، حتى بلغ الذم منتهاه إلى أن جعل عملهم من أسباب المقت لديه ،وجاء التعبير القرآني بهذا الاستعمال حتى يبين شناعة جرمهم ، فالمقت لأجل أنهم يقولون مالا يفعلون"واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه ،ومنه نكاح المقت لتزوج الرجل امرأة أبيه "[699]والمقت في لغة العرب: البغض الشديد، فقول الإنسان ما لا يفعل، كما ذكر عن الشعر يبغضه اللَّه، وإن كان قوله ما لا يفعل فيه تفاوت."[700]

وقوله تعالى:﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[لقمان:18]نهى الله عباده عن التكبر والإعجاب بالنفس، وهو أن يمشي مشية المتكبر المختال ، حيث أطلق الخطاب القرآني على هذه الحال "المرح" وهو شدة الفرح والتوسع فيه مع الخيلاء والتعالي على الناس" [701] ولقدأشار الشنقيطي إلى أن "أصل المرح في اللغة: شدة الفرح والنشاط، وإطلاقه على مشي الإنسان متبختراً مشي المتكبرين، لأن ذلك من لوازم شدة الفرح والنشاط عادة."[702]

وقوله تعالى: ﴿{إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ ﴾**[الإسراء:63]**إنّ هذا التعبير القرآني بلفظ "الخرق " يوحي بمعنى قوي شديد، وجّه إلى عموم المتكبرين بأن كبرهم هذا لن يصل إلى أن يحدث خرقا في الأرض ، فما عليكم إلا أن تتواضعوا. أظهر القولين عند الشنقيطي :"أن معناه لن تجعل فيهاخرقاً بدوسك لها وشدة وطئك عليها،ويدل

---

696 سيد قطب إبراهيم ،في ظلال القرآن ،دارالنشر : دار الشروق ـ القاهرة ، ج6، ص 55
697أضواء البيان ،ج6، ص381
698 سيد قطب إبراهيم ،في ظلال القرآن ،دارالنشر : دار الشروق ـ القاهرة ج1، ص 447
699الألوسي ، روح المعاني ، ج 20، ص 480
700أضواء البيان ،ج6 ، ص 107
701 سيد طنطاوي ، تفسير الوسيط ، ج8 ، ص 255
702أضواء البيان ،ج5 ، ص 99

لهذا المعنى قوله بعده{وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً}أي: أنت أيها المتكبر المختال: ضعيف حقير عاجز محصور بين جمادين أنت عاجز عن التأثير فيهما."[703]

وقولهتعالى:﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَوَاهْجُرْنِي مَلِيّاً قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بي حَفِيّاً ﴾[الأنبياء:63]واجه والد إبراهيم ا بنه عليه السلام بعنف وشدة ،حيث توعده بالرجـم بالحجارة وذاك ما تـوحي به كلمـة "لأرجمنك "ثم هدده .بأنه إن لم ينته عما يقوله: له ليرجمنه - قيل بالحجارة وقيل: باللسان شتماً- والأول أظهر. ثم أمره بهجره ملياً، أي: زماناً طويلاً"[704]

لكنّ الابن البار واجه الوالد بهدوء وشفقة؛ متمثلة في قوله" سَلامٌ عَلَيْكَ أي لاينالك مني أذى ولا مكروه ، بل ستسلم مني فلا أوذيك"[705]

وقوله تعالى : ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيفِي فَلا تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ﴾[الحجر:63]

خاطب لوط عليه السلام قومه بهذا الخطاب المعتدل المتزن،بأن يكفوا عن عدم فضحهحيث نهاهم عن الفضيحة أمام ضيوفه, وأن لا يخزوه بأفعالهم المقيتة قال ابـنُ الأنباري : الخِزْي -في اللغة- الهلاك بتلف أو انقطاع حجة ، أو وقوع في بلاء ، وكل هذه الوجوه متقاربة" [706] وقد نقل الإمام الشنقيطي معنيين لقوله: {وَلا تُخْزُونِ}أوّلهما" أي: لا تهينون ولا تذلون بانتهاك حرمة ضيفي، والاسم منه: الخزي ، بكسر الخاء وإسكان الزاي، ومنه قول حسّان في عتبة بن أبي وقاص:

فأخزاك ربّي يا عتيب بن مالك ولقّاك قبل الموت إحدى الصواعق

والثاني ما قاله بعض العلماء قوله: {وَلا تُخْزُونِ} من الخزاية، وهي الخجل والاستحياء من الفضيحة؛ أي لا تفعلوا بضيفي ما يكون سبباً في خجلي واستحيائي"[707] لأنّ مضيّف الضيف يلزمه الخجالة من كل فعل قبيح يوصل إلى الضيف"[708]

وقد جاء الاستعمال القرآني بهذا التركيب بدلا من الإهانة لأنّ معنى الخزي : العيب الذي تظهر فضيحته ويستحيا من مثله، إضافة إلى أنّه ذلّ مع افتضاح .

703أضواء البيان ،ج3، ص156
704المرجع نفسه ، ج3 ص 427
705المرجع نفسه ،ج3 ، ص ،427
706 ابن عادل الحنبلي ، اللباب في علوم الكتاب ، ج4 ، ص 485
707أضواء البيان ، ج2 ، ص 188
708الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج8 ، ص 447

الخاتمة

الخاتمة :

استهدف البحث توضيح أهميّة السياق وأثره في توجيه الخطاب القرآني وقد انتهى البحث إلى تسجيل عدد من النتائج منها:

1 - يُمكن أن تُسهمَ المناهج اللّسانية الحديثة في فهم نصوص القرآن الكريم فهما متكاملاً يؤدّي إلى وضع النّصّ القرآني في إطاره العامّ الذي نزل به أوّل مرّة.

2 - يمكن أن تقدّم اللسانيّات منهجاً في الفهم المتكامل هو المنهج السياقيّ في مستوياته اللغويّة المتعدّدة النحويّة والصرفيّة والمعجميّة والبلاغيّة، التي تُرشد في فهم مراد المتكلّم ومقاصده العليا بقرائن نصيّة لفظيّة ومعنويّة.ويضاف إلى السياق اللغوي الدّاخلي سياق آخَر هو سياق الحال أو المقام أو ما يتّصل به من عناصر الحال والزمان والمكان والمتكلم والمخاطب.

3 -إنَّ السياق هو ما يعرف الآن بالسياق اللغوي الذي يمثله الكلام في موضع النظر أو التحليل، ويشمل ما يسبق أو ما يلحق به من كلام .

4 -إن التركيب اللغوي يشتمل على مجموعة من العلاقات، فلكل كلمة علاقة بما قبلهاوبما بعدها، تلك التي عرفت في علم البلاغة بعلاقات الإسناد، والتي عبر عنهاعبد القاهر بقوله: "لكل كلمة مع صاحبتها مقال."

5 - الدلالة السياقية وهي دلالة فوق الدلالات الصرفية والنحوية والصوتية والمعجمية، وهي دلالة تكتسبهاالكلمة من السياق المقالي؛ بسبب وقوعها موقعًا خاصًّا في الجملة، وعلاقتها بالألفاظالأخرى فيها، كما تكتسب الكلمة أيضًا دلالتَها من السياق المقاميّ، وهي الظروف غيرُاللغوية المحيطة بالكلام.

6 - تُعدُ القرينة اللفظية السياقية من أقوى القرائن الدلالية ؛ لأن لها دوراً كبيراً في بيان الدلالة وتحديدها في التعبير القرآني.

7 - إنه لا فائدة من دراسة اللغة دراسة شكلية بعيدة عن السياق الاجتماعي والثقافي، بل لا بد من اتحاد الاثنين، لا قيمة للمفردات أو العبارات بعيدة عن سياقها، فلا بد من دراسة المفردات والعبارات التي يوجهها المتكلم داخل السياق، ومن خلال الظروف المحيطة به، ومن خلال زمان ومكان التخاطب، لكي تتضح مقاصد المتكلم والمعاني المطلوب إيصالها للمخاطب والتي يرمي إليها المتكلم.

8 - يظهر أثرالسياق النحوي جليّا في بيان الدلالة النحوية،والسياق النحوي والدلالة النحوية هما عنصران يتفاعلان في الجمل والتراكيب لبيان وتوضيح ما فيها من دلالات وظيفية،وقد اصطلح بعض المحدثين على هذا التفاعل النحوي والدلالي بالمعنى النحوي الدلالي للجملة فالسياق النحوي يمثل شبكة من العلاقات النحوية تقوم كل علاقة فيها عند وضوحها على إضاءة المعنى،وقد يعول وضوح المعنى أو إنتاج الدلالة على التآخي والتضافر بين قرائن متعددة تلك هي قرائن السياق النحوي.

9 - أهمية سياق الحال في فهم الجملة في التراث النحويإنَّ السياق هو الظروف

والمواقف والأحداث التي ورد فيها النص أو نزل أو قيل بشأنها ، وأوضح ما عُبر به عن هذا المفهوم لفظ الحال أو المقام.

10 - إذا كانت اللغة تمثل ظاهرة اجتماعية تداولية على ألسن الأفراد،فلابد لهامن أن تتأثر بالناحية العاطفية أو النفسية لهم،ذلك لوثاقة الارتباط بين النفس البشرية واللغة اللسانية التي تعبر عنها،ومن هنا كانت لكيفية اختيار بعض الألفاظ دون غيرها بما يقضيه السياق النفسي لها أثر في توجيه الدلالة إلى مسارها الإثاري للمتلقي،وتكون بذلك دلالة الألفاظ المنتقاة في السياق من مقتضيات النفس.

قائمة المصادر و المراجع.

قائمة المصادر والمراجع:

1 - القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
2-أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي،البحر المحيط. ط 3. د.م. دار المعرفة، بيروت: 1393هـ
3-أبو بكر الباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ، تحقيق : عماد الدين أحمد حيدر الناشر : مؤسسة الكتب الثقافية – بيروتالطبعة الأولى ، 1987
4-أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، التبيان في إعراب القرآن ،تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل بيروت ط 2 1407هـ
5-أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ،المعاني الكبير في أبيات المعاني،المحقق: المستشرق د سالم الكرنكوي،عبد الرحمن بن يحيى بن علي اليماني الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن بالهند ،الطبعة الأولى 1368هـ، 1949م .
6أبو محمد زهرة: زهرة التفاسير ، الناشر: دار الفكر العربي .ط 2, 1999
7- أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، سنة الطبع 2004 الطبعة الأولى.
8-أبو زيد نصر حامد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي،بيروت، ط. 4، 1998.
9-أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر الفارسي سيبويه ،الكتاب لسيبويه،تحقيق : عبدالسلام هارون،الناشر : دار الجيل - مصورة عن الطبعة القديمة.
10-د،أسامة عبد العزيز جاب الله، السياق في الدراسات البلاغية والأصولية دراسة تحليلية في ضوء نظرية السياق .
11-أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري ،شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ،سنة النشر 1383 مكان النشر القاهرة .
12-إبراهيم بن عمر البقاعي ،نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبدالرزاق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 1995م .
13- ابن القيم ، التفسير القيم لابن القيم ، جمعه : محمد أويس الندوي - حققه محمد حامد الفقي.
14-ابن قيم الجوزية ، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعينالمحقق: محمد المعتصمبالله البغداديالناشر: دار الكتاب العربي – بيروتالطبعة: الثالثة، 1416 هـ 1996
15- ابن منظور ، لسان العرب ، ط 1 بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، 1408 هـ 1988
16ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، ط. 2. المحقق: سامي بن محمد السلامة; الناشر: دار طيبة; سنة النشر: 1420 – 1999.

17– ابن عطيّة، عبد الحق بن غالب. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ط 1. الدوحة:د.ن .
18-إسماعيل بن حماد الجوهري الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار الناشر: دار العلم للملايين الطبعة: الرابعة 1990.
19-إحسان الأمين ،منهج النقد في التفسير ط1، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع بيروت .
20- الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، الجزء الأول، في التعريف بالقرآن، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، سبتمبر 2006م .
21-الحسين بن محمد - المعروف بالراغب الأصفهاني ، مفردات غريب القرآن ،دار المعرفة،تحقيق محمد سعيد كيلاني - دار المعارف – بيروت .
22-الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، التفسير الكبير. ط 1. د.م: دار الكتب العلمية، 1411هـ .
23الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. بيروت: دار المعرفة1391هـ .
24الزركشي، بدر الدين،البرهان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط21. بيروت: دار المعرفة، 1391هـ ..
25– السمين الحلبي ، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، المحقق: أحمد محمد خراط .ط 4 , 2002
26-الشنقيطي محمد الأمين بن محمد بن المختار الجك زي ،أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. دار الفكر. سنة النشر: 1415هـ
27- الفراء، معاني القرآن ،الناشر : دار عالم الكتب ،الطبعة : الثالثة سنة 1403 هـ - 1983م
28- المثني عبد الفتاح محمود محمود ، الرسالة: السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي ، جامعة اليرموك ،2005 رسالةماجستير .
29-بالمر،علم الدلالة ، ترجمة مجيد الماشطة. الجهة الناشرة: الجامعة المستنصرية (العراق- بغداد). المطبعة: مطبعة العمال المركزية .
30-بدر الدين المرادي ،توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية بن مالك ، المحقق: عبد الرحمن علي سليمان ، دار الفكر العربي – القاهرة 2001م.
31- تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ، دار الثقافة، ط1981م.
32-تمام حسان ، مناهج البحث في اللغة ، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية; سنة النشر: 1990 .
33- تمام حسان ،البيان في روائع القرآن ، دار النشر: عالم الكتب . سنة الطبع: الطبعة الأولى (1413هـ - 1993م .
34- جمال البنا ،إستراتجية الدعوة الإسلامية في القرن 21، دار الفكر القاهرة مصر ،ط 2000.

35-جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ،طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصح ف الشريف تحقيق مركز الدراسات القرآنية، 1426.هـ
36-جلال الدين السيوطي ،معترك الأقران في إعجاز القرآن/ السيوطي/ دار الكتب بيروت ط1 1988م.
37– جلال الدين السيوطي،أسباب النزول ، دار الفضيلة، القاهرة 2005 .
38-جون لاينز ، اللغة والمعنى والسياق ، المترجـــم: د. عباس صادق الوهاب مراجعـــة: د. يوئيل عزيز دار النشـــر: دار الشؤون الثقافية النشر بغداد ،1987.
39- حيدر جبار عيدان ، السياق القرآني وأثره في الكشف على المعنى ، أطروحة دكتوراة .
40 ـ خالد بن عبد الرحمن العك ،أصول التفسير وقواعده. دار النفائس، بيروت ط: الثانية 1406هـ .
41- دي سويسرفرديناند، دروس في الألسنية العامة، تعريب صالح القرمادي، محمد الشاوش،محمد عجينة، الدار العربية للكتاب، سنة 1985.
42-محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، بمرتضى الزّبيدي،تاج العروس من جواهر القاموس ، الناشر: دار الفكر – بيروتالطبعة: الأولى /1414 هـ
43-محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ،شرح مراقي السعود المسمى نثر الورود ،ط. المجمع:; المحقق: علي بن محمد العمران .
44-محمد المجذوب ،علماء ومفكرون عرفتهم; الناشر: دار الشواف; الطبعة: 4
45-محمد خطابي ،لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، ط(2) المركز الثقافي الغربي ، المغرب ، 2006 .
46- محمد عبد الباسط عيد ،النص والخطاب ، قراءة في علوم القرآن ، مكتبة الآداب، ط1 القاهرة 2009 .
47-محمد بن صالح العثيمين ،الشرح الممتع شرح زاد المستقنع ، دار بن الجوزي ط2000.
48- محمد سالم صالح ،النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية .
49محمد حماسة ،النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي ... بين النظرية والتطبيق ، دار قباء للنشر القاهرة2000.
50محمد حسين الذهبي،التفسير والمفسرون ، الناشر :مكتبة وهبة، الطبعة :7، سنة 2000
51- محمديونس علي، وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية ، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا 1993.
52-محمود السعران،علم اللغة،الناشر: دار الفكر العربي ،طبعة 2 - القاهرة 1997
53محمد الطاهر بن عاشور ،التحرير والتنوير ، الناشر: الدار التونسية للنشر ، سنة 1984
54-محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري، حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ،ط2، دار المنهاج في جدة، 1426هـ-2005.

55-محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر ، بيروت – لبنان، 1993.
56-محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر: عيسى البابي الحلبي ،سنة النشر: 1376 – 1957.
57-محمد سيد طنطاوي ،التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الطبعة الثالثة 1407 هـ 1978
58-محمد عبد اللطيف بن الخطيب ، أوضح التفاسير، الناشر: المطبعة المصرية ومكتبتها ، سنة النشر: 1383 - 1964 ،ط:6
59ـ محمود شكري الآلوسي،روح المعاني في تفسر القرآن العظيم والسبع المثاني ، دار الفكر،بيروت–لبنان ، طبعة 1997م ، تحقيق محمد حسين عرب
60محمود سليمان ياقوت، ظاهرة التحويل في الصيغ الصّرفية، الإسكندرية، 1986،
61محي الدين الدرويش ، إعراب القرآن وبيانه ، الناشر: اليمامة - دار ابن كثير - دار الإرشادسنة النشر: 1412 – 1992
62- مكي بن أبي طالب القيسي ،الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها - تحقيق الدكتور محيي الدين رمضان - طبع دمشق 1394 هـ - 1974 م
63-منقور عبد الجليل،علم الدلالـة أصوله ومباحثه في التراث العربي - دراسة - من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق2001
64عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، مدراك التنزيل وحقائق التأويل ،تحقيق الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ،1995.
65د.عبد الرحمن السديس،منهج الشيخ الشنقيطي في تفسير آيات الأحكام ، رسالة ماجستير.
66-عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي ،تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ،المحقق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر : مؤسسة الرسالة ،الطبعة الأولى 1420هـ -2000 م
69عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد الثعالبي المكي،الجواهر الحسان في تفسير القرآن المحقق: علي معوض - عادل عبد الموجود الناشر: دار إحياء التراث العربي سنة النشر: 1418 – 1997.
70-عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، زاد المسير، دار الكتب العلمية ، بيروت–لبنان،الطبعة الأولى 1994م ، تحقيق أحمد شمس الدين.
71-عبد الرحمن بودرع،منهج السياق في فهم النص ، سلسلة كتاب الأمة، العدد (111)نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر، السنة السادسة والعشرون.
72 ــ عبد الرحمن الميداني ،البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها , دار الفكر ، سوريا ، ط3 ، 2001
73-عبد المنعم خليل ،نظرية السياق بين القدماء والمحدثين ، مصر ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر و التوزيع, 2007.
74-عبداللهبن عمر البيضاوي ،أنوار التنزيل ، ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى 1999م.

75عبد الواحد حسن الشيخ ، التنافر الصوتي والظواهر السياقية، مصر- مكتبة الإشعاع -1999م - ط1.
76-عدنان بن محمد بن عبدالله آل شلش،العلامة الشنقيطي مفسراً: دراسة منهجية على تفسيره المسمى "أضواءالبيان في إيضاح القرآن بالقرآن "دار النفائس بالأردن ، الطبعة الأولى 1425هـ
77-عطية سالم ،تتمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، سنة النشر: 1400 – 1980.
78عمر بن علي بن عادل الحنبلي ، اللباب في علوم الكتاب ، دار الكتب العلمية ، بيروت–لبنان ، الطبعة الأولى 1998م ، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض
79علي بن محمد الماوردي، النكت والعيون ، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبدالرحيم ، دار الكتب العلمية ومؤسسة الكتب الثقافيةِ ، بيروت – لبنان
80- فاتح زيوان ،مصطلح الخطاب والنص ، الدلالة في الثقافة العربية ، مجلة كتابات معاصرة ، ع 70 م 18 بيروت 2008
81-فريد عوض حيدر ، سياق الحال في الدرس الدلالي "تحليل وتطبيق" ، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة 1998
82-سامي عياد حنا، كريم زكي حسام الدين، نجيب جريس، معجم اللسانيات الحديثة ، معجم اللسانيات الحديثة، انجليزي-عربي- مكتبة لبنان للنشر
83سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ، (الزمن ، السرد ، التبئير) ط (2) المركز الثقافي العربي 1993 مم (1) دار الفكر العربي ، القاهرة 1973 م
84-صالح آل الشيخ ،التمهيد لشرح كتاب التوحيد الطبعة : الأولى الناشر: دار التوحيد تاريخ النشر : 1424هـ
نادية النجار،اللغة العربية وأنظمتها بين القدماء والمحدثين،الناشر دار الوفاء،الإسكندرية،ط 2004
نسيمعون،الألسنية محاضرات في علم الدلالة،دار الفارابي – بيروت،ط الأولى 2005م.
85-نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ،غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1416 هـ - 1996.
86د . يوسف نور عوض : علم النص ونظرية الترجمة ، ط (1) دار الثقة للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة 1410 هـ .

المجلات والدوريات :

ـ مجلة لغة العرب العراقية .الإصدار الخامس . 2005
ـ خليل بو لفعة ،الأدوات النظرية في تحليل الخطاب ، مجلة أقلام الثقافية.
ـ سمير الخليل ، السياق اللغوي والسياق الأسلوبي ، من منشورات جريدة الصباح العراقية.2001
ـ مسعود صحراوي،المنحى الوظيفي في التراث اللغوي العربي، (مقالة)، نشرت في: مجلة الدراسات اللغوية، إصدار: مركز الملك فيصل للبحوث مركز الملك 63فيصل

للبحوث والدراسات والإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، المجلد الخامس/ العدد الأول.

الفهرس

الفهرس

المقدمة .....أ ،ب ، ت
تمهيد: ترجمة الشيخ الشنقيطي 8
المبحث الأول : نسبه ، ولادته، نشأته ..... 8 - 14
المبحث الثاني : في التعريف بأضواء البيان وطريقة مؤلفه فيه.....14-17
الفصل الأول : السياق و الخطاب القرآني 18
المبحث الأول: السياق بين الدراسات العربية القديمة و الدراسات اللغوية الحديثة..19
المطلب الأول : مفهوم السياق لغة 21
المطلب الثاني : مفهوم السياق اصطلاحا 22
المطلب الثالث :السياق في الدراسات العربيّة القديمة..... 24
السِّياق عند النحويّين..... 24
السياق عند البلاغيين..... 26
السِّياق عند المفسِّرين..... 28
المطلب الرابع :السياق في الدراسات اللغويّة الحديثة.....29-34
النظرية السياقية..... 34
أنواع السياق..... 38- 44
معايير السياق اللغوي:..... 45
السياق غير اللغوي..... 46
عناصر السياق..... 48
أهمية السياق..... 49
المبحث الثاني:مفهوم الخطاب القرآني..... 50
المطلب الأول : مفهوم الخطاب 51
أ - الخطاب عند العرب 51
ب - الخطاب عند الغربيين..... 51
المطلب الثاني : بين الخطاب والنص..... 53
المطلب الثالث : عناصر الخطاب..... 54
المطلب الرابع :اللسانيات وتحليل الخطاب القرآني..... 55
المطلب الخامس :السياق وأثره في تحليل الخطاب القرآني..... 56
المطلب السادس : القراءة الداخلية للخطاب القرآني..... 58
الفصل الثاني : السياق اللغوي وأثره في توجيه الخطاب القرآني.....60
المبحث الأول :سياق النص القرآني وأثره في توجيه الخطاب القرآني.....61
المطلب الأول : سياق النص وأثره في التنوع الدلالي.....64- 74
المطلب الثاني: سياق النص وأثره في الترجيح الدلالي.....74- 80
المطلب الثالث :سياق المقطع وأثره في الترجيح بين أقوال المفسرين..... 80
المطلب الرابع:سياق النص الجزئي وأثره في تضعيف الأقوال 85
المبحث الثاني :السياق وأثره في توجيه الإفراد والتثنية والجمع.....97-102

المبحث الثالث: السياق وأثره في التذكير والتأنيث 104- 110
المبحث الرابع :سياق النص وأثره في توجيه مرجع الضمير.....112-122
المبحث الخامس :السياق النحوي وأثره في توجيه الخطاب القرآني..... 124
المطلب الأول :السياق النحوي وأثره في التوجيه الإعرابي.....125- 132
المطلب الثاني :السياق النحوي وأثره في إزالة الإشكال القرآني 132-136
المطلب الثالث :السياق النحوي وأثره في تضعيف الأوجه الإعرابية..... 137
المطلب الرابع :السياق النحوي وأثره في بيان الحذف والذكر.....141- 145
المبحث السادس : السياق الصوتي وأثره في توجيه الخطاب القرآني 147
المطلب الأول:السياق الصوتي وأثره في توجيه الدلالة 147- 152
المطلب الثاني : السياق الصوتي وأثره في توجيه المسائل النحوية 152
المطلب الثالث :السياق الصوتي وأثره في توجيه الوحدات الصرفية.....155
المبحث السابع :السياق الصرفي وأثره في توجيه الصيغ الصرفية.....159
المبحث الثامن : السياق البلاغي وأثره في توجيه الخطاب القرآني.....167
المطلب الأول:السياق البلاغي وأثره في توجيه الأساليب التعبيرية.....167
المطلب الثاني :السياق البلاغي وأثره في توجيه دلالة الأفعال.....170
الفصل الثالث : السياق غير اللغوي وأثره في توجيه الخطاب القرآني 174
المبحث الأول :سياق السنّة وأثره في توجيه الخطاب القرآني.....174
المطلب الأول: سياق السنّة وأثره في إيضاح المفردة القرآنيّة.....174
المطلب الثاني : سياق السنّة وأثره في إيضاح التركيب القرآني.....182
المطلب الثالث : سياق السنّة وأثره في توجيه الحكم الفقهي.....189
المطلب الرابع : سياق السنّة وأثره في تضعيف الأقوال.....192
المطلب الخامس: سياق السنّة وأثرها في الترجيح الدلالي.....195
المبحث الثاني : سياق الموقف وأثره في توجيه الخطاب القرآني.....200
أسياق سبب النزول وأثره في توجيه الخطاب القرآني.....200
المطلب الأول: سياق سبب النزول وأثره في الترجيح الفقهي.....201
المطلب الثاني:سياق أسباب النزول وأثره في الترجيح الدلالي.....204
المطلب الثالث: سياق سبب النزول وأثره في تضعيف الأقوال.....207
المطلب الرابع :سياق المكي والمدني وأثره في توجيه الخطاب القرآني.....210
المبحث الثالث :السياق الثقافي أثره في توجيه الخطاب القرآني.....217
المطلب الأول : سياق الموروث الجاهلي وأثره في توجيه الخطاب القرآني.....217
المبحث الرابع : سياق لسان العرب وأثره في توجيه الخطاب القرآني 224
المطلب الأول:سياق لسان العرب وأثره في إيضاح الدلالة.....225
المطلب الثاني: سياق لسان العرب وأثره في توجيه الألفاظ المتضادة.....229
المطلب الثالث :سياق لسان العرب وأثره في توجيه المسائل النحوية.....232
المطلب الرابع : سياق لسان العرب وأثره في توجيه المسائل الصرفية.....237
المطلب الخامس: سياق لسان العرب وأثره في دفع الإشكال.....241
المطلب السادس: سياق لسان العرب وأثره في توجيه الأساليب التعبيرية.....244

المبحث الخامس: سياق الثقافة الأصولية وأثره في توجيه الخطاب القرآني.....248
المطلب الأول: سياق الثقافة الأصولية وأثرها في إزالة الإشكال القرآني.....248
المبحث السادس: السياق العاطفي وأثره في توجيه الخطاب القرآني.....256-262
الخاتمة..... 266-267
قائمة المصادر و المراجع..... 269-276
الفهرس..... 278 -281